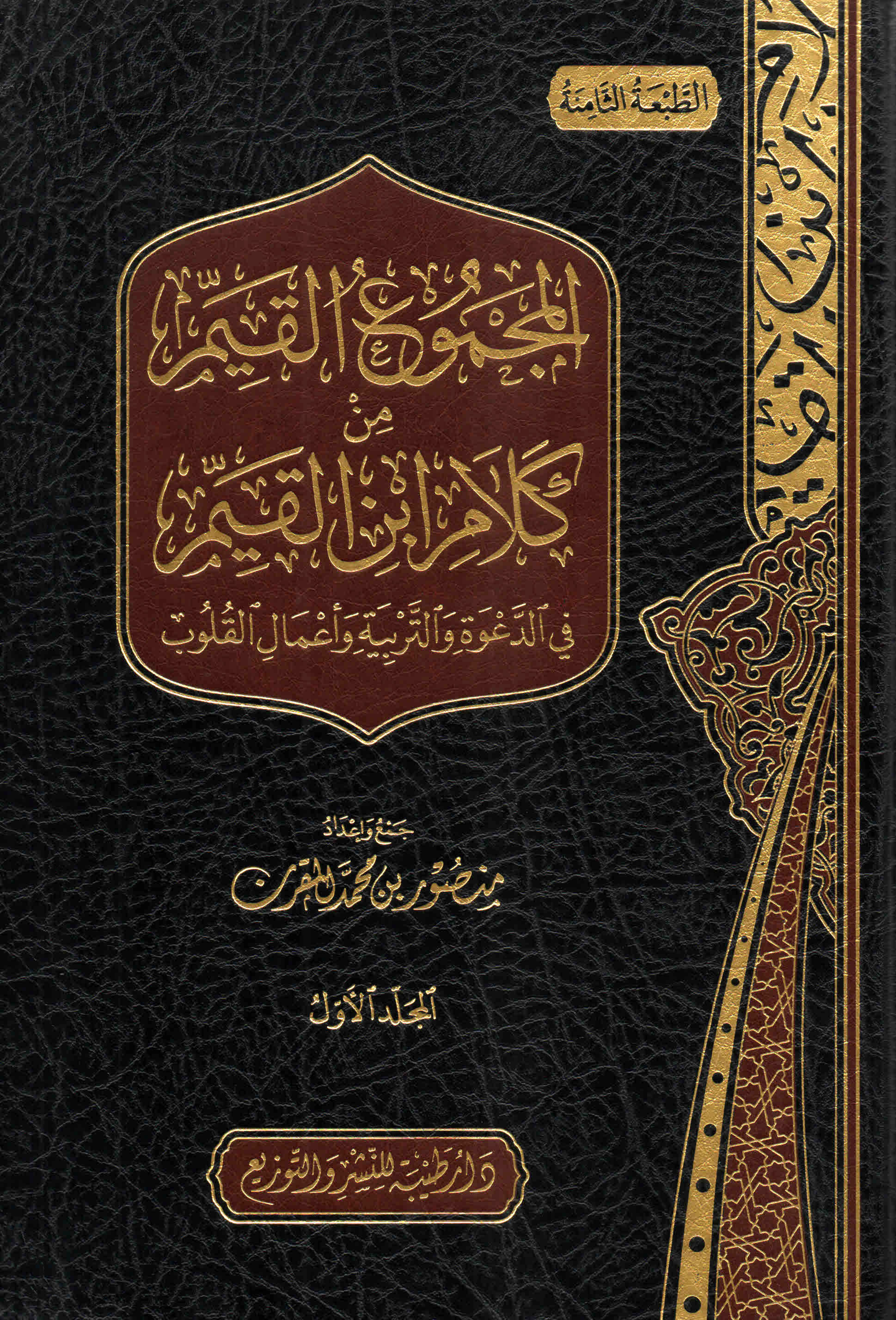

الطبعة الثامنة
المجموع القيم
من
كلام ابن القيم
في الدعوة والتربية وأعمال القلوب
جمع وإعداد
منصور بن محمد المقرن
المجلد الأول
دار طيبة للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المقرن ، منصور بن محمد
المجموع القيم من كلام ابن القيم
في الدعوة و التربية و أعمال القلوب (جزئين)
منصور بن محمد المقرن - ط 8 - الرياض ، 1445 هـ
2 مج 592 ص؛ 17×24 سم
ردمك: 2-87-8073-603-978 (مجموعة)
ردمك: 9-88-8073-603-978 (ج 1)
1- الدعوة الإسلامية 1- التربية الإسلامية أ. العنوان
ديوي 240 1445/2288

رقم الإيداع: 1445/2288
ردمك: 2-87-8073-603-978 (مجموعة)
ردمك: 9-88-8073-603-978 (ج 1)

الطَّبْعَةُ الثَّامِنَةُ
(1445هـ - 2023م)

دَارُ طَيْبَةَ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
+966554253737 +966114253737
www.tayba-store.com



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمدُ لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، أمَّا بعدُ..

فغيرُ خَافٍ علىٰ كل مَن له صلة بكتب أهل العلم مكانة وأهمية مؤلفات الإمام ابن قيِّم الجوزية رحمه الله تعالىٰ، وخاصة في أبواب الدعوة والتربية وأعمال القلوب والرقاق؛ فهو أبرز مَن صَنَّف فيها، حيث يُعَدُّ طبيبًا للقلوب ماهرًا، ومرشدًا في الدعوة والتربية حاذقًا، وواعظًا في الرِّقاق مُبْدِعًا.

ولمَّا كان كلامه في تلك الأبواب في غاية الأهمية؛ لأنها تتعرض لمحل الإيمان ومحرك الجوارح للعمل -وهو القلب- وتُعالجه[1]، ولكونها تُهَذِّب سلوك السائرين إلىٰ الله تعالىٰ وتُرشد الدعاة والمُرَبِّين؛ فقد قمتُ -مستعينًا بالله- بجمع كلماته الذهبية المتعلقة بتلك المواضيع من بين آلاف الصفحات من كتبه ومؤلفاته لأجعلها -بعد توفيق الله- في متناول طالبيها؛ فيسهل الرجوع إليها، وتزداد الاستفادة

---

(١) قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا أهمية أعمال القلوب في كتابه «بدائع الفوائد»: «فمعرفة أحكام القلوب أهمُّ مِن معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها»، وقال أيضًا: «عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت»، وقال: «عمل القلب هو رُوح العبودية ولُبُّها؛ فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد المَوَات بلا روح»، وقال في كتابه «الوابل الصَّيِّب»: «تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان».

منها؛ خاصة أن الأخيار والدعوة الإسلامية بشكل عام في حاجة ماسَّة لها؛ يتدارسونها في مجالسهم ومُلتقياتهم؛ فيتربون ويربون عليها، فيشتد العُود، ويَتَّضح المنهج، وتَقوىٰ العزيمة بإذن الله.

من جهة أخرىٰ؛ فإن هذا الكتاب يعتبر بالنسبة لِمَن قرأ ويقرأ في كتب ابن القيم تذكيرًا له وتوفيرًا لجهده ووقته، وبمثابة فهرسة لكتبه في تلك الأبواب، أما بالنسبة لمن لم يسبق له أن قرأ في كتب ذلك الإمام؛ فعسىٰ أن يكون ذلك دافعًا ومشجعًا لقراءتها.

وقد كان عملي في هذا الكتاب كالتالي:

١- حصر مؤلفات ابن القيم المطبوعة والثابت نِسبتها إليه. وقد كُفيت ذلك -والحمد لله- بأن وجدتُ كتابًا للعلامة الشيخ/ بكر بن عبد الله أبو زيد؛ أسماه: «ابن القيم.. حياته وآثاره»؛ أثبت فيه -وَفَّقَه الله- كلَّ مؤلفاته المطبوعة، والتي بلغت ٣١ كتابًا تقع في ٥٨ مجلدًا[١].

٢- قراءة تلك المؤلفات كاملة، وقد جاوز عددُ صفحاتها اثنين وعشرين ألف صفحة[٢].

٣- نقل المواضيع المتعلقة بالدعوة والتربية وأعمال القلوب والرقائق منها، وإعادة كتابتها كما هي بعد حذف الاستطرادات والتفريعات التي ليس لها علاقة

---

(١) انظر قائمةً بها في آخر الكتاب.

(٢) ما عدا كتاب «أسماء مؤلفات ابن تيمية، فلم أجده، ويظهر من عنوانه أنه لم يتطرق لأحد مواضيع هذا الكتاب، وعليه فلن يكون مؤثرًا علىٰ استكمال مادته.

مباشرة بالموضوع؛ كالكلام عن صحة حديث، أو الرد علىٰ شبهة قد تَعرض ونحو ذلك. وقد استلزم ذلك -كما هو معلوم- تصرفًا يسيرًا جدًّا وخاصة في بداية بعض المواضيع أملته طبيعة النقل والانتزاع، وقد وضعت مكان الكلام المحذوف ثلاث نقاط علامة علىٰ الحذف، كما هو مُتَّبَع في عُرف التأليف.

٤- وضع عنوان لكل موضوع يدلُّ عليه أو يُحَفِّز لقراءته، وقد بلغت ٥٨٠ عنوانًا.

٥- تبويب وتصنيف العناوين حسب مواضيعها؛ تيسيرًا للقارئ في كل موضع، وقد قُسِّمَت علىٰ ستة أبواب كالتالي:

الباب الأول: الفرائض والنوافل، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: الصلاة.

الفصل الثاني: الصيام.

الفصل الثالث: الصدقة.

الفصل الرابع: الحج.

الفصل الخامس: القرآن الكريم.

الفصل السادس: الذِّكر.

الباب الثاني: أعمال القلوب، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: أهمية أعمال القلوب.

الفصل الثاني: أنواع القلوب وآفاتها.

الفصل الثالث: صيانة القلوب وعلاجها.

الفصل الرابع: أعمال القلوب: (الإخلاص، المحبة، الرضا، التوكل، الخوف والرجاء، التوبة، التفكر، الصبر، أخرىٰ).

الباب الثالث: الآداب، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: الأخلاق.

الفصل الثاني: الإيثار.

الفصل الثالث: الأُخوة.

الفصل الرابع: متفرقات.

الباب الرابع: الدعوة والتربية، وفيه اثنا عشر فصلًا:

الفصل الأول: الحاجة إلىٰ الدين والهداية.

الفصل الثاني: عُبُوديَّات.

الفصل الثالث: الإقبال علىٰ الله تعالىٰ وصفات أهله.

الفصل الرابع: العِلم.

الفصل الخامس: الدعوة.

الفصل السادس: الابتلاء.

الفصل السابع: الجهاد.

وختامًا.. فإني لا أدَّعي أني قد أوردتُ كلَّ ما كتبه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تلك الأبواب، ولكن أزعم أني أوردت غالبيته؛ فقد تكون العين مَرَّت علىٰ شيء ولم يَمر عليه القلبُ؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ثم إني أجد نفسي مُلزمة برفع أصدق الدعاء وأبلغ الثناء للشيخ الفاضل/ بهاء الدين عقيل علىٰ جهده البارز وعمله الوافي، ودوره الكبير لكي يظهر الكتاب بالشكل الذي تراه أخي القارئ الكريم؛ فاللهَ أسألُ أن يَجزيه خير الجزاء.

أسألُ اللهَ جل وعلا كما يَسَّر إخراج هذا الكتاب أن يَضع له القبول، وأن ينفع به جامعه وقارئه وكل من ساهم في إخراجه ونشره؛ إنه سبحانه حسبنا ومولانا لا إله إلا هو.

منصور بن محمد بن عبد الله المقرن

الرياض-محرم ١٤٢٣هـ

almegrenm@gmail.com

واتس أب: ٠٠٩٦٦٥٦٧٥٦٧٧٥٥

مدونتي (مفاهيم)

mafaheim.com

٥ ♦ ٥







الباب الأول: الفرائض والنوافل

وفيه:

الفصل الأول: الصلاة.

الفصل الثاني: الصيام.

الفصل الثالث: الصدقة.

الفصل الرابع: الحج.

الفصل الخامس: القرآن الكريم.

الفصل السادس: الذِّكر.








الفصل الأول: الصلاة

[الحكم والمصالح في الصلاة]

[الصلاة اشتملت] علىٰ الحِكَم الباهرة، والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن والقوىٰ، التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة، واستفرغوا قُواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حِكَمها وأسرارها وغاياتها المحمودة.

بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة وما فيها من المعارف الإلهية، والحِكَم الربانية، والعلوم النافعة، والتوحيد التام، والثناء علىٰ الله تعالىٰ بأصول أسمائه وصفاته، وذكْرِ أقسام الخليقة، باعتبار غاياتهم ووسائلهم، وما في مقدماتها وشروطها من الحِكَم العجيبة؛ مِن تطهير الأعضاء والثياب والمكان، وأَخْذ الزينة، واستقبال بيته الذي جعله إمامًا للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمة جامعةٍ لمعاني العبودية، دالَّةٍ علىٰ أصول الثناء وفروعه، مُخْرِجةٍ من القلب الالتفاتَ إلىٰ ما سواه، والإقبال علىٰ غيره.

فيقوم بقلبه الوقوفُ بين يدي عظيم جليل كبير، أكبر من كل شيء، وأجلّ من كل شيء، وأعظم من كل شيء، تلاشت في كبريائه السماوات وما أظلّت، والأرض وما أَقلّت، والعوالم كلها، عَنَت له الوجوه، وخضعت له الرقاب،

وذلَّت له الجبابرة، قاهرٌ فوق عباده، ناظرٌ إليهم، عالمٌ بما تُكِنّ صدورهم، يسمع كلامهم، ويرىٰ مكانهم، ولا تخفىٰ عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره تبارك اسمه، وتعالىٰ جَدُّه، وتفرُّدِه بالإلهية.

ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يُثْنَىٰ عليه به من حمده وذِكْر ربوبيته للعالَم، وإحسانه إليهم، ورحمته بهم، وتمجيده بالمُلك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه مَلِك سواه، حين يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدينهم بأعمالهم.

ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيدِ ربوبيته استعانةً به، وتوحيدِ إلهيته عبوديةً له.

ثم سؤاله أفضل مسؤول، وأجل مطلوب علىٰ الإطلاق، وهو هداية الصراط المستقيم الذي نَصَبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطًا موصلًا لمن سلكه إليه وإلىٰ جنته، وأنه صراط من اختصّهم بنعمته بأنْ عَرَّفهم الحق، وجعلهم مُتّبِعِين له، دون صراط أمة الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتباعه.

فتضمّنت تعريفَ الربِّ، والطريقَ الموصل إليه، والغايةَ بعد الوصول.

وتضمّنت الثناءَ والدعاءَ، وأشرفَ الغايات وهي العبودية، وأقربَ الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدِّمًا فيها الغاية علىٰ الوسيلة، والمعبود



المستعان علىٰ الفعل؛ إيذانًا بالاختصاص، وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمّنت ذِكْرَ الإلهية والربوبية والرحمة، فيُثْنَىٰ عليه ويُعبد بإلهيته، ويَخْلق ويَرْزق، ويميت ويحيي، ويدبر الملك، ويضلّ من يستحق الإضلال، ويغضب علىٰ من يستحق الغضب؛ بربوبيته وحكمته، ويُنْعِم ويَرْحم، ويجود ويعفو ويغفر، ويهدي ويتوب؛ برحمته.

فَلِلَّهِ؛ كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد وحقائق الإيمان.

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب، وشفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح، وهو كلام ربّ العالمين، فيحلّ به في ما شاء من روضات مُونِقات، وحدائق مُعْجِبات، زاهية أزهارها، مُونِقة ثمارها، قد ذُلِّلت قطوفها تذليلًا، وسُهِّلت لمتناولها تسهيلًا، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يُؤمر به، وشرًّا يُنهىٰ عنه، وحكمة وموعظة، وتبصرة وتذكرة وعبرة، وتقريرًا لحق، ودحضًا لباطل، وإزالة لشبهة، وجوابًا عن مسألة، وإيضاحًا لمُشكِل، وترغيبًا في أسبابِ فلاحٍ وسعادة، وتحذيرًا من أسبابِ خسرانٍ وشقاوة، ودعوة إلىٰ هدىً، ورَدًّا عن ردىً؛ فتنزل علىٰ القلوب نزول الغيث علىٰ الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها.

فأيُّ نعيم وقرّة عين ولذة قلب وابتهاج وسرور؛ لا يحصل له في هذه المناجاة، والربّ تعالىٰ مستمع لكلامه جاريًا علىٰ لسان عبده، ويقول: «حَمِدني

عبدي، أثنىٰ عليَّ عبدي، مجَّدَني عبدي»(١).

ثم يعود إلىٰ تكبير ربّه ﷻ، فيجدد به عهد التذكرة، كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يُعامَل به.

ثم يركع حانيًا له ظهره؛ خضوعًا لعظمته، وتذلُّلًا لعزّته، واستكانةً لجبروته، مُسَبِّحًا له بذكر اسمه العظيم، فنَزَّهَ عظمته عن حال العبد وذلّه وخضوعه، وقابَلَ تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه، وطوىٰ ظهره، وربّه فوقه يشاهده، ويرىٰ خضوعه وذله، ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال، كما قال ﷺ: «أمَّا الركوعُ فعَظِّمُوا فيه الربَّ»(٢).

ثم عاد إلىٰ حاله من القيام حامدًا لربّه، مثنيًا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمِّها، مثنيًا عليه بأنه أهل الثناء والمجد، ومعترفًا بعبوديته، شاهدًا له بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحابَ الجُدُودِ والأموالِ والحظوظِ جُدُودُهم عنه ولو عظمت.

ثم يعود إلىٰ تكبيره، ويخرّ له ساجدًا علىٰ أشرف ما فيه وهو الوجه، فيعفِّره في التراب ذُلًا بين يديه ومسكنةً وانكسارًا، وقد أخذ كلُّ عضو من البدن حظَّه من هذا

(١) رواه مسلم برقم (٣٩٥) في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ونصُّه: «قال اللهُ ﷻ: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قال الله تعالىٰ: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال الله: أثنىٰ عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال: مجدني عبدي...»، الحديث.

(٢) رواه مسلم برقم (٤٧٩).

الخضوع، حتىٰ أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، ونُدِبَ له أن يسجد معه ثيابه وشعره فلا يكفّه، وأن لا يكون بعضه محمولًا علىٰ بعض، وأن يباشرَ التراب بجبهته، وينالَ ثِقْلُ وجهِهِ المُصَلَّىٰ، ويكون رأسه أسفل ما فيه تكميلًا للخضوع والتذلل لمن له العزّ كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه علىٰ عبده، فلو دام كذلك من حين خُلِق إلىٰ أن يموت لما أدّىٰ حق ربّه عليه.

ثم أُمِرَ أن يسبّح ربَّه الأعلىٰ، فيذكر علوّه سبحانه في حال سفوله هو، وينزّهه عن مثل هذه الحال، وأنّ من هو فوق كل شيء، وعالٍ علىٰ كل شيء يُنَزَّه عن السفول بكل معنىٰ، بل هو الأعلىٰ بكل معنىٰ من معاني العلو.

ولما كان هذا غاية ذلّ العبد وخضوعه وانكساره؛ كان أقرب ما يكون الربّ منه في هذه الحال، فأُمِر أن يجتهد في الدعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له؛ فينتقل من خضوع إلىٰ خضوع أكمل وأتم منه، وأرفع شأنًا.

وفُصِل بينهما بركن مقصود في نفسه، يجتهد فيه في الحمد والثناء والتمجيد، وجُعِل بين خضوعين: خضوع قبله، وخضوع بعده، وجُعِل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جُعِل خضوع الركوع بعد ذلك.

فتأمل هذا الترتيب العجيب، وهذا التنقّل في مراتب العبودية، كيف ينتقل من مقام الثناء علىٰ الربّ بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل محامده إلىٰ منزلة

خضوعه وتذلّله لمن له هذا الثناء، ويستصحب في مقام خضوعه ثناءً يناسب ذلك المقام، ويليق به، فيذكر عظمة الرب في حال خضوعه، وعلوّه في حال سُفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن شُرِع في أشرف أحوال الإنسان، وهي هيئة القيام التي قد انتصب فيها قائمًا علىٰ أحسن هيئة، ولما كان أفضل أركانها الفعلية السجود شُرِع فيها بوصف التكرار، وجُعِل خاتمة الركعة وغايتها التي انتهت إليها، فطابق افتتاحُ الركعة بالقرآن واختتامُها بالسجود أولَ سورةٍ افْتُتِح بها الوحي، فإنها بُدِئت بالقراءة، وخُتِمت بالسجود.

وشُرِع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جلسة العبيد، ويسأل ربّه أن يغفر له ويرحمه ويرزقه ويهديه ويعافيه، وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته.

ثم شُرِع له تكرارُ هذه الركعة مرة بعد مرة، كما شُرِع تكرارُ الأذكار والدعوات مرة بعد مرة؛ ليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بما بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ داؤُهُ نصيبَهُ وافرًا من الدواء ليقاومه؛ فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من الغذاء لقمة أو لقمتين كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيرًا جدًّا، وكذلك المرض الذي يحتاج إلىٰ قدر معين من الدواء، إذا أخذ منه المريض قيراطًا من ذلك لم يزل مرضه بالكلية، وأزال بحسبه، فما حصل الغذاءُ أو الشفاءُ للقلب



بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاته شُرِع له أن يقعد قِعْدَة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويسلّم علىٰ من جاء بهذا الحظ الجزيل، وما نالته الأمة علىٰ يديه، ثم يسلم علىٰ نفسه وعلىٰ سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي علىٰ من علّم الأمة هذا الخير ودلّهم عليه، ثم شُرِع له أن يسأل حوائجه، ويدعو بما أحب ما دام بين يدي ربّه مقبلًا عليه، فإذا قضىٰ ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم علىٰ المشاركين له في الصلاة.

هذا إلىٰ ما تضمنته من الأحوال والمعارف من أول المقامات إلىٰ آخرها، فلا تجد منزلًا من منازل السير إلىٰ الله تعالىٰ، ولا مقامًا من مقامات العارفين إلا وهو في ضمن الصلاة.

وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرة من بحر. اهـ(١).

[الصلاة.. الميزان العادل]

[الصلاة] بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه؛ فإنَّها محلّ المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربِّه، فلا شيء أقرَّ لعين المحبّ ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إن كان محبًّا، فإنه لا شيء آثر عند المحبّ ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومثوله بين يديه، وقد

---

(١) «شفاء العليل» (٢/ ٦٢٧- ٦٣٢).

أقبل بقلبه علىٰ محبوبه، وقد أقبل محبوبه عليه. وكان قبل ذلك معذَّبًا بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم، فإذا قام إلىٰ الصلاة هرب من سوىٰ الله إليه، وآوىٰ عنده، واطمأنَّ بذكره، وقرَّت عينُه بالمثول بين يديه ومناجاته؛ فلا شيء أهم إليه من الصلاة، كأنَّه في سجن وضيق وغمّ حتَّىٰ تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: «**يا بلال، أرِحْنا بالصلاة**»(١)، ولم يقل: أَرِحْنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في همّ وغمّ حتىٰ تحضر الصلاة، فيزول همّه وغمّه، أو كما قال. فالصلاة قرَّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذَّة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفارغ البطَّال همّها حتَّىٰ يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنقَّارين شأن! يشكون إلىٰ الله سوءَ صنيعهم بهم إذا ائتمّوا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويلَ إمامه؛ فسبحانه من فاضَلَ بين النفوس، وفاوتَ بينها هذا التفاوت العظيم!

وبالجملة فمن كانت قرَّة عينه في الصلاة؛ فلا شيء أحبّ إليه وأنعم عنده منها، ويودّ أن لو قطع عمرَه بها غيرَ مشتغل بغيرها، وإنَّما يسلّي نفسه إذا فارقها بأنّه سيعود إليها عن قرب؛ فهو دائمًا يثوب إليها، ولا يقضي منها وطرًا، فلا يزنُ العبد إيمانه ومحبّته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنّها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٦٤).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٢، ٥/ ٣٣١).



[مراتب الناس في الصلاة]

الناس في الصلاة علىٰ مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه، المُفَرِّط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: مَن يحافظ علىٰ مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه قد ضَيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: مَن حافظ علىٰ حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه؛ لئلا يسرق منه صلاته، فهو في صلاةٍ وجهاد.

الرابع: مَن إذا قام إلىٰ الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها؛ لئلا يُضَيِّع منها شيئًا، بل همُّه كله مصروف إلىٰ إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبَه شأنُ الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالىٰ فيها.

الخامس: مَن إذا قام إلىٰ الصلاة قام إليها كذلك، ولكنْ مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ، ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له، ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّتْ تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حُجُبُها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ، قرير العين به.

فالقسم الأول معاقَبٌ، والثاني محاسَبٌ، والثالث مكَفَّرٌ عنه، والرابع مثابٌ، والخامس مُقَرَّبٌ؛ لأن له نصيبًا ممن جُعِلَتْ قرة عينه في الصلاة، فمن قَرَّتْ عينه بصلاته في الدنيا قَرَّتْ عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقَرَّتْ عينه -أيضًا- به في الدنيا، ومن قَرَّتْ عينه بالله قَرَّتْ به كلُّ عين، ومن لم تَقَرَّ عينه بالله تعالىٰ تقطَّعَتْ نفسه علىٰ الدنيا حسرات.

وقد رُوي أن العبد إذا قام يصلي قال الله ﷻ: **«ارفعوا الحُجُبَ بيني وبين عبدي، فإذا التفت قال: أرخوها»**، وقد فُسِّر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله ﷻ إلىٰ غيره، فإذا التفت إلىٰ غيره أرخىٰ الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان، وعَرَضَ عليه أمور الدنيا، وأراه إياها في صورة المرآة. وإذا أقبل بقلبه علىٰ الله، ولم يلتفت، لم يقدر الشيطان علىٰ أن يتوسط بين الله تعالىٰ وبين ذلك القلب. وإنما يدخل الشيطان إذا وَقَعَ الحجابُ؛ فإن فر إلىٰ الله تعالىٰ وأحضر قلبه فَرَّ الشيطانُ، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة[1].

[السجودُ سِرُّ الصلاةِ وركنها الأعظم]

شُرِع السُّجود علىٰ أكمل الهيئات وأبلغِها في العبوديَّة، وأعمِّها لسائر الأعضاء؛ بحيث يأخذ كلُّ جزءٍ من البَدَن بحظِّه من العبوديَّة.

والسُّجُود سِرُّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة. وما قبله من الأركان كالمقدِّمات له، فهو شِبْهُ طواف الزِّيارة في الحجِّ؛ فإنَّه مقصود الحجِّ

(١) «الوابل الصيب» (٣٨، ٣٩).



ومحلُّ الدُّخول علىٰ الله وزيارته، وما قبله كالمقدِّمات له، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ، وأفضل الأحوال له حالٌ يكون فيها أقرب إلىٰ الله، ولهذا كان الدُّعاء في هذا المحلِّ أقرب إلىٰ الإجابة.

ولمَّا خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديرًا بأنْ لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطَّبْع والنَّفس بالخروج عنه؛ فإنَّ العبد لو تُرِكَ لطبعه ودواعي نفسه لتكَبَّرَ وأَشِرَ وخرج عن أَصْله الذي خُلِق منه، ولوَثَب علىٰ حقِّ ربِّه، من الكبرياء والعَظَمة، فنازعه إيَّاهما؛ فأُمِر بالسُّجود خضوعًا لعظمة ربِّه وفاطره، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له.

فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلُّل ردًّا له إلىٰ حكم العبوديَّة، ويتدارك به ما حصل له من الهفوة والغفلة، والإعراض الذي خرج به عن أصله، فَيتَمَثَّل له حقيقة التراب الذي خُلق منه وهو يضع أشرف شيءٍ منه وأعلاه -وهو الوجه- فيه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يَدَي ربِّه الأعلىٰ، وخشوعًا له، وتذلُّلًا لعظمته، واستكانةً لعِزَّته. وهذا غاية خشوع الظَّاهر.

فإنَّ الله سبحانه خَلَقَه من الأرض التي هي مذلَّلةٌ للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، وردَّه إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أُمُّه وأبوه وأَصْلُه وفَصْلُه، فضمَّته حيًّا علىٰ ظهرها، وميِّتًا في بطنها، وجُعِلَت له طُهْرًا ومسجدًا، فأُمِر بالسُّجود؛ إذ هو غاية خشوع الظَّاهر، وأجمع العبوديَّة لسائر الأعضاء، فيُعَفِّر وجهه في التُّراب؛ استكانةً وتواضعًا وخضوعًا وإلقاءً باليدين؛ قال مسروقٌ لسعيد بن جبير: «يا سعيد، ما بقي شيءٌ يُرْغَب فيه إلَّا أن نعفِّر وجوهنا في هذا التَّراب له».

وكان النَّبيُّ ﷺ لا يتَّقي الأرض بوجهه قصدًا، بل إذا اتَّفق له ذلك فَعَله، ولذلك سَجَد في الماء والطِّين... قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ولما كانت العبوديَّة غاية كمال الإنسان، وقُرْبُه من الله بحسب نصيبه من عبوديَّته، وكانت الصَّلاة جامعةً لمتفرِّق العبوديَّة، متضمِّنةً لأقسامها؛ كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه، وكان السُّجود أفضل أركانها الفِعليَّة، وسرَّها الذي شُرِعَت لأجله، وكان تكرُّره في الصَّلاة أكثر من تكرُّر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشُرِع فعله بعد الرُّكوع؛ فإنَّ الركوع توطئةٌ له، ومقدِّمةٌ بين يَدَيه، وشُرِعَ فيه من الثَّناء علىٰ الله ما يناسبه، وهو قول العبد: «سبحان ربِّي الأعلىٰ»؛ فهذا أفضل ما يُقَال فيه. ولم يَرِد عن النَّبِيِّ ﷺ أمره في السُّجود بغيره؛ حيث قال: «**اجعلوها في سجودكم**»(١).

ومَن تَرَكَه عمدًا فصلاتُه باطلةٌ عند كثيرٍ من العُلماء، منهم الإمام أحمد وغيره؛ لأنَّه لم يفعل ما أُمِر به.

وكان وصْفُ الرَّبِّ بالعُلُوِّ في هذه الحال في غاية المناسبة لحال السَّاجد الذي قد انحطَّ إلىٰ السُّفل علىٰ وجهه، فذكر علو ربِّه في حال سُفُولِه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزَّه ربَّه عمَّا لا يليق به ممَّا يضادُّ عظمَتَه وعلوَّه. اهـ(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب (الصلاة)، باب (ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده)، (ح٨٦٩)، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «الصلاة وحكم تاركها» (١٢٧ - ١٢٩) باختصار.



[الالتفات في الصلاة]

[الالتفات نوعان:]

أحدهما: التفات القلب عن الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ غير الله تعالىٰ.

والثاني: التفات البصر.

وكلاهما منهيٌّ عنه.

ولا يزال الله مقبلًا علىٰ عبده ما دام العبد مقبلًا علىٰ صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره؛ أعرض الله تعالىٰ عنه.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته؛ فقال: «**هو اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطانُ مِنْ صَلاةِ الْعَبْدِ**»[(١)]، وفي أثر: يقول الله تعالىٰ: «**إلىٰ خيرٍ مني؟! إلىٰ خيرٍ مني؟!**»، ومَثَلُ مَن يلتفت في صلاته -ببصره أو بقلبه- مَثَلُ رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالًا، وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يَفْهَمُ ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضرًا معه، فما ظن هذا الرّجل أن يَفْعَل به السلطان؟! أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مُبْعَدًا، قد سقط من عينيه؟!

فهذا المصلي لا يستوي والحاضرُ القلبِ المقبلُ علىٰ الله تعالىٰ في صلاته، الذي قد أشعر قلبَه عظمةَ من هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته، وذَلَّتْ عنقه له،

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب (الأذان)، باب (الالتفات في الصلاة)، (ح٧٥١).

واسْتَحْيَىٰ من ربه تعالىٰ أن يقبل علىٰ غيره، أو يلتفت عنه، وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: «إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل ما بين السماء والأرض»، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه علىٰ الله ﷻ، والآخر ساهٍ غافل.

فإذا أقبل العبد علىٰ مخلوق مثله، وبينهما حجاب؛ لم يكن إقبالًا ولا تقريبًا، فما الظن بالخالق ﷻ؟!

وإذا أقبل علىٰ الخالق ﷻ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حجاب الشهوات والوساوس، والنفسُ مشغوفةٌ بها، مَلأىٰ منها، فكيف يكون ذلك إقبالًا وقد أَلْهَتْهُ الوساوس والأفكار، وذهبت به كلَّ مَذْهب؟!

والعبدُ إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربِه، وأغيظِه للشيطان وأشدِّه عليه؛ فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يَعِدُه ويُمَنِّيه ويُنْسِيه، ويجلب عليه بخيله ورَجِلِه حتىٰ يُهوِّن عليه شأنَ الصلاة؛ فيتهاون بها، فيتركها.

فإن عجز عن ذلك منه، وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام؛ أقبل عدو الله تعالىٰ حتىٰ يخطر بينه وبين نفسه، ويَحُول بينه وبين قلبه، فيذكِّره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتىٰ ربما كان قد نسي شيئًا [أو حاجة][1]، وأَيِس منها، فَيُذَكِّره إياها في الصلاة؛ ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله ﷻ، فيقوم فيها بلا قلب؛ فلا ينال من إقبال الله تعالىٰ وكرامته وقربه ما يناله المقبلُ علىٰ ربه ﷻ، الحاضرُ بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته -مثل ما دخل فيها- بخطاياه وذنوبه وأثقاله، لم تَخِفَّ عنه

---

(١) في الأصل: والحاجة، والتصحيح من قِبَلِنا؛ ليتَّسِق الكلامُ.



بالصلاة؛ فإن الصلاة إنما تُكَفِّرُ سيئات من أدَّىٰ حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالىٰ بقلبه وقالبه؛ فهذا إذا انصرف منها وجد خِفَّةً من نفسه، وأحس بأثقالٍ قد وُضِعَتْ عنه، فوجد نشاطًا وراحةً وروحًا، حتىٰ يتمنىٰ أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرةُ عينه، ونعيمُ روحه، وجنة قلبه، ومُسْتَراحُه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتىٰ يدخل فيها؛ فيستريح بها، لا منها؛ فالمُحِبُّون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: «**يا بلالُ، أرِحنا بالصَّلاة**»[(١)]، ولم يقل: أرحنا منها، وقال ﷺ: «**جُعِلت قُرَّة عيني في الصّلاةِ**»[(٢)]، فمن جُعِلَتْ قرة عينه في الصلاة، فكيف تَقر عينه بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها؟! اهـ[(٣)].

[التخفيف والتطويل في الصلاة]

الإيجاز والتَّخفيف المأمور به، والتَّطويل المنهي عنه [في الصلاة] لا يمكن أنْ يُرْجَع فيه إلىٰ عادة طائفةٍ، وأهل بلدٍ، وأهل مذهبٍ، ولا إلىٰ شهوة المأمومين ورضاهم، ولا إلىٰ اجتهاد الأئمَّة الذين يُصَلُّون بالناس، ورأيهم في ذلك؛ فإنَّ ذلك لا ينضبط، وتضطرب فيه الآراء والإرادات أعظم اضطراب، ويفسد وضع الصَّلاة، ويصير مقدارها تبعًا لشهوة النَّاس. ومثل هذا لا تأتي به شريعةٌ، بل المرجع في ذلك والتَّحاكم إلىٰ ما كان يفعله من شَرَع الصَّلاة للأمَّة،

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٨٥)، والنسائي في «السنن»، كتاب (عشرة النساء)، باب (حب النساء)، (ح ٣٩٤٠).

(٣) «الوابل الصيب» (٣٥- ٣٧).

وجاءهم بها من عند الله، وعلَّمهم حقوقها وحدودها وهيئاتها وأركانها. وكان يصلِّي وراءَه الصغير والكبير والضعيف وذو الحاجة، ولم يكن بالمدينة إمامٌ غيره صلوات الله وسلامه عليه.

فالذي كان يفعله صلوات الله وسلامه عليه هو الذي كان يأمر به؛ فإنَّه كان إذا أمر بأمرٍ كان أوَّل الناس وأولاهم أخذًا به، وإذا نهىٰ عن شيءٍ كان أحقَّ الناس وأولاهم بتركه؛ ولهذا قال شعيبٌ صلوات الله عليه وسلامه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وقد سُئِل بعض أصحاب رسول الله ﷺ بعد موته عن صلاته؛ فأجابوا مَن سألهم بصلاته التي كان يصلِّيها حتىٰ قَبَضَه الله، كما روىٰ قَزَعة قال: رأيتُ أبا سعيدٍ الخدري وهو مكثورٌ عليه، فلمَّا تفرَّق الناس عنه قلتُ: إنِّي لا أسألك عمَّا يسألك هؤلاء عنه؟ أسألك عن صلاة رسول الله ﷺ، فقال: ما لَكَ في ذلك من خيرٍ؟ فأعادها عليه، فقال: «كانت صلاة الظهر تُقَام، فينطلق أحدنا إلىٰ البقيع، فيقضي حاجته، ثُمَّ يأتي أهلَه، فيتوضَّأ، ثم يرجع إلىٰ المسجد ورسول الله ﷺ في الرَّكعة الأولىٰ؛ ممَّا يطوِّلها»، رواه مسلم في «الصَّحيح»(١).

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الذي أنكره أبوسعيد وأنس وعمران بن حصين والبراء بن عازب؛ إنَّما هو حذف الصَّلاة والاختصار فيها والاقتصار علىٰ بعض ما كان رسول الله ﷺ يفعله. ولهذا لمَّا صلَّىٰ بهم أنسٌ قال: «إنِّي لا آلو أنْ أصلِّي بكم صلاة رسول الله ﷺ». قال ثابتٌ: «فكان أنسٌ يصنع شيئًا لا أراكم تصنعونه، كان إذا انتصب قائمًا يقوم حتىٰ يقول القائل: قد أَوْهَمَ، وإذا جلس بين

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الصلاة)، باب (القراءة في الظهر والعصر)، (ح٤٥٤).



السَّجدتين مَكَث حتىٰ يقول القائل: قد أوْهَمَ». فهذا ممَّا أنكره أنسٌ علىٰ الأئمَّة؛ حيث كانوا يقصرون هذين الرَّكنين، كما أنكر عليهم تقصير الركوع والسُّجود، وأخبر أنَّ أشبههم صلاةً برسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز، فحَزَرُوا تسبيحه في الركوع والسُّجُود عشرًا عشرًا.

ومن المعلوم أنَّه لم يكن يسبِّحها هذًّا مسرعًا من غير تدبُّرٍ! فحالهم أجلُّ من ذلك.

وقد بُلِيَ أنسٌ بِمَنْ وهَّمَه في ذلك، كما بُلِي بمن وهَّمَه في روايته ترك رسول الله ﷺ في صلاته الجهر بـ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وقالوا: كان صغيرًا يصلِّي وراء الصُّفوف، فلم يكن يسمع جهرهم بها.

وكما بُلِيَ بِمَن وهَّمَه في إحرام رسول الله ﷺ بالحجِّ والعمرة معًا، وقالوا: كان بعيدًا منه، لا يسمع إحرامه، حتىٰ قال لهم: «ما تعدُّونَني إلَّا صبيًّا! كنت تحت بطن ناقة رسول الله ﷺ، فسمِعْتُه يُهِلُّ بهما جميعًا».

وقَدِم رسول الله ﷺ المدينة ولأنسٍ عشر سنين، فخَدَمَه واختصَّ به، وكان يُعَدُّ من أهل بيته، وكان غلامًا كيِّسًا فَطِنًا، وتوفِّي رسول الله ﷺ وهو رجلٌ كاملٌ، له عشرون سنةً، ومع هذا كلِّه فيغلط علىٰ رسول الله ﷺ في قراءته وقدر صلاته وكيفية إحرامه! ويستمرُّ غلَطُه علىٰ خلفائه الراشدين من بعده، ويستمرُّ علىٰ صلاته في مؤخر المسجد، حيث لا يسمع قراءة أحدٍ منهم؟

وقد اتَّفق الصَّحابة رضي الله عنهم علىٰ أنَّ صلاة رسول الله ﷺ كانت معتدلةً؛ فكان ركوعه ورفعه منه وسجوده، ورفعه منه مناسبًا لقيامه، فإذا كان يقرأ في الفجر

بمائة آية إلىٰ ستِّين آيةً فلا بُدَّ أنْ يكون ركوعُه وسجودُه مناسبًا لذلك؛ ولهذا قال البراء بن عازبٍ: «إنَّ ذلك كلَّه كان قريبًا من السَّواء».

وقال عمران بن حصين: «كانت صلاة رسول الله ﷺ معتدلة».

وكذلك كان قيامه باللَّيل وصلاة الكسوف.

وقال عبد الله بن عمر: «إنْ كان رسول الله ﷺ ليأمُرُنا بالتَّخفيف، وإنْ كان ليَؤُمُّنا بالصَّافات». رواه الإمام أحمد والنَّسائي(١).

فهذا أمرُهُ، وهذا فعلُه المفسِّر له، لا ما يظنُّ الغالط المخطئُ: أنَّه كان يأمرهم بالتَّخفيف، ويفعل هو خلاف ما أَمَر به. وقد أمر -صلاة الله وسلامه عليه- الأئمَّة أنْ يصلُّوا بالنَّاس كما كان يصلِّي بهم.

ففي «الصَّحِيحَين» عن مالك بن الحويرث قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأَقَمْنَا عنده عشرين ليلةً، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فظنَّ أنَّا قد اشتقنا أهلنا، فسَألَنا عمَّن تركنا من أهلنا فأخبرناه، فقال: «**ارجعوا إلىٰ أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلِّمُوهم، ومُرُوهم، فلْيُصلُّوا صلاةَ كذا في حين كذا، وصلاةَ كذا في حين كذا، وإذا حَضَرَت الصَّلاة فليؤذِّن لكم أحدكم، وليؤمَّكم أكبرُكم، وصلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**». والسِّياق للبُخاري(٢).

فهذا خطابٌ للأئمَّة قطعًا، وإنْ لم يختصَّ بهم. فإذا أَمَرَهم أنْ يُصَلُّوا بصلاته، وأَمَرَهم بالتَّخفيف عُلِمَ بالضَّرورة أنَّ الذي كان يفعله هو الذي أَمَرَ به.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦، ٤٠)، والنسائي في «السنن»، كتاب (الإمامة)، (ح ٨٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب (الأذان)، باب (الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة)، (ح ٦٣١)، بلفظ مقارب.



يوضِّحُ ذلك أنَّه ما من فعلٍ في الغالب إلَّا وقد يُسمَّىٰ خفيفًا بالنِّسبة إلىٰ ما هو أطول منه، ويُسمَّىٰ طويلًا بالنِّسبة إلىٰ ما هو أخفُّ منه، فلا حدَّ له في اللُّغة يُرْجَع فيه إليه. وليس من الأفعال العُرْفِيَّة التي يُرْجَع فيها إلىٰ العُرْف؛ كالحِرْزِ، والقبض، وإحياء الموات.

والعبادات يُرْجَع إلىٰ الشَّارع في مقاديرها وصفاتها وهيئاتها، كما يُرْجَع إليه في أصلها، فلو جاز الرُّجوع في ذلك إلىٰ عُرف النَّاس وعوائدهم في مسمَّىٰ التَّخفيف والإيجاز لاختلفت أوضاع الصَّلاة ومقاديرها اختلافًا متباينًا لا ينضبط.

ولهذا لمَّا فهم بعض مَن نكَّسَ الله قلبه أنَّ التَّخفيف المأمور به هو ما يمكن من التَّخفيف اعتقد أنَّ الصَّلاة كلَّما خُفِّفت وأُوجِزَت كانت أفضل! فصار كثيرٌ منهم يمرُّ فيها مرَّ السَّهم، ولا يزيد علىٰ «الله أكبر» في الركوع والسُّجود بسرعة، ويكاد سجوده يسبق ركوعه، وركوعه يكاد يسبق قراءته، وربَّما ظنَّ أنَّ الاقتصار علىٰ تسبيحةٍ واحدةٍ أفضل من ثلاثٍ!

ويُحْكَىٰ عن بعض هؤلاء أنَّه رأىٰ غلامًا له يطمئنُّ في صلاته فضَرَبه، وقال: لو بَعَثك السُّلطان في شغلٍ أكنت تبطئُ في شغله مثل هذا الإبطاء!

وهذا كلُّه تلاعبٌ بالصَّلاة، وتعطيلٌ لها، وخداعٌ من الشيطان، وخلافٌ لأمر الله ورسوله؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]؛ فأَمَرَنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمةً تامَّة القيام والركوع والسجود والأذكار.

وقد علَّق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلِّي في صلاته، فمن فاته خشوع الصَّلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العَجَلة والنَّقر قطعًا،

بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلَّا مع الطُّمأنينة، وكُلَّما زاد طمأنينةً ازداد خشوعًا، وكُلَّما قَلَّ خشوعُه اشتدَّت عَجَلَتُه حتىٰ تصير حركة بدنه بمنزلة العَبَث، الذي لا يصحبُهُ خشوعٌ ولا إقبالٌ علىٰ العبوديَّة، ولا معرفة حقيقة العبوديَّة، والله سبحانه قد قال: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النِّساء: ١٠٣]، وقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النِّساء: ١٦٢]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال لموسىٰ: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضعٍ من التَّنزيل إلَّا مقرونًا بإقامتها.

فالمصلُّون في الناس قليلٌ، ومقيمو الصَّلاة منهم أقل القليل، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الحاجُّ قليلٌ، والرَّكب كثير».

فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها علىٰ التَّرويج تحلَّة القَسَم، ويقولون: يكفينا أدْنىٰ ما يقع عليه الاسم، وليتنا نأتي به! ولو علم هؤلاء أنَّ الملائكة تصعد بصلاتهم؛ فتعرضها علىٰ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، بمنزلة الهدايا التي يتقرَّب بها الناس إلىٰ ملوكهم وكبرائهم.

فليس مَنْ عَمَدَ إلىٰ أفضل ما يقدر عليه، فيزيِّنُه ويحسِّنُه ما استطاع، ثم يتقرَّب به إلىٰ من يرجوه ويخافه؛ كَمَنْ يعمد إلىٰ أسْقَط ما عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلىٰ مَنْ لا يقع عنده بموقع.

وليس من كانت الصَّلاة ربيعًا لقلبه، وحياةً له وراحةً، وقرَّةً لعينه، وجلاءً لحزنه، وذهابًا لهمِّه وغمِّه، ومَفْزَعًا له يلجأ إليه في نوائبه ونوازله؛ كمن هي

سَحْتٌ لقلبه وقيدٌ لجوارحه وتكليفٌ له وثقلٌ عليه؛ فهي كبيرةٌ علىٰ هذا، وقرَّة عينٍ وراحةٌ لذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

فإنَّما كبرت علىٰ غير هؤلاء لخلوِّ قلوبهم من محبَّة الله تعالىٰ وتكبيره وتعظيمه والخشوعِ له، وقِلَّة رغبتهم فيه؛ فإنَّ حضور العبد في الصَّلاة، وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وُسْعَه في إقامتها، وإتمامها علىٰ قدر رغبته في الله.

قال الإمام أحمد في رواية مهنَّا بن يحيىٰ: «إنَّما حظُّهُم من الإسلام علىٰ قدر حظِّهم من الصَّلاة، ورغبتهم في الإسلام علىٰ قَدْر رغبتهم في الصَّلاة».

فاعْرف نفسك يا عبد الله، واحْذَر أنْ تلقىٰ الله ﷻ ولا قدر للإسلام عندك؛ فإنَّ قدْرَ الإسلام في قلبك كقدر الصَّلاة في قلبك. وليس حظُّ القلب العامر بمحبَّة الله وخشيته والرَّغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصَّلاة كحظِّ القلب الخالي الخراب من ذلك.

فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصَّلاة، وقف هذا بقلبٍ مُخْبتٍ له، خاشعٍ له، قريبٍ منه، سليمٍ من معارضات السُّوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسَطَع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النَّفس، ودخان الشَّهوات؛ فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان بحقائق الأسماء والصِّفات، وعلوِّها، وجلالها، وكمالها الأعظم، وتفرُّد الرَّب سبحانه بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همُّه علىٰ الله، وقَرَّت عينه به، وأحسَّ بقُرْبِه من الله قربًا لا نظير له، ففرَّغ قلبه له، وأقبل عليه بكلِّيَّته.

وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربِّه؛ فإنَّه سبحانه أقبل عليه أوَّلًا، فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلمَّا أقبل علىٰ ربِّه حظي منه بإقبالٍ آخر أتمَّ من الإقبال الأوَّل. اهـ(١).

[النقَّارون]

حديث معاذ فهو الذي فَتَن النقَّارين وسُرَّاق الصلاة، لعدم علمهم بالقصة وسياقها. فإنّ معاذًا صلىٰ مع النبيِّ ﷺ عشاء الآخرة، ثم ذهب إلىٰ بني عمرو بن عوف بقباء، فقرأ بهم بسورة البقرة. هكذا جاء في «الصحيحين» من حديث جابر: «أنه استفتح بهم بسورة البقرة، فانفرد بعضُ القوم وصلىٰ وحدَه، فقيل: نافقَ فلانٌ؟ فقال: والله ما نافقتُ، ولآتينَّ رسولَ الله ﷺ، فأتاه فأخبره، فقال النبيُّ ﷺ حينئذٍ: «**أفتَّانٌ أنتَ يا معاذ؟ هلَّا صليتَ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ ، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾**»(٢).

وهكذا نقول: إنه يستحبُّ أن تُصلَّىٰ العشاءُ بهذه السور وأمثالها؛ فأيُّ متعلَّقٍ في هذا للنقَّارين وسُرَّاق الصلاة؟!

ومن المعلوم أنّ النبيَّ ﷺ كان يؤخِّر عشاءَ الآخرة، و[معلوم](٣) بُعْدَ ما بين بني عَمرو بن عوف وبين المسجد، ثم طول سورة البقرة؛ فهذا الذي أنكره النبيُّ ﷺ، وهو

---

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (١١٦ - ١٢٠).

(٢) رواه البخاري بنحوه في (الأذان)، باب (مَن شكا إمامه إذا طَوَّل)، (ح ٧٠٥)، ومسلم بنحوه في (الصلاة)، باب (القراءة في العشاء)، (ح ٤٦٥).

(٣) ما بين معكوفين إضافة لتوضيح السياق.

موضع الإنكار، وعليه يُحْمَل الحديث الآخر: «**يا أيها الناس، إن منكم مُنَفِّرين**»(١).

ومعلومٌ أن الناسَ لم يكونوا يَنْفِرون من صلاة رسول الله ﷺ، ولا ممن يصلِّي بقَدْرِ صلاته، وإنما ينفرون ممن يزيد في الطول علىٰ صلاته، فهذا الذي يُنَفِّر.

وأما إن قُدِّر نفور كثير ممن لا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالىٰ، وكثير من الباطولية الذين يعتادون النَّقْر كصلاة المنافقين، وليس لهم في الصلاة ذوق ولا لهم فيها راحة، بل يصليها أحدُهم استراحةً منها لا بها، فهؤلاء لا عبرة بنفورهم، فإنَّ أحدَهم يقف بين يدي المخلوق مُعْظَمَ اليوم، ويسعىٰ في خدمته أعظم السعي، فلا يشكو طولَ ذلك ولا يتبرَّمُ به، فإذا وقف بين يدي ربِّه في خدمته جزءًا يسيرًا من الزمان، وهو أقلّ القليل بالنسبة إلىٰ وقوفه في خدمة المخلوق؛ استثقل ذلك الوقوفَ، واستطالَ وشكا منه، وكأنه واقفٌ علىٰ الجمر يتلوَّىٰ ويتقلَّىٰ. ومَن كانت هذه كراهته لخدمة ربه والوقوف بين يديه، فالله تعالىٰ أَكْرَه لهذه الخدمة منه، وبالله المستعان. اهـ(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب (الأدب)، (ح ٦١١٠)، ومسلم، كتاب (الصلاة)، (ح ٤٦٦).
(٢) «مختصر سنن أبي داود» (١/ ٤١٦).



الفصل الثاني: الصيام

[المقصود من الصيام]

المقصودُ من الصِّيام: حَبْسُ النَّفس عن الشَّهوات، وفِطامها عن المألوفات، وتعديل قوَّتها الشَّهوانيَّة؛ لتستعدَّ لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبولِ ما تزكو به ممَّا فيه حياتها الأبديَّة، ويكسر الجوع والظَّمأ من حِدَّتها وسَوْرتها، ويذكِّره بحال الأكباد الجائعة من المساكين، ويُضيِّق مجاريَ الشَّيطان من العبد بتضييق مجاري الطَّعام والشَّراب، ويَحْبِس قوىٰ الأعضاء عن استرسالها لحكم الطَّبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكِّن كلَّ عضوٍ منها وكلَّ قوَّةٍ عن جماحه ويلتجم بلجامه. فهو لِجام المتَّقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لربِّ العالمين من بين سائر الأعمال، فإنَّ الصَّائم لا يفعل شيئًا، وإنَّما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو تركُ محبوبات النَّفس وتلذُّذاتها إيثارًا لمحبَّة الله ومرضاته، وهو سرٌّ بين العبد وربه لا يَطَّلع عليه سواه، والعباد قد يَطَّلعون منه علىٰ ترك المفطراتِ الظَّاهرة، وأمَّا كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمرٌ لا يطَّلع عليه بشرٌ، وذلك حقيقة الصَّوم.

وللصوم تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ الجوارح الظَّاهرة والقوىٰ الباطنة، وحِمْيتها عن التَّخليط الجالب لها الموادَّ الفاسدة الَّتي إذا استولت عليها أفسدتها،

واستفراغِ الموادِّ الرَّديئة المانعة لها من صحَّتها، فالصَّوم يحفظ علىٰ القلب والجوارح صحَّتها، ويُعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشَّهوات، فهو من أكبر العونِ علىٰ التَّقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الصَّوم جُنَّةٌ**»[١].

وأمر من اشتدَّت به شهوة النِّكاح، ولا قدرةَ له عليه بالصِّيام، وجعلَه وِجاءَ هذه الشَّهوة.

والمقصود: أنَّ مصالح الصَّوم لمَّا كانت مشهودةً بالعقول السَّليمة والفِطَر المستقيمة، شرعه الله لعباده رحمةً بهم، وإحسانًا إليهم، وحِميةً لهم وجُنَّةً[٢].

[من حكم الصِّيام]

الصوم ناهيك به من عبادة تكف النَّفس عَن شهواتها، وتُخرجها عَن شَبَه الْبَهَائِم إِلَىٰ شَبَه الْمَلَائِكَة المقربين، فَإِن النَّفس إذا خُلِّيت ودواعي شهواتها التحقت بعالم الْبَهَائِم، فَإِذا كُفَّت شهواتها لله ضيقت مجاري الشَّيْطَان، وَصَارَت قريبَة من الله بترك عَادَتهَا وشهواتها؛ محبَّة لَهُ وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إِلَيْهِ، فيدع الصَّائِم أحب الأَشْيَاء إِلَيْهِ، وَأَعْظَمهَا لصوقًا بِنَفسِهِ من الطَّعَام وَالشَّرَاب وَالْجِمَاع من أجل ربه، فَهُوَ عبَادَة، وَلَا تُتَصَوَّر حَقِيقَتهَا إِلَّا بترك الشَّهْوَة لله؛ فالصائم يدع

(١) رواه البخاري، كتاب (التوحيد)، (ح ٧٤٩٢)، ومسلم، كتاب (الصيام)، (ح ١١٥١).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٨-٣٠).



طَعَامه وَشَرَابه وشهواته من أجل ربه، وَهَذَا معنىٰ كَون الصَّوْم لَهُ تبَارك وَتَعَالَىٰ، وَبِهَذَا فسر النَّبِي ﷺ هَذِه الْإِضَافَة فِي الحَدِيث؛ فَقَالَ: «**يَقُول الله تَعَالَىٰ: كل عمل ابْن آدم يُضَاعف الْحَسَنَة بِعشْرَة أَمْثَالهَا، قَالَ الله: إِلَّا الصَّوْمُ؛ فَإِنَّه لي وَأَنا أجزي بِهِ، يدع طَعَامه وَشَرَابه من أجلي**»[١]، حَتَّىٰ إن الصَّائِم ليتصور بِصُورَة مَن لَا حَاجَة لَهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي تَحْصِيل رضا الله.

وَأي حسن يزِيد علىٰ حسن هَذِه الْعِبَادَة الَّتِي تكسر الشَّهْوَة وتقمع النَّفس، وتحيي الْقلب وتفرحه وتزهد فِي الدُّنْيَا وشهواتها، وترغب فِيمَا عِنْد الله، وتذكر الْأَغْنِيَاء بشأن الْمَسَاكِين وأحوالهم، وَأَنَّهُمْ قد أخذُوا بِنَصِيب من عيشهم، فتعطف قُلُوبهم عَلَيْهِم، ويعلمون مَا هم فِيهِ من نعم الله فيزدادوا لَهُ شكرًا.

وَبِالْجُمْلَةِ، فعون الصَّوْم علىٰ تقوىٰ الله أَمر مَشْهُور، فَمَا اسْتَعَانَ أحد علىٰ تقوىٰ الله وَحفظ حُدُوده وَاجْتنَاب مَحَارمه بِمثل الصَّوْم، فَهُوَ شَاهد لمن شَرعه وَأمر بِهِ بِأَنَّهُ أحكم الْحَاكِمين وأرحم الرَّاحِمِينَ، وَأَنه إِنَّمَا شَرعه إحسانًا إِلَىٰ عباده وَرَحْمَة بهم ولطفًا بهم، لَا بخلًا عَلَيْهِم برزقه، وَلَا مُجَرّد تَكْلِيف وتعذيب خَال من الْحِكْمَة والمصلحة، بل هُوَ غَايَة الْحِكْمَة وَالرَّحْمَة والمصلحة، وَإِن شرع هَذِه الْعِبَادَات لَهُم من تَمام نعْمَته عَلَيْهِم وَرَحمته بهم. اهـ[٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب (الصوم)، (ح ١٩٠٤)، ومسلم كتاب (الصيام)، (ح ١١٥١)، واللفظ له.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٢٢، ٣٢٣).

[خلوف فم الصائم]

[قال الرسول ﷺ: «... **ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»[(١)]].

أخبر النبي ﷺ بأن ذلك الطيب يكون يوم القيامة، فلأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال ومُوجِباتها من الخير والشر، فيظهر للخلق طِيبُ ذلك الخُلوف علىٰ المسك، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك، وكما تظهر فيه السرائر وتبدو علىٰ الوجوه وتصير علانية، ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسواد وجوههم.

وحيثُ أخبر بأن ذلك «حين يَخْلُف» و«حين يُمْسُون»؛ فلأنه وقت ظهور أثر العبادة، ويكون حينئذ طِيبُها زائدًا علىٰ ريح المسك عند الله تعالىٰ وعند ملائكته، وإن كانت تلك الرائحة كريهةً للعباد، فَرُبَّ مكروهٍ عند الناس محبوبٍ عند الله تعالىٰ، وبالعكس؛ فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم، والله تعالىٰ يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته، فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد، وصار علانية، وهكذا سائر آثار الأعمال من الخير والشر.

وإنما يكمل ظهورها ويصير علانية في الآخرة.

وقد يَقْوَىٰ العملُ ويتزايد حتىٰ يستلزم ظهور بعض أثره علىٰ العبد في

---

(١) هو تتمة الحديث السابق نفسه، (ص٣٧).



الدنيا في الخير والشر، كما هو مُشاهَدٌ بالبصر والبصيرة.

قال ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وقوّةً في البدن، وسَعَةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سَوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، وَوَهَنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغْضَةً في قلوب الخلق».

وقال عثمان بن عفان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «ما عمل رجل عملًا إلا ألبسه الله تعالىٰ رداءه، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ».

وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم، حتىٰ إنَّ الرجل الطّيِّب البَرَّ لتشمُّ منه رائحة طيبة وإن لم يَمَسَّ طِيبًا، فيظهر طيب رائحة روحه علىٰ بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس، والمزكوم الذي أصابه الهواء لا يشمُّ لا هذا ولا هذا، بل زكامه يحمله علىٰ الإنكار، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أعلم بالصواب. اهـ[1].

[أثر الاعتكاف]

لما كان صلاح القلب واستقامته علىٰ طريق سَيْره إلىٰ الله، متوقِّفًا علىٰ جمعيَّته علىٰ الله، ولَمِّ شَعَثِه بإقباله بالكلِّيَّة علىٰ الله تعالىٰ، فإنَّ شَعَثَ القلبِ لا يَلُمُّه إلا الإقبالُ علىٰ الله تعالىٰ، وكان فضول الطَّعام والشَّراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام؛ ممَّا يزيده شَعَثًا، ويُشتِّته في كلِّ وادٍ، ويقطعه عن سيرِه إلىٰ الله تعالىٰ، أو يُضعفه أو يُعوِّقه ويوقفه: اقتضتْ رحمة

---

(١) «الوابل الصيب» (٤٨، ٤٩).

العزيز الرَّحيم بعباده أن شرعَ لهم من الصَّوم ما يُذهبُ فضولَ الطَّعام والشَّراب، ويستفرغ من القلب أخلاطَ الشَّهوات المعوِّقة له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، وشرعَه بقدر المصلحة؛ بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضرُّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوفُ القلب علىٰ الله تعالىٰ، وجمعيَّته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغالُ به وحده سبحانه بحيث يصير ذكره وحبُّه والإقبالُ عليه في محلِّ هموم القلب وخَطَراته، فيستولي عليه بدلَها، ويصير الهمُّ كلُّه به، والخطراتُ كلُّها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرِّب منه، فيصير أُنسُه بالله بدلًا عن أنسه بالخلق، فيُعِدُّه بذلك لأنسه به يومَ الوحشة في القبور حين لا أنيسَ له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولمَّا كان هذا المقصود إنَّما يتمُّ مع الصَّوم؛ شُرِع الاعتكاف في أفضل أيَّام الصَّوم، وهو العشر الأخير من رمضان، ولم ينقل عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه اعتكف مفطرًا قطُّ، بل قد قالت عائشة: «لا اعتكافَ إلا بصومٍ»[(١)].

ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصَّوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصَّوم.

فالقول الرَّاجح في الدَّليل الذي عليه جمهور السَّلف: أنَّ الصَّوم شرطٌ في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجِّحه شيخُ الإسلام أبو العباس ابن تيمية[(٢)].

❀♦❀

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب (الصوم)، باب (المعتكف يعود المريض)، (ح ٢٤٧٣).

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٨٦- ٨٨).



الفصل الثالث: الصدقة

[هدي النبي ﷺ في صدقة التطوع]

كان ﷺ أعظم الناس صدقة بما مَلكت يدُه، وكان لا يستكثر شيئًا أعطاه لله تعالىٰ ولا يستقِلُّه، وكان لا يسأله أحد شيئًا عنده إلا أعطاه؛ قليلًا كان أو كثيرًا، وكان عطاؤه عطاء مَنْ لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينُه كالريح المرسلة.

وكان إذا عرض له محتاج آثره علىٰ نفسه؛ تارة بطعامه، وتارة بلباسه.

وكان ينوع في أصناف عطائه وصدقته؛ فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعًا، كما فعل ببعير جابر.

وتارة كان يقترض الشيء؛ فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها؛ تلطفًا وتنوعًا في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله، فيخرج ما عنده، ويأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلىٰ البذل والعطاء، وكان

مَن خالطه وصحبه ورأىٰ هديه لا يملك نفسه من السماحة والندىٰ.

وكان هديه ﷺ يدعو إلىٰ الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا؛ فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيرًا عجيبًا في شرح الصدر، وانضاف ذلك إلىٰ ما خَصَّه اللهُ به من شرح صدره بالنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها، وشرح صدره حسًّا وإخراج حظِّ الشيطان منه(١).

[الحث على الإنفاق وأحوال المتصدقين]

قال تعالىٰ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمَّن الحضَّ علىٰ الإنفاق والحثّ عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني؛ فإنَّها اشتملت علىٰ بيان الداعي إلىٰ البخل، والداعي إلىٰ البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.

فأخبر سبحانه أنَّ الذي يدعوهم إلىٰ البخل والشحّ هو الشيطان، وأخبر أنَّ دعوته هي بما يعدهم به ويخوِّفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم. وهذا هو الداعي الغالب علىٰ الخَلق، فإنّه يهمّ بالصدقة والبذل، فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متىٰ

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٢، ٢٣).

أخرجتَ هذا دعتك الحاجةُ إليه وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكُه خير لك حتَّىٰ لا تبقىٰ مثل الفقير؛ فغناك خيرٌ لك من غناه. فإذا صوَّر له هذه الصورة أمره بالفحشاء، وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين أنَّ الفحشاء هنا: البخل. فهذا وعده، وهذا أمره، وهو الكاذب في وعده، الغارّ الفاجر في أمره؛ فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنَّه يُدَلِّي مَن يدعوه بغروره، ثمَّ يورده شرَّ الموارد. كما قال:

دلَّاهمُ بغُرورٍ ثمَّ أوردَهم ... إنَّ الخبيثَ لمن والاه غرَّارُ

هذا، وإنَّ وعده له بالفقر ليس شفقةً عليه ولا نصيحةً له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبةً في بقائه غنيًّا، بل لا شيء أحبَّ إليه من فقره وحاجته، وإنَّما وعدُه له بالفقر وأمرُه إيَّاه بالبخل؛ ليُسيءَ ظنّه بربّه، ويتركَ ما يحبّه من الإنفاق لوجهه، فيستوجب منه الحرمان.

وأمَّا الله سبحانه فإنَّه يعِد عبده علىٰ إنفاقه مغفرةً منه لذنوبه، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر ممَّا أنفق وأضعافه؛ إمَّا في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة. فهذا وعدُ الله، وذاك وعدُ الشيطان؛ فلينظر البخيل والمنفق بأيّ الوعدين هو أوثق، وإلىٰ أيّهما يطمئنّ قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفِّق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وتأمَّل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنَّه واسع العطاء، عليمٌ بمن يستحقُّ فضله، ومن يستحقّ عدله، فيُعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكلِّ شيءٍ عليم...

وقد أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنَّه يثيبهم عليها إن أبدوها أو كتموها، بعد أن تكون خالصةً لوجهه؛ فقال: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾ [البقرة: ٢٧١]، أي: فنِعِمَّ شيئًا هي، وهذا مدحٌ لها موصوفةً بكونها ظاهرةً باديةً، فلا يتوهَّم مبديها بطلان أثره وثوابه، فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها زمن الإخفاء فتفوت، أو تعترضه الموانع، ويحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخِّرْ صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلىٰ وقت السرّ، وهذه كانت حال الصحابة رضي الله عنهم.

ثمَّ قال: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]؛ فأخبر أنَّ إعطاءَها الفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها، وتأمَّل تقييده تعالىٰ الإخفاءَ بإيتاء الفقراء خاصَّة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإنَّ من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤها؛ كتجهيز جيش وبناءِ قنطرة وإجراء نهر أو غير ذلك. وأمَّا إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرىٰ الناس أنَّ يده هي اليد السفلىٰ، وأنَّه لا شيء له؛ فيزهدون في معاملته ومعاوضته. وهذا قدرٌ زائد من الإحسان إليه بمجرَّد الصدقة، مع تضمّنه الإخلاصَ وعدمَ المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس؛ فكان إخفاؤها للفقير خيرًا من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- صدقة السرّ، وأثنىٰ علىٰ فاعلها، وأخبر أنَّه أحد السبعة الذين هم في ظلِّ عرش الرحمن يوم القيامة. ولهذا جعله سبحانه خيرًا للمنفق، وأخبر أنَّه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته. ولا يخفىٰ عليه



سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنَّه بما تعملون خبير.

ثمَّ أخبر أنَّ هذا الإنفاق إنَّما نفعه لأنفسهم، يعود عليهم أحوجَ ما كانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختصٌّ بها عائد إليها؟! وإنَّ نفقة المؤمنين إنَّما تكون ابتغاءَ وجهه خالصًا؛ لأنَّها صادرة عن إيمانهم، وأنَّ نفقتهم ترجع إليهم وافيةً كاملةً، ولا يظلم منها مثقال ذرَّة. وصدَّر هذا الكلام بأنَّ الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنَّه ليس علىٰ رسوله هداهم، بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يُوَفِّق مَن يشاء لمرضاته. اهـ[1].

[السنابل]

قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ شبَّه سبحانه نفقةَ المنفِق في سبيله -سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سُبل الخير من كلِّ برٍّ- كمن بذَر بَذْرًا؛ فأنبتت كلُّ حبة منه سبعَ سنابل، اشتملت كلُّ سنبلة علىٰ مائة حبة، والله يضاعف فوق ذلك لمن يشاء، بحسب حال المنفِق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفعِ نفقته وقدرها ووقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدرُه بإخراجه، وسمحت به نفسُه، وخرج من قلبه قبلَ خروجه من يده؛ فهو ثابت القلب عند

---

(١) «طريق الهجرتين» (٣٧٤- ٣٧٧).

إخراجه، غيرُ جَزِع ولا هَلِع، ولا مُتْبِعه نفسَه، ترجُف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه لمواقعه، وبحسب طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبَّه الإنفاق بالبذر، فالمنفقُ مالَه الطيِّبَ لله لا لغيره باذرٌ مالَه في أرض زكية، فمُغَلُّه بحسب بَذْرِه وطيبِ أرضه وتعاهُدِ البذر بالسقي ونفيِ الدَّغَل والنباتِ الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور، ولم تحرق الزرعَ نارٌ، ولا لحقته جائحةٌ جاء أمثالَ الجبال، وكان مثله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]- وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نُصْبَ الشمس والرياح- فتتربَّىٰ الأشجار هناك أتمَّ تربيةٍ؛ فنزَل عليها من السماء مطرٌ عظيمُ القطر متتابعٌ، فروَّاها ونمَّاها، فآتت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرُها بسبب ذلك الوابل، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: مطر صغير القَطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو علىٰ الطَّلِّ، وينمىٰ عليه، مع أنَّ في ذِكْر نوعي الوابل والطلِّ إشارةً إلىٰ نوعي الإنفاق الكثير والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًا، والله لا يُضيع مثقال ذرة. اهـ[1].

[فضل أهل الصدقة والإحسان والتحذير من المنِّ]

أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلىٰ الناس بأموالهم -علىٰ اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم في مهماتهم- هم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «**لا حسد إلا في اثنين:**

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٠٠، ٢٠١).

رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها الناس، ورجل آتاه الله مالًا وسَلَّطَه علىٰ هلكته في الحق»[1]، يعني: أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحدًا علىٰ نعمة ويتمنىٰ مثلها إلا أحد هذين، وذلك لما فيهما من منافع النفع العام والإحسان المتعدي إلىٰ الخلق؛ فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله، والخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله.

ولا ريب أن هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٤﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ [الحديد: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد: ١١].

فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنىٰ الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنىٰ: هل أحد يبذل

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري بنحوه، كتاب الزكاة، (ح ١٤٠٩)، ومسلم بنحوه أيضًا، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، (ح ٨١٦).

هذا القرض الحَسَن، فيجازئ عليه أضعافًا مضاعفة؟ وسمَّىٰ ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا حثًّا للنفوس وبعثًا لها علىٰ البذل؛ لأن الباذل متىٰ علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوَّعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه.

فإن علم أن المستقرض مليٌّ وفيٌّ مُحسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتىٰ يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاءٌ كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سَمَّاه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلىٰ المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله واستدعىٰ منه معاملته به، ثم أخبر عمَّا يرجع إليه بالقرض، وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم.

وحيث جاءَ هذا القرض في القرآن قَيَّدَه بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله لا مِن رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يُخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاءَ مرضاة الله.

الثالث: ألا يَمن به ولا يؤذي.



فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، وهذه الآية كأنَّها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرِض، ومثَّل سبحانه بهذا المثل إحضارًا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبَّة التي غُيِّبت في الأرض، فأنبتت سبع سنابل في كلِّ سنبلة مائة حبة، حتَّىٰ كأنَّ القلب ينظر إلىٰ هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلىٰ هذه السنابل التي هي من الحبّة الواحدة؛ فينضاف الشاهد العِياني إلىٰ الشاهد الإيماني القرآني، فيقوي إيمانُ المنفِق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمَّلْ كيف جمع السنبلة في هذه الآية علىٰ سنابل، وهي من جموع الكثرة؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها علىٰ سنبلات في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، فجاءَ بها علىٰ جمع القلَّة؛ لأنَّ السبعة قليلة، ولا مقتضىٰ للتكثير. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ قيل: المعنىٰ: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء، وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، وفي صفات المنفِق وأحواله، وفي شدَّة الحاجة وعظم النفع وحسن الموقع. وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك؛ فلا يقتصر به علىٰ السبعمائة، بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلىٰ أضعاف كثيرة.

واختلف في تفسير الآية؛ فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبَّة. وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبَّه؛ ليطابق الممثَّلُ الممثَّلَ به. فهنا أربعة أمور: منفِق، ونفقة، وباذر، وبَذْر، فذكر سبحانه من كلِّ شقٍّ أهمَّ قسميه، فذكر من شقّ الممثّل المنفِق، إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شقّ الممثَّل به البَذْرَ؛ إذ هو المحلّ الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر؛ لأنَّ الغرض لا يتعلَّق بذكره؛ فتأمَّل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمّن لغاية البيان. وهذا كثير في أمثال القرآن، بل عامتها ترد علىٰ هذا النمط.

ثمَّ ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنىٰ مطابقَين لسياقها، وهما (الواسع العليم)؛ فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عَطَنه؛ فإنَّ المضاعِف واسع العطاء، واسع الغنىٰ، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظنَّ أنَّ سعة عطائه تقتضي حصولها لكلِّ منفِق، فإنَّه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومَن لا يستحقّها ولا هو أهل لها؛ فإنَّ كرمه وفضله لا يناقض حكمتَه، بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢]. هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله، أي: في مرضاته والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها سبيل الجهاد. و(سبيل الله) خاصٌّ وعامٌّ، والخاصُّ جزءٌ من السبيل العامّ، وأن لا يتبع صدقتَه بِمَنٍّ ولا أذىٰ، **فالمنُّ نوعان:**

أحدهما: مَنٌّ بقلبه من غير أن يصرّح به بلسانه. وهذا وإن لم يُبطل الصدقة فهو يمنعه شهودَ منَّة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه؛ فللّه المنَّة عليه من كلِّ وجه، فكيف يشهد قلبُه منَّةً لغيره؟

والنوع الثاني: أن يمنّ عليه بلسانه، فيعتدَّ علىٰ من أحسن إليه بإحسانه، ويُريَه أنَّه اصطنعه وأنَّه أوجب عليه حقًّا، وطوَّقه منَّةً في عنقه، ويقول: أما أعطيتُك كذا وكذا؟ ويعدّد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك وأعطيتك، فما شكرتَ! وقال عبد الرحمن بن زيد: كان أبي يقول: إذا أعطيتَ رجلًا شيئًا، ورأيتَ أنَّ سلامك يثقل عليه، فكُفَّ سلامَك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعةً فانْسَوها، وإذا أُسدِيت إليكم صنيعةٌ فلا تنسَوها. وفي ذلك قيل:

وإنَّ امرءًا أهدَىٰ إليَّ صنيعةً ... وذَكَرنيها مرَّةً لَبخيلُ

وقيل: صنوان: مَن منَحَ سائلَه ومَنّ، ومن منع نائلَه وضَنَّ.

وحظر الله علىٰ عباده المنّ بالصنيعة واختصَّ به صفة لنفسه؛ لأنَّ منَّ العباد تكدير وتعيير، ومنَّ الله سبحانه إفضال وتذكير.

وأيضًا: فإنَّه هو المنعِم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعِم علىٰ عبده في الحقيقة. وأيضًا: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يَمُنّ عليه، ولا تصلح العبودية والذلّ إلا لله. وأيضًا: فالمنَّة: أن يشهد المعطي أنَّه هو ربّ الفضل والإنعام وأنَّه وليّ النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله. وأيضًا: فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفِّعًا علىٰ الآخذ، مستعليًا عليه، غنيًّا عنه،

عزيزًا، ويشهد ذلَّ الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا: فإنَّ المعطي قد تولَّىٰ اللهُ ثوابَه، وردَّ عليه أضعافَ ما أعطىٰ، فبقي عوضُ ما أعطىٰ عند الله، فأيّ حقٍّ بقيَ له قِبَلَ الآخذ؟ فإذا امتنَّ عليه فقد ظلمه ظلمًا بيِّنًا، وادَّعىٰ أنَّ حقَّه في قِبَله. ومن هنا -والله أعلم- بطلت صدقته بالمنّ، فإنَّه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولاحظ العوضَ من الآخذ والمعاملة عنده، فمنَّ عليه بما أعطاه أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمَّلْ هذه النصائح من الله لعباده، ودلالتها علىٰ ربوبيته وإلهيته وحده، وأنَّه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

ونبَّه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢] علىٰ أنَّ المنَّ والأذىٰ -ولو تراخىٰ عن الصدقة، وطال زمنه- ضرَّ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتىٰ بالواو وقال: ولا يُتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًىٰ، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المنّ والأذىٰ المتراخي مبطلًا لأثر الإنفاق مانعًا من الثواب، فالمقارن أولىٰ وأحرىٰ.

وتأمَّل كيف جرَّد الخبرَ هنا عن الفاءِ فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقرنه بالفاءِ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]؛ فإنَّ الفاءَ الداخلة علىٰ خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تُفهِم معنىٰ الشرط والجزاءِ،



وأنَّ الخبر مستحَقّ بما تضمّنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلمَّا كان المقام هنا يقتضي بيان حصر المستحِقّ للجزاءِ دون غيره جرّد الخبرَ عن الفاءِ، فإنَّ المعنىٰ أنَّ الذي ينفق ماله لله، ولا يمنّ ولا يؤذي، هو الذي يستحقّ الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله ويمنّ ويؤذي بنفقته. فليس المقام مقامَ شرط وجزاءٍ، بل مقام بيان للمستحِقّ من غيره.

وفي الآية الأخرىٰ ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانيةً، فذكر عمومَ الأوقات وعموم الأحوال، فأتىٰ بالفاءِ في الخبر ليدلّ علىٰ أنَّ الإنفاق في أيِّ وقت وُجِدَ من ليل أو نهار، وعلىٰ أيّ حالةٍ وُجِد من سرّ أو علانية، فإنَّه سبب للجزاءِ علىٰ كل حالٍّ؛ فلْيبادر إليه العبدُ، ولا ينتظر به غيرَ وقته وحاله، فلا يؤخّر نفقة الليل إذا حضر إلىٰ النهار، ولا نفقة النهار إلىٰ الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقتَ السرّ، ولا بنفقة السرّ وقت العلانية؛ فإنَّ نفقته في أيِّ وقت وعلىٰ أيّ حال وُجِدتْ سببٌ لأجره وثوابه.

فتدبَّر هذه الأسرار في القرآن، فلعلَّك لا تظفر بها فيما يمر بك من التفاسير. والمنَّة والفضل لله وحده لا شريك له. اهـ[1].

[آفة الإنفاق]

قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ

(١) «طريق الهجرتين» (٣٦٢- ٣٦٦).

فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

المنُّ والأذىٰ يُبطل الثوابَ الذي كانت [الصدقات] سببًا له؛ فمثلُ صاحبِها وبطلانِ عمله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ - وهو الحجر الأملس- ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد؛ ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ﴾: لا شيء عليه.

وتأمَّلْ أجزاءَ هذا المَثَل البليغ وانطباقَها علىٰ أجزاء الممثَّل به، تعرِفْ عظمة القرآن وجلالته؛ فإنَّ الحجرَ في مقابلة قلب هذا المرائي والمانِّ والمؤذي، فقلبُه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحَجَر، والعملُ الذي عَمِله لغير الله بمنزلة التراب الذي علىٰ ذلك الحجر؛ فقوةُ ما تحته وصلابتُه تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل، فليس له مادة متصلة بالذي يَقبل الماء ويُنبت الكلأ، وكذلك قلبُ المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقَدَر، فإذا نزل عليه وابلُ الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه، فبرز من تحته حجرًا صلدًا لا نبات فيه. وهذا مَثَلٌ ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته؛ لا يقدر يوم القيامة علىٰ ثوابِ شيءٍ منه أحوجَ ما كان إليه. وبالله التوفيق. اهـ(١).

٭ ◆ ٭

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).



الفصل الرابع: الحج

[التلبية]

اشتملت كلمات التلبية علىٰ قواعد عظيمة وفوائد جليلة:

إحداها: أن قولك: «لبَّيْكَ» يتضمن إجابة داعٍ دعاك ومنادٍ ناداك، ولا يصح في لغةٍ ولا عقل إجابةُ مَن لا يتكلَّم ولا يدعو من أجابَه.

الثانية: أنها تتضمن المحبة...، ولا يقال: «لبيك» إلا لمن تحبُّه وتعظِّمُه، ولهذا قيل في معناها: أنا مواجِهٌ لك بما تحبّ، وأنها من قولهم: امرأة لَبَّة، أي: مُحِبّة لولدها.

الثالثة: أنها تتضمّن التزام دوام العبودية، ولهذا قيل: هي من الإقامة، أي: أنا مقيم علىٰ طاعتك.

الرابعة: أنها تتضمن الخضوعَ والذُّلَّ، أي: خضوعًا لك بعد خضوع، من قولهم. أنا مُلِبٌّ بين يديك، أي: خاضع ذليل.

الخامسة: أنها تتضمّن الإخلاص، ولهذا قيل: إنها من اللُّبِّ، وهو الخالص.

السادسة: أنها تتضمّن الإقرار بسمع الرب تعالىٰ؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل: «لبيك» لِمَن لا يسمع دعاءه.

السابعة: أنها تتضمّن التقرُّب من الله، ولهذا قيل: إنها من الإلباب، وهو التقرُّب.

الثامنة: أنها جُعِلَت في الإحرام شعارًا لانتقال من حال إلىٰ حال، ومن مَنْسك إلىٰ مَنْسك، كما جُعل التكبير في الصلاة شعارًا للانتقال من ركن إلىٰ ركن، ولهذا كانت السُّنةُ أن يُلَبِّي حتىٰ يَشْرَع في الطواف، فيقطع التلبية، ثم إذا سار لبَّىٰ حتىٰ يقف بعرفة فيقطعها، ثم يلبِّي حتىٰ يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبِّي حتىٰ يرمي جمرة العقبة فيقطعها، فالتلبية شعار الحجِّ والتنقُّل في أعمال المناسك؛ فالحاجُّ كلما انتقل من ركن إلىٰ ركن قال: «لبيك اللهم لبيك»، كما أن المصلي يقول في انتقاله من ركن إلىٰ ركن: «الله أكبر»، فإذا حلَّ من نُسُكه قطعها، كما يكون سلام المصلي قاطعًا لتكبيره.

التاسعة: أنها شعار التوحيد؛ ملّة إبراهيم، الذي هو رُوح الحجِّ ومقصده، بل رُوح العبادات كلها والمقصود منها، ولهذا كانت التلبية مفتاح هذه العبادة التي يُدْخَل فيها بها.

العاشرة: أنها متضمنة لمفتاح الجنة وباب الإسلام الذي يُدخَل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنه لا شريك له.

الحادية عشرة: أنها مشتملة علىٰ الحمد لله الذي هو مِن أحبِّ ما يَتَقرَّب به العبدُ إلىٰ الله، وأول من يُدعَىٰ إلىٰ الجنة أهلُه، وهو فاتحة الصلاة وخاتمتها.

الثانية عشرة: أنها مشتملة علىٰ الاعتراف لله بالنعمة كلِّها، ولهذا عرَّفها باللام المفيدة للاستغراق، أي: النعم كلها لك ومنك، وأنتَ موليها والمُنْعِم بها.

الثالثة عشرة: أنها مشتملة علىٰ الاعتراف بأن المُلْك كلَّه لله وحده، فلا مُلك علىٰ الحقيقة لغيره.

الرابعة عشرة: أن هذا المعنىٰ مؤكَّد الثبوت بـ«إنَّ» المقتضية تحقيق الخبر وتثبيته، وأنه مما لا يدخله ريبٌ ولا شكٌ.

الخامسة عشرة: في «إنّ» وجهان: فتحها وكسرها؛ فمن فتحها تضمَّنت معنىٰ التعليل، أي: لبيك لأنّ الحمدَ والنعمةَ لك، ومَن كسرها كانت جملةً مستقلّةً مستأنَفَةً، تتضمن ابتداءَ الثناء علىٰ الله، والثناءُ إذا كَثُرت جُمَلُه وتعدَّدَت كان أحسن من قِلّتها، وأما إذا فُتِحت فإنها تُقدَّر بلام التعليل المحذوفة معها قياسًا، والمعنىٰ: لبيك؛ لأن الحمد لك، والفرق بين أن تكون جُمَل الثناء علةً لغيرها وبين أن تكون مستقلةً مرادة لنفسها، ولهذا قال ثعلب: «من قال: «إن» بالكسر فقد عَمَّ، ومَن قال: «أن» بالفتح فقد خصَّ».

ونظير هذين الوجهين والتعليلين والترجيح سواء: قوله تعالىٰ حكاية عن المؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور: ٢٨] بكسر «إن» وفتحها؛ فمَن فتَحَ كان المعنىٰ: «ندعوه؛ لأنه هو البَرُّ الرحيم»، ومَن كَسَر كان الكلام جملتين، إحداهما قولهم: «ندعوه»، ثم استأنف فقال: «إنه هو البر الرحيم»، قال أبو عُبيد: «والكسر أحسن»، ورجَّحَه بما ذكرناه.

السادسة عشرة: أنها متضمِّنة للإخبار عن اجتماع المُلْك والنعمة والحمد لله ﷻ، وهذا نوعٌ آخر مِن الثناء عليه، غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العَليَّة،

فله سبحانه من أوصافه العُلىٰ نَوْعَا ثناءٍ: نوعٌ متعلِّق بكلّ صِفَةٍ علىٰ انفرادها، ونوعٌ متعلِّق باجتماعها، وهو كمالٌ مع كمال، وهو غاية الكمال، والله سبحانه يَقْرِن في صفاته بين المُلك والحمد، وسَوَّغ هذا المعنىٰ أن اقتران أحدهما بالآخر من أعظم الكمال؛ فالملك وحدَه كمال، والحمد كمال، واقتران أحدهما بالآخر كمال، فإذا اجتمع المُلك المتضمِّن للقدرة مع النعمة المتضمِّنة لغاية النفع والإحسان والرحمة، مع الحَمْد المتضمِّن لغاية الجلال والإكرام الداعي إلىٰ محبَّته، كان في ذلك من العَظَمة والكمال والجلال ما هو أولىٰ به وهو أهله، وكان في ذِكْر العبد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلىٰ الله وإقباله عليه، والتوجُّه بدواعي المحبَّة كلها إليه ما هو مقصود العبودية ولُبُّها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...

السابعة عشرة: أن النبي ﷺ قال: «**خيرُ ما قُلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير**»[1]، وقد اشتملت التلبيةُ علىٰ هذه الكلمات بعينها، وتضمَّنت معانيها.

وقوله: «وهو علىٰ كل شيء قدير» لك أن تُدخلها تحت قولك في التلبية: «لا شريك لك»، ولك أن تُدخلها تحت قولك: «إن الحمد لك»، ولك أن تُدخلها تحت إثبات الملك له تعالىٰ؛ إذ لو كان بعض الموجودات خارجًا عن قُدْرته ومُلكه واقعًا بخلق غيره، لم يكن نفي الشريك عامًّا، ولم يكن إثبات الملك والحمد له عامًّا، وهذا من أعظم المحال، والمُلك كلُّه له، والحمد كلُّه

---

(١) أخرجهالترمذي، كتاب (الدعوات)، باب (في دعاء يوم عرفة)، (ح ٣٥٨٥).



له، وليس له شريك بوجه من الوجوه.

الثامنة عشرة: أن كلمات التلبية متضمِّنة للردِّ علىٰ كلِّ مُبطِلٍ في صفات الله وتوحيده؛ فإنها مُبْطِلة لقول المشركين علىٰ اختلاف طوائفهم ومقالاتهم، ولقول الفلاسفة وإخوانهم من الجهمية المعطِّلين لصفات الكمال التي هي مُتعَلَّق الحمدِ، فهو سبحانه محمودٌ لذاته ولصفاته ولأفعاله، فمَن جَحَد صفاته وأفعاله فقد جَحَد حَمْدَه، ومُبْطِلةٌ لقول مجوس الأمة من القَدَرِيَّة الذين أخرجوا عن ملكِ الرب وقدرتِه أفعالَ عبادِه من الملائكة والجن والإنس، فلم يُثبِتوا له عليها قدرةً، ولا جعلوه خالقًا لها؛ فعلىٰ قولهم لا تكون داخلةً تحت مُلكه، إذ مَنْ لا قدرةَ له علىٰ شيء كيف يكون هذا الشيء داخلًا تحت ملكه؟ فلم يجعلوا الملكَ كلَّه لله، ولم يجعلوه علىٰ كلِّ شيء قدير، وأما الفلاسفة فعندهم: لا قدرة له علىٰ شيءٍ البتة. فمن علم معنىٰ هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها بايَنَ جميعَ الطوائف المبطلة.

التاسعة عشرة: في عطف المُلك علىٰ الحمد والنعمة بعد كمال الخَبَر، وهو قوله: «**إنّ الحمدَ والنعمةَ لك والملك**»، ولم يقل: إن الحمد والنعمة والملك لك- لطيفة بديعة، وهي: أن الكلام يصير بذلك جملتين مستقلّتين، فإنه لو قال: «إن الحمد والنعمة والملك لك»، كان عطفُ الملكِ علىٰ ما قبله عطفَ مفردٍ علىٰ مفردٍ، فلما تمَّت الجملةُ الأولىٰ بقوله: «لك»، ثم عَطَف الملكَ، كان تقديره: والملك لك؛ فيكون مساويًا لقوله: «**له الملك وله الحمد**»، ولم يقل: له الملك والحمد، وفائدته تكرار الحمد في الثناء.

العشرون: لمَّا عَطَف النعمةَ علىٰ الحمد ولم يَفصل بينهما بالخبر، كان فيه إشعار باقترانهما وتلازمهما، وعدم مفارقة أحدهما للآخر؛ فالإنعام والحمد قرينان.

الحادية والعشرون: في إعادة الشهادة له بأنه لا شريك له لطيفة، وهي: أنه أخبر أنه لا شريك له عقب إجابته بقوله: «لبيك»، ثم أعادها عقب قوله: «إنّ الحمدَ والنعمةَ لك والملك، لا شريكَ لك»، وذلك يتضمَّن أنه لا شريك له في الحمد والنعمة والملك، والأول يتضمَّن أنه لا شريك لك في إجابة هذه الدعوة، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فأخبر بأنه «لا إله إلا هو» في أول الآية، وذلك داخل تحت شهادته وشهادة ملائكته وأُولي العلم، وهذا هو المشهود به، ثم أخبر عن قيامه بالقسط وهو العدل، فأعاد الشهادةَ بأنه لا إله إلا هو مع قيامه بالقسط. اهـ(١).

❧ ♦ ☙

(١) «مختصر سنن أبي داود» (٢/ ٣٣٧- ٣٤٠).



الفصل الخامس: القرآن الكريم

[فوائد تدبُّر القرآن]

التأمُّل في القرآن: هو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمعُ الفكر علىٰ تدبُّره وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّد تلاوته بلا تفهُّمٍ ولا تدبُّرٍ؛ قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نزل القرآن ليُتدبَّر ويُعمَل به؛ فاتَّخذوا تلاوته عملًا»، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته مِن تدبُّر القرآن وإطالة التأمُّل له، وجمع الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلع العبد علىٰ معالم الخير والشرِّ بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[1] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبِّت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيِّد بُنيانه وتوطِّد أركانه، وتُريه صورة الدُّنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتُريه أيّام الله فيهم، وتُبَصِّره مواقع العِبَر،

(١) تَتُل؛ أي: تدفع أو تُلقي.

وتُشهده عدل الله وفضله، وتعرِّفه ذاته وأسماءه وصفاتِه وأفعالَه، وما يحبُّه وما يُبغضه، وصراطَه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول إليه والقدوم عليه، وقواطعَ الطريق وآفاتِها، وتعرِّفه النفسَ وصفاتِها، ومفسداتِ الأعمال ومصحِّحاتها، وتعرِّفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالَهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتبَ أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسامَ الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة؛ تعرِّفه الربَّ المدعوَّ إليه، وطريقَ الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قَدِم عليه.

وتعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثةً أخرىٰ: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستَّة أمورٍ؛ ضروريٌّ للعبد معرفتُها ومشاهدتُها ومطالعتُها؛ فتُشهده الآخرة حتىٰ كأنَّه فيها، وتغيِّبه عن الدُّنيا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتميِّز له بين الحقِّ والباطل في كلِّ ما اختَلَف فيه العالَم، فتُريه الحقَّ حقًّا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرِّق به بين الهدىٰ والضلال والغيِّ والرَّشاد، وتعطيه قوَّةً في قلبه وحياةً وسعةً وانشراحًا وبهجةً وسرورًا، فيَصير في شأنٍ والناس في شأنٍ آخر.

فإنَّ معاني القرآن دائرةٌ علىٰ التَّوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يُنَزَّه عنه من سمات النَّقص، وعلىٰ الإيمان بالرُّسل، وذكر براهين صدقهم وأدلَّة صحَّة نبوَّتهم، والتّعريف بحقوقهم وحقوق مُرسِلهم؛



وعلىٰ الإيمان بملائكته -وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرُهم الأمورَ بإذنه ومشيئته-، وما جُعلوا عليه من أمر العالم العلويِّ والسُّفليِّ، وما يختصُّ بالنوع الإنسانيِّ منهم، من حين يستقرُّ في رحم أمِّه إلىٰ أن يوافي ربَّه ويَقْدَمَ عليه، وعلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد ولا تنغيص، وما أعدَّ لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيلِ ذلك أتمّ تفصيلٍ وأبينه، وعلىٰ تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقَدَر، والحلال والحرام، والمواعظ والعِبَر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلىٰ ربِّه بالوعد الجميل، وتحذِّره وتخوِّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثُّه علىٰ التضمُّر والتخفُّف للقاء اليوم الثقيل، وتَهديه في ظُلم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتصدُّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه علىٰ الازدياد من النِّعم بشكر ربِّه الجليل، وتبصِّره بحدود الحلال والحرام وتوقِفُه عليها؛ لئلَّا يتعدَّاها فيقع في العناء الطَّويل، وتثبِّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحقِّ والتّحويل، وتسهِّل عليه الأمور الصِّعاب والعقبات الشاقَّة غاية التسهيل، وتناديه كلَّما فترت عزماتُه وونىٰ في سيره: تقدَّم الرّكبُ وفاتَك الدليلُ، فاللَّحاقَ اللَّحاقَ، والرحيلَ الرحيلَ! وتحدو به وتسير أمامه سيرَ الدليل، وكلَّما خرج عليه كمينٌ من كمائن العدوِّ أو قاطعٌ من قطّاع الطّريق نادَتْه: الحذرَ، الحذرَ! فاعتصِمْ بالله واستعن به، وقُل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمُّل القرآن وتدبُّره وتفهُّمه أضعافُ أضعافِ ما ذكرناه من الحِكَم والفوائد. وبالجملة فهو أعظم الكنوز، طِلَّسْمُه الغوص بالفِكر إلىٰ قرار معانيه.اهـ[1].

[تدبر القرآن يُورث محبة الله تعالى]

تأمَّلْ خطابَ القرآن تجدْ مَلِكًا له المُلك كلُّه وله الحمدُ كلُّه، أزِمَّةُ الأمور كلِّها بيدَيْه؛ مصدَرُها منه ومردُّها إليه، مستويًا علىٰ سرير ملكه، لا تخفىٰ عليه خافيةٌ في أقطار مملكتِهِ، عالِمًا بما في نفوس عبيدِهِ، مُطَّلِعًا علىٰ أسرارِهِم وعلانِيَتِهِم، منفردًا بتدبير المملكة، يَسمعُ ويَرىٰ، ويُعطِي ويَمنعُ، ويُثيبُ ويعاقِبُ، ويُكْرِمُ ويُهِيْن، ويخلُق ويرزُقُ، ويُميتُ ويُحْيي، ويُقدِّرُ ويَقضي ويُدبِّر، الأمورُ نازلةٌ من عنده دقيقُها وجليلُها وصاعدةٌ إليه، لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلا بإذنِه، ولا تسقطُ ورقةٌ إلا بعلمِهِ.

فتأمَّلْ كيف تجِدُهُ يُثْني علىٰ نفسِهِ، ويُمجِّد نفسه، ويحمدُ نفسه، وينصِح عباده، ويدُلُّهم علىٰ ما فيه سعادتُهم وفلاحُهم، ويُرغِّبُهم فيه، ويُحذِّرُهم مما فيه هلاكُهم، ويتعرَّفُ إليهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ويَتحبَّبُ إليهم بنعمِهِ وآلائِهِ؛ فيُذكِّرهم بنِعَمِه عليهم، ويَأمرهم بما يستوجبون به تمامَها، ويُحذِّرهم من نِقَمِه ويُذكِّرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوهُ، ويُخبرُهم بصنعِهِ في أوليائِهِ وأعدائِهِ، وكيف كانت عاقبةُ هؤلاءِ وهؤلاءِ، ويُثني علىٰ أوليائِهِ بصالح أعمالِهم وأحسن أوصافهم، ويذمُّ أعداءه بسيِّئِ أعمالِهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، ويُنوِّعُ الأدلة والبراهين، ويُجيب عن

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٠ - ٤٤٢).



شُبه أعدائِهِ أحسنَ الأجوبة، ويُصدِّقُ الصادق، ويكذِّبُ الكاذب، ويقولُ الحقَّ، ويهدي السبيل، ويدعو إلىٰ دار السلام ويَذكُرُ أوصافها وحُسنها ونعيمها، ويُحذِّرُ من دار البَوَار ويَذكُرُ عذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّرُ عباده فقرهم إليه وشدَّة حاجتهم إليه من كلِّ وجهٍ، وأنَّهم لا غِنًىٰ لهم عنه طرفةَ عينٍ، ويذكُرُ غِناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغنيُّ بنفسه عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بنفسه، وأنه لا ينالُ أحدٌ ذرَّةً من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرَّة من الشر فما فوقها إلا بعدلِهِ وحكمتِهِ.

ويشهدُ من خطابه عتابَهُ لأحبابهِ ألطفَ عتابٍ، وأنه مع ذلك مُقِيلُ عثراتهم، وغافرُ زلَّاتِهم، ومُقيمٌ أعذارهم، ومُصلحٌ فسادهم، والدافع عنهم، والمُحامي عنهُم، والناصرُ لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمُنجي لهم من كلِّ كربٍ، والمُوفِي لهم بوعده، وأنَّه وليُّهم الذي لا وليَّ لَهم سواهُ؛ فهو مولاهم الحقُّ، ونَصيرُهم علىٰ عدوِّهم؛ فنعم المولىٰ ونعم النصيرُ.

فإذا شَهدتِ القلوبُ من القرآن مَلِكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنُهُ، فكيف لا تُحِبُّه، وتُنافِسُ في القُرْب منه، وتُنْفِقُ أنفاسها في التودُّد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كل ما سواه، ورضاهُ آثر عندها من رِضَا كلِّ ما سواه؟! وكيف لا تلهَجُ بذكْرِهِ، ويصير حبُّه والشوقُ إليه والأُنسُ به هو غِذاءَها وقُوتَها ودواءَها؛ بحيثُ إن فَقَدَتْ ذلك فَسَدَتْ وهلكتْ ولم تَنتفعْ بحياتِها؟! اهـ[1].

---

(١) «الفوائد» (٥١٠).

[شهادة الله تعالى للقرآن]

من شهادة [الله سبحانه للقرآن]: ما أودعه في قلوب عباده من التَّصديق الجازم، واليقين الثّابت، والطُّمأنينة بكلامه ووحيه؛ فإنَّ العادة تُحيل حصولَ ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء علىٰ ربِّ العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته، بل ذلك يُوقع أعظمَ الرَّيب والشّكِّ، وتدفعه الفطَرُ والعقولُ السّليمة، كما تدفع الفطَرُ -التي فُطِرَ عليها الحيوانُ- الأغذيةَ الخبيثةَ الضَّارَّةَ التي لا تغذِّي كالأبوال والأنتان؛ فإنَّ الله سبحانه فطَر القلوبَ علىٰ قبول الحقِّ، والانقياد له، والطُّمأنينة به، والسُّكون إليه ومحبّته؛ وفطَرها علىٰ بغض الكذب والباطل، والنُّفور عنه، والرِّيبة به، وعدم السُّكون إليه، ولو بقيت الفطَرُ علىٰ حالها لما آثرت علىٰ الحقِّ سواه، ولما سكنت إلّا إليه، ولا اطمأنَّت إلّا به، ولا أحبَّت غيره.

ولهذا ندَب سبحانه عبادَه إلىٰ تدبُّر القرآن، فإنَّ كلَّ من تدبَّره أوجب له تدبُّره علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا: أنّه حقٌّ وصدقٌ، بل أحقُّ كلِّ حقٍّ، وأصدَقُ كلِّ صدقٍ؛ وأنَّ الذي جاء به أصدَقُ خلقِ الله، وأبرُّهم، وأكمَلُهم علمًا وعملًا ومعرفةً؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ فلو رُفعت الأقفالُ عن القلوب لباشرتها حقائقُ القرآن، واستنارت فيها مصابيحُ الإيمان، وعلِمت علمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانيّة -من الفرح والألم والحبِّ والخوف- أنّه من عند الله؛ تكلَّم به حقًّا،

وبلَّغه رسولُه جبريلُ عنه إلىٰ رسوله محمَّدٍ ﷺ.

فهذا الشّاهد في القلب من أعظم الشّواهد، وبه احتجَّ هرقلُ علىٰ أبي سفيان حيث قال له: «فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحدٌ».

وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧].

يعني: أنَّ الآيةَ التي يقترحونها لا تُوجِب هدايةً، بل الله هو الذي يهدي ويضلُّ، ثمّ نبَّههم علىٰ أعظمِ آيةٍ وأجلِّها، وهي: طمأنينةُ قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ ، أي: بكتابه وكلامه؛ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ﴾ [الرعد: ٢٨]، فطمأنينةُ القلوب الصَّحيحة والفِطَر السَّليمة به وسكونُها إليه من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة أن تطمئنَّ القلوبُ وتسكنَ إلىٰ الكذب والافتراء والباطل. اهـ(١).

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٠٩ - ٤١١).

[في الفاتحة شفاء القلوب]

أما اشتمالها علىٰ شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال؛ فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها علىٰ أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان؛ وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها؛ فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء علىٰ كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة؛ لشدة ضرورته وفاقته إلىٰ الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد؛ فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نَوْعَي قصده فاسدًا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته؛ من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأيِّ طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه



في الطريق، وحادوا عنه إلىٰ طريق أخرىٰ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بُدًّا أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به، ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨- ٥٠] .

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا علىٰ أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسُّرًا إذا حَقَّ الحق وبَطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوىٰ من ذلك عند الرحيل منها والقدوم علىٰ الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فَيَا لَهُ هناك مِن عِلْمٍ لا ينفع عالمه، ويقين لا يُنجي مُستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمىٰ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من

هذا المرض إلا بدواء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

فإن هذا الدواء مُرَكَّبٌ من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره؛ بأمره وشرعه، لا بالهوىٰ ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم، واستعانة علىٰ عبوديته به، لا بنفس العبد وقوّته وحوله، ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فإذا ركَّبها الطَّبيبُ اللطيف العالمُ بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشِّفاء التّامُّ. وما نقَص من الشِّفاء فهو لفوَاتِ جزءٍ من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثمّ إنَّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلىٰ التَّلَف ولا بدَّ؛ وهما: الرِّياء، والكبر؛ فدواء الرِّياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وكثيرًا ما كنتُ أسمع شيخَ الإسلام ابن تيميّة -قدّس الله روحَه- يقول: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرِّياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تدفع الكبرياء».

فإذا عوفي من مرض الرِّياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبر والعُجْب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ومن مرض الضَّلال والجهل بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾؛ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَل في أثواب العافية، وتمَّت عليه النِّعمة، وكان من المنعَم عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ -وهم أهلُ فساد القصد- الذين عرفوا الحقّ وعدَلوا عنه، والضّالِّين: وهم أهلُ فساد العلم؛ الذين جهلوا الحقَّ ولم يعرفوه.



وحقَّ لسورةٍ تشتمل علىٰ هذين الشفاءين: أن يُستشفىٰ بها من كلِّ مرضٍ، ولهذا لمَّا اشتملت علىٰ هذا الشِّفاء الذي هو أعظم الشفاءين؛ كان حصول الشِّفاء الأدنىٰ بها أولىٰ، كما سنبيِّنه، فلا شيء أشفىٰ للقلوب التي عقلت عن الله تعالىٰ كلامَه، وفهمت عنه فهمًا خاصًّا اختصَّها به من معاني هذه السُّورة.اهـ[١].

[فضائل الفاتحة]

فاتحة الكتاب، وأمُّ القرآن، والسَّبعُ المثاني، والشِّفاء التَّامُّ، والدَّواء النَّافع، والرُّقية التَّامَّة، ومفتاح الغنىٰ والفلاح، وحافظة القوَّة، ودافعة الهمِّ والغمِّ والخوف والحزن، لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقَّها، وأحسن تنزيلَها علىٰ دائه، وعرف وجهَ الاستشفاء والتَّداوي بها، والسِّرَّ الذي لأجله كانت كذلك.

ولمَّا وقع بعضُ الصحابة علىٰ ذلك رقي بها اللديغ؛ فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «**وما يُدريك أنَّها رُقية**»[٢].

ومن ساعده التوفيق وأُعين بنور البصيرة حتىٰ وقف علىٰ أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقَدَر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلىٰ مَن له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٦٨- ٧٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب (الإجارة)، (ح ٢٢٧٦).

الدارين، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة، والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة علىٰ التحقق بها، أغنته عن كثير من الأدوية والرُّقىٰ، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابَه.

وهذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرىٰ، وعقل آخر، وإيمان آخر، وتالله لا تجد مقالة فاسدة، ولا بدعة باطلة إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردها وإبطالها بأقرب الطرق وأصحها وأوضحها، ولا تجد بابًا من أبواب المعارف الإلهية، وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه، ولا منزلًا من منازل السائرين إلىٰ رب العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها.

ولعمر الله إن شأنها لأعظم من ذلك، وهي فوق ذلك. وما تحقق عبد بها، واعتصم بها، وعقل عمن تكلم بها، وأنزلها شفاء تامًّا، وعصمة بالغة، ونورًا مبينًا، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغي ووقع في بدعة ولا شرك، ولا أصابه مرض من أمراض القلوب إلا لَمامًا، غير مستقر.

هذا، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة، ولكن ليس كل واحد يحسن الفتح بِذَا المفتاح، ولو أن طلاب الكنوز وقفوا علىٰ سر هذه السورة، وتحققوا بمعانيها، وركبوا لهذا المفتاح أسنانًا، وأحسنوا الفتح به، لوصلوا إلىٰ تناول الكنوز من غير معاوق، ولا ممانع.

ولم نقل هذا مجازفة ولا استعارة، بل حقيقة، ولكن لله تعالىٰ حكمة بالغة في إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين، كما له حكمة بالغة في إخفاء كنوز الأرض



عنهم، والكنوز المحجوبة قد استُخدم عليها أرواح خبيثة شيطانية تحول بين الإنس وبينها، ولا تقهرها إلا أرواح علوية شريفة غالبة لها بحالها الإيماني، معها منه أسلحة لا تقوم لها الشياطين، وأكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابة، فلا يُقاوم تلك الأرواح ولا يَقهرها، ولا ينال من سلبها شيئًا، فإنَّ «**مَن قتل قتيلًا فله سَلَبُه**». اهـ[١].

[مراتب ﴿ ٱهْدِنَا ﴾]

المرتبة الأولىٰ: هداية العلم والبيان؛ فيجعله عالمًا بالحق مدركًا له.

الثانية: أن يُقْدِرَه عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلًا له.

الخامسة: أن يُثبته علىٰ ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة؛ أخص من الأولىٰ، فإن الأولىٰ هداية إلىٰ الطريق إجمالًا، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلًا.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه؛ فيكون مطالعًا له في سيره، ملتفتًا إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٣٤٧، ٣٤٨).

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلىٰ هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصدًا وعنادًا، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلًا وضلالًا، ثم يشهد جمع (الصراط المستقيم) في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رُسل الله وأتباعهم؛ فمن حصل له هذا الجمع، فقد هُدِي الصراط المستقيم، والله أعلم. اهـ[1].

[فوائد الاستعاذة عند قراءة القرآن]

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠]... فأمر سبحانه بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن، **وفي ذلك وجوه**:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور؛ يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أثَّره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلًا خاليًا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٦، ٤٤٧).

أَتَـانِي هَوَاهَـا قَبْـلَ أَنْ أَعْـرِفَ الْهَـوىٰ ... فَصَـــادَفَ قَلْبًــا خَالِيًــا فَتَمَكَّنَــا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلىٰ القلب قد خلا من مزاحمٍ ومُضادٍّ له، فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدىٰ والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نارٌ يحرق النبات أولًا فأولًا، فكلما أحسَّ بنبات الخير في القلب سعىٰ في إفساده وإحراقه، فأُمر أن يستعيذ بالله منه؛ لئلا يُفسِد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأنَّ من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لَاحَظَ هذا المعنىٰ، وهو لعَمْر اللهِ مَلْحَظ جيد؛ إلا أن السُّنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهي محصّلة للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأىٰ مثلَ الظُّلة فيها مثل المصابيح؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**تلك الملائكة**»(١). والشيطان ضد الملَك وعدوُّه، فأُمر القارئ أن يطلب من الله مباعدة عدوه عنه حتىٰ يحضره خاص ملائكته؛ فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب علىٰ القارئ بخَيْلِه ورَجِلِه، حتىٰ يَشْغَله عن

---

(١) رواه مسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (نزول السكينة بقراءة القرآن)، (ح ٧٩٦).

المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده علىٰ أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله بكلامه، والله تعالىٰ أشد أُذُنًا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلىٰ قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأُمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالىٰ، واستماع الربِّ قراءتَه.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىٰ ألقىٰ الشيطان في أُمنيته، والسلف كلهم علىٰ أن المعنىٰ: إذا تلا ألقىٰ الشيطان في تلاوته، كما قال الشاعر في عثمان:

تَمنَّــــىٰ كِتَــــابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِـــهِ ... وَآخِـــرَهُ لاقَـــىٰ حِمَـــامَ المَقَـــادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل؛ فكيف بغيرهم؟

ولهذا يُغلِّط القارئ تارة، ويخلط عليه القراءة، ويشوِّشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يُشوِّش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يَعدمْ منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالىٰ منه.

ومنها: أن الشيطان أحرصُ ما يكون علىٰ الإنسان عندما يهمُّ بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه، وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «**إن شيطانًا تَفلَّتَ عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع عليَّ صلاتي**»، الحديث[1]. وكلما

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري بلفظ مقارب، كتاب (الصلاة)، (ح ٤٦١)، وكذا مسلم، كتاب =

كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلىٰ الله كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإسْلامِ، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وآبَاءِ آبَائِكَ؟ فعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَماءَكَ؟ وَإِنَما مَثَلُ المهَاجِرِ كالفَرَسِ في الطول! فَعَصَاهُ وَهاجَر، ثُمَّ قعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَال؛ فقال: تقَاتِلُ فَتُقْتَلُ؛ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»**(١).

فالشيطان بالرصد للإنسان علىٰ طريق كل خير.

وقال منصور: عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من رفقة تخرج إلىٰ مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالىٰ منه أولًا، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تُشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة؛ فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالىٰ، ثم شُرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده؛ لما ذكرنا من

= (المساجد ومواضع الصلاة)، (ح ٥٤١).

(١) رواه النسائي، كتاب (الجهاد)، (ح ٣١٣٤)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٣).

الحِكَم وغيرها. فهذه بعض فوائد الاستعاذة. اهـ[١].

[هجر القرآن والحَرَج منه]

هَجْرُ القرآن أنواعٌ:

أحدها: هجرُ سَماعِهِ، والإيمان به، والإصغاءِ إليه.

والثاني: هجرُ العملِ به، والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ، وإنْ قرأهُ وآمنَ به.

والثالث: هجرُ تحكيمِه والتحاكمِ إليه في أصول الدِّين وفروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يُفِيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتهُ لفظيَّةٌ لا تحصِّلُ العلمَ.

والرابع: هجرُ تدبُّرِه وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

والخامس: هجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيَطلبُ شِفاءَ دائِهِ من غيره، ويَهجُرُ التداويَ به.

وكلُّ هذا داخلٌ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإنْ كان بعضُ الهَجْرِ أهونَ من بعضٍ.

وكذلك الحَرَجُ الذي في الصدور منه:

فإنه تارةً يكون حرجًا من إنزالِهِ وكونِه حقًّا من عند الله.

وتارةً يكونُ من جهة المتكلِّم به، أو كونِه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهمَ

(١) «إغاثة اللهفان» (١٠١، ١٠٢/١).



غيرَهُ أن تكلَّم به.

وتارةً يكون من جهة كفايتِه وعدمِها، وأنَّه لا يَكفي العبادَ، بل هم محتاجون معه إلىٰ المعقولات أو الأقيسة أو الآراء أو السياسات.

وتارةً يكونُ من جهة دلالته، وما أُرِيدَ به حقائقُهُ المفهومةُ منه عند الخطاب؟ أو أُرِيدَ به تأويلُها وإخراجُها عن حقائقها إلىٰ تأويلاتٍ مُستكْرَهةٍ مشتركةٍ؟!

وتارةً يكونُ من جهة كون تلك الحقائق، وإن كانت مرادةً فهي ثابتةٌ في نفس الأمر؟ أو أوْهمَ أنَّها مرادةٌ لضربٍ من المصلحة؟!

فكلُّ هؤلاء في صدورهم حرجٌ من القرآن، وهم يَعلَمون ذلك من نفوسهم، ويَجِدُونه في صدورهم.

ولا تجدُ مبتدعًا في دينه قطُّ إلَّا وفي قلبه حرجٌ من الآيات التي تُخالِفُ بدعتَهُ؛ كما أنك لا تجدُ ظالمًا فاجرًا إلَّا وفي صدرِه حرجٌ من الآيات التي تَحُولُ بينه وبين إرادته.

فتدبَّرْ هذا المعنىٰ، ثم ارْضَ لنفسِكَ بما تشاءُ. اهـ(١).

❀♦❀

---

(١) «الفوائد» (١٢٣).

الفصل السادس: الذِّكر

[جماع الدِّين]

مبنىٰ الدِّين علىٰ قاعدتين: الذِّكْر والشُّكر؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال النبيُّ ﷺ لمعاذٍ: «واللهِ إنِّي لأحبُّك؛ فلا تنسَ أن تقول دُبُر كُلِّ صلاةٍ: اللهمَّ أعِنِّي علىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ»[(١)].

وليس المرادُ بالذِّكرِ مجرد ذِكر اللِّسان، بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكرَ أسمائِهِ وصفاته، وذكرَ أَمرهِ ونهيِهِ وذِكْرَهُ بكلامه، وذلك يستلزمُ معرفتَهُ والإيمان به وبصفات كمالهِ ونعوتِ جلالِهِ والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتمُّ إلا بتوحيده.

فذكره الحقيقيُّ يستلزمُ ذلك كلَّه، ويستلزم ذكر نعمهِ وآلائِهِ وإحسانِهِ إلىٰ خلقه. وأما الشكرُ، فهو القيامُ له بطاعته، والتقرُّبُ إليه بأنواع محابِّه ظاهرًا وباطنًا. وهذان الأمران هما جِمَاعُ الدِّين؛ فذكره مستلزمٌ لمعرفته، وشكره متضمنٌ لطاعته.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب (الصلاة)، باب (في الاستغفار)، (ح١٥٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٤٥).

وهذان هما الغايةُ التي خَلقَ لأجلها الجنَّ والإنس والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكُتُبَ، وأرْسل الرُّسُلَ، وهي الحق الذي به خُلِقَتِ السماواتُ والأرضُ وما بينهما، وضدُّها هو الباطلُ والعبثُ الذي يتعالىٰ ويتقدَّسُ عنه، وهو ظنُّ أعدائه به؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [ص: ٢٧]... فثبت بما ذُكِر أنَّ غاية الخلق والأمْرِ أن يُذْكَرَ وأن يُشكرَ؛ يُذْكَر فلا يُنْسىٰ، ويُشْكَر فلا يُكْفَر.

وهو سبحانه ذاكرٌ لمن ذكرهُ، شاكرٌ لمن شكرهُ؛ فذِكْرُه سببٌ لذِكره، وشُكْرُهُ سببٌ لزيادته من فضله. فالذِّكْرُ للقلب واللسان، والشكرُ للقلب محبةً وإنابةً، وللِّسان ثناءً وحمدًا، وللجوارح طاعةً وخدمة. اهـ(١).

[منزلة الذِّكْر]

هي منزلة القوم الكبرىٰ؛ التي منها يتزوَّدون، وفيها يتَّجرون، وإليها دائمًا يتردَّدون.

و(الذِّكر): منشور الولاية الذي من أُعطِيه اتَّصل، ومن مُنِعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متىٰ فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارةُ ديارهم؛ التي إذا تعطَّلت عنه صارت بُورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطَّاعَ الطّريق، وماؤهم الذي يُطفِئون به التهابَ الحريق، ودواء أسقامهم الذي متىٰ فارقهم انتكستْ منهم القلوب، والسّبب الواصل والعِلاقة التي بينهم وبين علّام الغيوب.

---

(١) «الفوائد» (١٨٦ – ١٨٨).



إذا مرِضـــنا تـــداوينا بـــذكرِكُم   فنتـــرك الـــذِّكرَ أحيانًـــا فننـــتكسُ

به يستدفعون الآفاتِ، ويستكشفون الكُرُبات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلَّهم البلاءُ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النّوازلُ فإليه مفزَعُهم؛ فهو رياضُ جنّتهم التي فيها يتقلّبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون؛ يَدَعُ القلبَ الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويُوصِل الذّاكر إلىٰ المذكور، بل يعيد الذّاكر مذكورًا.

وعلىٰ كلِّ جارحةٍ من الجوارح عبوديّةٌ موقَّتةٌ، و(الذِّكر) عبوديّة القلب واللِّسان، وهي غير موقَّتةٍ، بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلِّ حالٍ؛ قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم، وكما أنّ الجنّة قِيعانٌ وهو غِراسُها، فكذلك القلوب بُورٌ خَرابٌ، وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصِقالها ودواؤها إذا غشِيَها اعتلالُها، وكلّما ازداد الذّاكر في ذكره استغراقًا ازداد لمذكورِه محبّةً وإلىٰ لقائه اشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبُه للسانه نسي في جنْبِ ذكره كلَّ شيءٍ، وحفظ الله عليه كلّ شيءٍ، وكان له عوضًا من كلِّ شيءٍ.

به يزول الوَقْر عن الأسماع، والبَكَمُ عن الألسن، وتنقشع الظُّلمة عن الأبصار؛ زيَّن الله به ألسنةَ الذّاكرين كما زيَّن بالنُّور أبصار النّاظرين، فاللِّسان الغافل كالعين العمياء والأُذن الصَّمّاء واليد الشَّلّاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يُغلِقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء: في الصّلاة، وفي الذِّكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلّا فاعلموا أنّ الباب مغلقٌ».

وبالذِّكر يَصرع العبدُ الشّيطانَ كما يَصرع الشّيطانُ أهلَ الغفلة والنِّسيان.

قال بعض السّلف: إذا تمكَّن الذِّكرُ من القلب، فإن دنا منه الشّيطان صُرِعَ كما يُصرَع الإنسان إذا دنا منه شيطان، فتجتمع عليه الشّياطين؛ فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسَّه الإنسيُّ.

وهو روح الأعمال الصّالحة، فإذا خلا العمل عن الذِّكر كان كالجسد الذي لا رُوح فيه، والله أعلم. اهـ[1].

[أفضلُ الذِّكْر وأنفعُه]

مِن الذاكرين مَن يبتدئُ بذكرِ اللسان وإن كان علىٰ غفلة، ثم لا يزال فيه حتىٰ يحضر قلبه؛ فيتواطأ علىٰ الذكر.

ومنهم مَن لا يرىٰ ذلك، ولا يبتدئُ علىٰ غفلةٍ، بل يسكن حتىٰ يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه؛ فإذا قوي استتبع لسانه، فتواطآ جميعًا.

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلىٰ قلبه.

والثاني ينتقل من قلبه إلىٰ لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولًا

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢١، ٤٢٢).

حتىٰ يحس بظهور الناطق فيه؛ فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلىٰ الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتىٰ يجد كل شيء منه ذاكرًا.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده. اهـ[1].

[ذكر الله سبحانه للعبد]

الغنىٰ بالحقِّ -تبارك وتعالىٰ- عن كل ما سواه [هو] أعلىٰ درجات الغنىٰ، فأول هذه الدرجة أَن تشهد ذكر الله ﷻ إِياك قبل ذكرك له، وأَنه تعالىٰ ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدَّر خلقك ورزقك وعملك وإِحسانه إِليك ونعمه عليك؛ حيث لم تكن شيئًا البتة، وذكرك تعالىٰ بالإِسلام فوفقك له واختارك له دون مَن خذله؛ قال تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

فجعلك أهلًا لما لم تكن أهلًا له قط، وإِنما هو الذي أَهَّلك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميل أَولاكه لم يكن لك إِليه سبيل، ومَن الذي ذَكَّرك سواه باليقظة حتىٰ استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النُّوَّام؟ ومَن الذي ذَكَّرك سواه بالتوبة حتىٰ وَفَّقك لها، وأَوقعها في قلبك، وبعث دواعيك وأَحيا عزماتك الصادقة عليها، حتىٰ تُبْتَ إِليه وأَقبلت عليه، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها؟

---

(١) «الفوائد» (٢٧٢).

ومن الذي ذكرك سواه بمحبته حتىٰ هاجت من قلبك لواعجها وتوجهت نحوه سبحانه ركائبها، وعَمر قلبك بمحبته بعد طول الخراب، وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟ ومَن تقرب إِليك أَولًا حتىٰ تقربت إِليه، ثم أَثابك علىٰ هذا التقرب تقربًا آخر فصار التقرب منك محفوفًا بتقربين منه تعالىٰ؛ تقرب قبله وتقرب بعده، والحب منك محفوفًا بحبين منه؛ حب قبله وحب بعده، والذكر منك محفوفًا بذكرين؛ ذكر قبله وذكر بعده، فلولا سابق ذكره إِياك لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصل إِلىٰ قلبك ذرة مما وصل إِليه من معرفته وتوحيده ومحبَّته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه. فهذه كلُّها آثارُ ذِكره لك.

ثمَّ إِنَّه سبحانه ذَكَرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس؛ فله عليك في كل طرفة عينٍ ونفَسٍ نِعَمٌ عديدةٌ؛ ذكَرك بها قبلَ وجودك، وتعرَّف بها إليك، وتحبَّب بها إليك، مع غناه التامِّ عنك وعن كل شيء، وإنَّما ذلك مجرَّد إحسانه وفضله وَجُوده؛ إذ هو الجوادُ المفضل المحسنُ لذاته، لا لمعاوضةٍ، ولا لطلب جزاءٍ منك، ولا لحاجةٍ دعته إلىٰ ذلك، كيف وهو الغني الحميد؟ فإذا وصل إليك أدنىٰ نعمة منه فاعلم أنَّه ذكرك بها، فَلْتعظُمْ عندك لِذكره لك بها، فإنَّه ما حقَّرك مَن ذكَرك بإحسانه، وابتدأك بمعروفه، وتحبَّب إليك بنعمته؛ هذا كلّه مع غناه عنك.

فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربِّه له، ووصل شاهدُه إلىٰ قلبه شَغَلَه ذلك عمَّا سواه،

وحصل لقلبه به غنًىٰ عالٍ لا يُشبهه شيء. وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذُه وسيّدُه يَذكُره ولا ينساه، فهو يحصل له -بشعوره بذكر أستاذه له- غنىٰ زائد علىٰ إنعام سيِّده عليه وعطاياه السنية له؛ فهذا هو غنىٰ ذكر الله للعبد... والمقصودُ: أنَّ شعور العبد وشهودَه لذكر الله له يُغني قلبه ويَسدُّ فاقته، وهذا بخلاف مَن نسوا الله فنسيَهم؛ فإنَّ الفقرَ من كُلِّ خير حاصلٌ لهم، وما يظنون أنَّه حاصل لهم مِن الغنىٰ فهو من أكبر أسباب فقرهم. اهـ[1].

[من فوائد الذِّكر]

في الذِّكر أكثر من مائة فائدة:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه.

الثانية: أنه يُرضي الرحمن ﷻ.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٤١، ٤٢).

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يورثه المحبة؛ التي هي رُوح الإسلام، وقُطب رحىٰ الدِّين ومدار السعادة والنجاة.

وقد جعل الله لكل شيء سببًا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله ﷻ فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة، كما أنه باب العلم؛ فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم.

العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتىٰ يدخله في باب الإحسان؛ فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلىٰ مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلىٰ الوصول إلىٰ البيت.

الحادية عشرة: أنه يُورثه الإنابة، وهي الرجوع إلىٰ الله ﷻ، فمتىٰ أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقىٰ الله ﷻ مفزعه وملجأه وملاذه ومعاذه، وقِبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه، فعلىٰ قَدْر ذِكره لله ﷻ يكون قربه منه، وعلىٰ قدر غفلته يكون بعده منه.

الثالثة عشرة: أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه ﷻ وإجلاله؛ لشدة استيلائه علىٰ قلبه وحضوره مع الله تعالىٰ، بخلاف الغافل؛ فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يُورثه ذكر الله تعالىٰ له، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفىٰ بها فضلًا وشرفًا، وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ: «**مَن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[1].

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله تعالىٰ روحه يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك؛ فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!».

السابعة عشرة: أنه قُوت القلب والرُّوح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قُوَّته. وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلىٰ الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: «هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي». أو كلامًا قريبًا من هذا.

وقال لي مرة: «لا أترك الذِّكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لِأَستعد بتلك الراحة لذِكر آخر». أو كلامًا هذا معناه...

التاسعة عشرة: أنه يَحط الخطايا ويُذهبها؛ فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يُذهبن السيئات...

الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرَّف إلىٰ الله تعالىٰ بذكره في الرخاء عَرفه

---

(١) رواه البخاري، كتاب (التوحيد)، (ح ٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب (الذكر والدعاء)، (ح ٢٦٧٥).

في الشدة، وقد جاء أثر معناه: أن العبد المطيع الذاكر لله تعالىٰ إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالىٰ حاجة، قالت الملائكة: «يا رب، صوت معروف من عبد معروف، والغافل المعرض عن الله ﷻ إذا دعاه وسأله؛ قالت الملائكة: يا رب، صوت منكر من عبد منكر».

الرابعة والعشرون: أنه سبب تنزيل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر، كما أخبر به النبي ﷺ.

الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالىٰ وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل الىٰ السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالىٰ. والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك؛ فمَن عَوَّد لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو، ومَن يَبس لسانه عن ذكر الله تعالىٰ ترطب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

الحادية والثلاثون: أنه أيسر العبادات، وهو مِن أَجَلِّها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذلك...

السادسة والأربعون: أن في القلب قسوة لا يُذيبها إلا ذكر الله تعالىٰ؛ فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالىٰ. وذكر حَمَّاد بن زيد عن المعلىٰ بن زياد «أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلب! قال: أَذِبْه



بالذكر». وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالىٰ ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار. فما أُذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله ﷻ...

الثامنة والأربعون: أن الذكر أصل موالاة الله ﷻ ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه ﷻ حتىٰ يحبه فيُواليه، ولا يزال يغفل عنه حتىٰ يبغضه فيعاديه؛ قال الأوزاعي: «قال حسان بن عطية: ما عادىٰ عبدٌ ربَّه بشيء أشد عليه من أن يَكره ذكره أو مَن يذكره». فهذه المعاداة سببها الغفلة، ولا تزال بالعبد حتىٰ يكره ذكر الله ويكره مَن ذَكَره؛ فحينئذ يتخذه عدوًّا كما اتخذه الذاكر وليًّا...

الستون: أن ذكر الله ﷻ يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله ﷻ؛ إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتىٰ كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه حتىٰ كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومَن له أدنىٰ حِسٍّ قد جَرَّب هذا وهذا. والله المستعان.

الحادية والستون: أن الذكر يُعطي الذاكر قوة، حتىٰ إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمُعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا، وقد عَلَّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليًّا رضي الله عنهما أن يُسَبِّحا كلَّ ليلة إذا أَخَذَا مضاجعهما

ثلاثًا وثلاثين ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ويُكبرا أربعًا وثلاثين، لما سألته الخادم، وشكت إليه ما تُقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلَّمَها ذلك وقال: «**إنه خيرٌ لكما مِن خادم**»[1]، فقيل: إن مَن داوم علىٰ ذلك وجد قوة في يومه مُغنية عن خادم...

الثامنة والستون: أنَّ كثرة ذكر الله ﷻ أمانٌ من النفاق؛ فإن المنافقين قليلو الذكر لله ﷻ؛ قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعب: «مَنْ أَكْثَر ذكر الله ﷻ برئ من النفاق»، ولهذا -والله أعلم- ختم الله تعالىٰ سورة المنافقين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]؛ فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ، فوقعوا في النفاق. وسُئِل بعض الصحابة ﷺ عن الخوارج: «أمنافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يَذكرون الله إلا قليلًا». فهذا من علامة النفاق: قِلَّةُ ذِكْرِ الله ﷻ.

وكثرةُ ذكره أمانٌ من النفاق، واللهُ ﷻ أكرمُ من أن يَبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوبٍ غفلت عن ذكر الله ﷻ.

التاسعة والستون: أن للذكر من بين الأعمال لَذَّةً لا يشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذةُ الحاصلة للذاكر، والنعيمُ الذي يحصل لقلبه لكفىٰ

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري، كتاب (المناقب)، باب (مناقب عليٍّ رضي الله عنه)، (ح ٣٧٠٥)، ورواه مسلم، كتاب (الذِّكر والدعاء...)، (ح ٢٧٢٧).



به، ولهذا سُمِّيَتْ مجالسُ الذكر: رياضَ الجنة؛ قال مالك بن دينار: «ما تَلَذَّذَ المُتَلَذِّذُون بمثل ذكر الله ﷻ». فليس شيء من الأعمال أخفُّ مؤونةً منه، ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة وابتهاجًا للقلب...

الثانية والسبعون: أن في الاشتغال بالذكر اشتغالًا عن الكلام الباطل من الغيبة، والنميمة، واللغو، ومدح الناس وذَمِّهم، وغير ذلك؛ فإن اللسان لا يسكت البتة؛ فإما لسانٌ ذاكرٌ، وإمَّا لِسَانٌ لاغٍ، ولا بد من أحدهما. فهي النفسُ إن لم تَشْغَلْها بالحق شَغَلَتْكَ بالباطل، وهو القلب إنْ لم تَسْكُنه محبةُ الله ﷻ سَكَنَتْهُ محبة المخلوقين ولابُدّ، وهو اللسان إنْ لم تشغله بالذكر شغلك باللغو، وما هو عليك ولا بُدّ؛ فاختر لنفسك إحدىٰ الخُطَّتين، وأَنْزِلْها في إحدىٰ المنزلتين. اهـ[١].

[كيف يُحرس النائم؟]

لما كان النائم بمنزلة الميت، والنوم أخو الموت -ولهذا يستحيل علىٰ الحي الذي لا يموت، وأهل الجنة لا ينامون فيها- كان النائم محتاجًا إلىٰ من يحرس نفسه، ويحفظها مما يعرض لها من الآفات، ويحرس بدنه -أيضًا- من طوارق الآفات، وكان ربه وفاطره تعالىٰ هو المتولي لذلك وحده؛ عَلَّم النبي ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويض والالتجاء والرغبة والرهبة[٢]؛ ليستدعي

(١) «الوابل الصيب» (٦١ - ١١١)، مختصرًا.

(٢) يشير رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ الحديث المتفق عليه: «**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك،** =

بها كمال حفظ الله له وحراسته لنفسه وبدنه، وأرشده مع ذلك إلىٰ أن يَستذكر الإيمان، وينام عليه، ويجعل التكلم به آخر كلامه، فإنه ربما توفاه الله في منامه، فإذا كان الإيمان آخر كلامه دخل الجنة، فتضمن هذا الهَدْيُ في المنام مصالح القلب والبدن والروح في النوم واليقظة والدنيا والآخرة؛ فصلوات الله وسلامه علىٰ مَن نالت به أُمَّتُه كلَّ خير.

وقوله ﷺ: «أسلمتُ نفسي إليك»، أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلىٰ سيده ومالكه. وتوجيه وجهه إليه يتضمن إقباله بالكلية علىٰ ربه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وذكر الوجه إذ هو أشرف ما في الإنسان ومجمع الحواس، وأيضًا ففيه معنىٰ التوجه والقصد من قوله:

أَستغفر اللهَ ذنبًا لستُ مُحصيه ... ربُّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

وتفويض الأمر إليه: رَدُّه إلىٰ الله سبحانه، وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته، والرِّضا بما يَقضيه ويختاره له مما يحبه ويرضاه، والتفويض من أشرف مقامات العبودية، ولا عِلَّة فيه، وهو من مقامات الخاصة، خلافًا لزاعمي خلاف ذلك.

= **وفَوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك؛ رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلتَ، ونبيك الذي أرسلت»**. أخرجه البخاري في (الدعوات)، (ح ٦٣١٥)، ومسلم في (الذكر والدعاء...)، (ح ٢٧١٠).



وإلجاء الظهر إليه سبحانه يتضمن قوة الاعتماد عليه، والثقة به والسكون إليه، والتوكل عليه؛ فإن مَن أسند ظهره إلىٰ ركن وثيق لم يَخف السقوط.

ولما كان للقلب قوتان: قوة الطلب، وهي الرغبة، وقوة الهرب، وهي الرهبة، وكان العبد طالبًا لمصالحه، هاربًا من مضاره، جمع الأمرين في هذا التفويض والتوجه، فقال: «**رغبة ورهبة إليك**»، ثم أثنىٰ علىٰ ربه، بأنه لا ملجأ للعبد سواه، ولا منجىٰ له منه غيره، فهو الذي يلجأ إليه العبد لينجيه من نفسه، كما في الحديث الآخر: «**أعوذُ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»(١)، فهو سبحانه الذي يعيذ عبده وينجيه من بأسه الذي هو بمشيئته وقدرته؛ فمنه البلاء، ومنه الإعانة، ومنه ما يطلب النجاة منه، وإليه الالتجاء في النجاة، فهو الذي يُلجأ إليه في أن ينجي مما منه، ويستعاذ به مما منه، فهو ربُّ كل شيء، ولا يكون شيء إلا بمشيئته: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، ثم ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله الذي هو ملاك النجاة، والفوز في الدنيا والآخرة، فهذا هديه في نومه.

لو لم يقل: إني رسولٌ لكَا … نَ شاهد في هَدْيِه ينطق(٢)

ﮗ♦ﮘ

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الصلاة)، باب (ما يقال في الركوع والسجود)، (ح ٤٨٦).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).



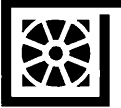




الباب الثاني: أعمال القلوب

وفيه:










الفصل الأول: أهمية أعمال القلوب

[أهمية أعمال القلوب]

لله على العبد عبوديتان: عبودية باطنة، وعبودية ظاهرة، فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية؛ فقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تَعَرِّيه عن حقيقة العبوديَّة الباطنة مما لا يُقَرِّبُه إلى ربِّهِ، ولا يُوجِبُ له ثوابه وقبول عمله، فإنَّ المقصود امتحانُ القلوب وابتلاء السرائر، فعمل القلبِ هو رُوح العبودية ولُبُّها، فإذا خلا عملُ الجوارح منه كان كالجسد المَوَات بلا رُوح، والنية: هي عملُ القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء والمقصود بالأمر والنهي، فكيف يسقطُ واجبُه، ويعتبر واجبُ رعيتِه وجندِه وأتباعه اللاتي إنما شُرِعَتْ واجباتُها لأجله ولأجل صلاحه؟! وهل هذا إلا عكسُ القضية وقلب الحقيقة؟!

والمقصودُ بالأعمال كلها ظاهرها وباطنها: إنما هو صلاحُ القلب وكماله وقيامه بالعبودية بين يدي ربه وقيومه وإلهه، ومن تمام ذلك قيامُه هو وجنودُه في حضرة معبوده وربِّه، فإذا بعث جنودَهُ ورعيته، وتغيَّب هو عن الخدمة والعبودية، فما أجدَرَ تلك الخدمَةَ بالرَّدِّ والمقت، وهذا مَثَلٌ في غاية المطابقة.

وهل الأعمالُ الخاليةُ عن عمل القلب إلا بمنزلة حَرَكات العابثين، وغايَتُها أن لا يَتَرَتَّبَ عليها ثوابٌ ولا عقابٌ؟!

ولما رأىٰ بعضُ أربابِ القلوب طريقةَ هؤلاء انحرفَ عنها إلىٰ أن صرف هَمَّه إلىٰ عبوديَّةَ القلب، وعطَّل عبودية الجوارح، وقال: المقصودُ: قيامُ القلبِ بحقيقةِ الخدمة، والجوارح تَبَعٌ. والطائفتان متقابلتان أعظمَ تقابُل؛ هؤلاء لا التفاتَ لهم إلىٰ عبوديَّة جوارحهم، ففسدت عبوديةُ قلوبهم، وأولئك لا التفات لهم إلىٰ عبودية قلوبهم؛ ففسدت عبوديَّة جوارِحِهِم، والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبوديَّة ظاهرًا وباطنًا، وقدموا قلوبَهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاءَ تَبَعًا لها؛ فأقاموا المَلِكَ وجنودَه في خدمة المعبود، وهذا هو حقيقةُ العبودية.

ومن المعلوم أن هذا هو مقصودُ الرَّبِّ تعالىٰ بإرسالِهِ رُسُلَه وإنزالِهِ كُتُبَهُ، وشَرْعِهِ شرائِعَه، فدعوىٰ المدَّعي أن المقصودَ من هذه العبودية حاصل، وإن لم يصحبْها عبوديَّةُ القلبِ من أبطل الدعاوىٰ وأفسدها، والله الموفق.

ومن تأمَّلَ الشريعة في مصادرها ومواردها علمَ ارتباطَ أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونِها، وأن أعمالَ القلوب أفرضُ علىٰ العبد من أعمال الجوارح، وهل يُمَيَّزُ المؤمنُ عن المنافق إلا بما في قلب كلِّ واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينها؟ وهل يُمْكِنُ أحدٌ الدخولَ في الإسلام إلا بعمل قلبه قبلَ جوارحه؟ وعبوديَّةُ القلب أعظمُ من عبوديَّة الجوارحِ وأكبرُ وأدْوَمُ،

فهي واجبةٌ في كلِّ وقت، ولهذا كان الإيمانُ واجبَ القلب علىٰ الدَّوام، والإسلامُ واجبَ الجوارح في بعض الأحيان، فمركبُ الإيمانِ القلبُ، ومركب الإسلامِ الجوارحُ، فهذه كلمات مختصرةٌ في هذه المسألة، ولو بُسِطَتْ لقامَ منها سِفْرٌ ضخمٌ، وإنما أُشيرَ إليها إشارة.

وحرفُ **المسألة**: أنَّ أعمالَ الجوارح إنما تكونُ عبادةً بالنيَّة، والوضوءُ عبادةٌ في نفسِه، مقصودٌ مرتَّبٌ عليه الثواب، وعلىٰ تركه العقابُ، وكما يجبُ في العِبادات إفرادُ المعبود تعالىٰ عن غيره بالنِّيَّةِ والقصد، فيكون وحده المقصود المُراد، فكما أنه يجب في العبادات إفراد المعبود تعالىٰ بها لا سواه، فكذلك يجب فيها تمييز العبادة عن العادة، ولا يقعُ التمييزُ بين النوعين [عند] اتحاد صورة العملين إلا بالنية، فعملٌ لا يصحبُه إرادة المعبود غيرُ مقبول ولا معْتَدٌّ به، وكذلك عملٌ لا تصحبُه إرادةُ التَّعبُّدِ له والتَّقَرُّب إليه غيرُ مقبولٍ ولا معتدٍّ به، بل نيَّةُ التقرُّب والتعبُّد جزءٌ من نيَّةِ الإخلاص، ولا تقوم نية الإخلاص للمعبود إلا بنية التعبد، فإذا كانتْ نِيَّةُ الإخلاصِ شرطًا في صحَّة كلِّ أداء العبادة، فاشتراط نيةِ التَّعَبُّدِ أولىٰ وأحرىٰ، ولا جوابَ عن هذا ألبتةَ إلَّا بإنكار أن يكون الوضوءُ عبادةً.

وذلك يلتحقُ بإنكار المعلوم من الشَّرْع بالضَّرورة، وهو بمنزلةِ إنكار كَوْنِ الصوم والزكاة والحجِّ والجهادِ وغيرِها عباداتٍ، واللهُ الموفق للصواب. اهـ[١].

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٦٢، ١٦٣).

[الهدى والضلال ثمرة عمل القلب والجوارح]

تكرَّر في القرآن جعْلُ الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سببَ الهداية والإضلال؛ فيقومُ بالقلب والجوارح أعمالٌ تقتضي الهُدىٰ اقتضاء السببِ لمسبَّبه والمؤثِّر لأثره، وكذلك الضلالُ.

فأعمالُ البر تُثْمِرُ الهدىٰ، وكلَّما ازداد منها ازداد هدًىٰ، وأعمالُ الفجور بالضدِّ، وذلك أنَّ الله سبحانه يُحِبُّ أعمال البرِّ فيجازي عليها بالهُدىٰ والفلاح، ويُبْغِضُ أعمال الفجور ويُجازي عليها بالضَّلال والشَّقاءِ.

وأيضًا فإنه البَرُّ، ويحبُّ أهل البِرِّ، فيُقَرِّبُ قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويُبْغِضُ الفجور وأَهله؛ فيبعدُ قلوبهم منه بحسب ما اتَّصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول: قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١ - ٢]، **وهذا يتضمَّنُ أمرين:**

أحدهما: أنَّه يَهدي به من اتَّقىٰ مساخطَه قبل نزول الكتاب؛ فإنَّ الناس علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم قد استقرَّ عندهم أن الله سبحانه يكره الظُّلم والفواحش والفساد في الأرض ويَمقُتُ فاعلَ ذلك، ويُحبُّ العدلَ والإحسان والجود والصدق والإصلاح في الأرض، ويُحبُّ فاعلَ ذلك؛ فلما نزل الكتابُ أثاب سبحانه أهل البرِّ بأن وَفَّقَهم للإيمان به جزاءً لهم علىٰ برِّهم وطاعتِهِم،

وخذل أهل الفجورِ والفُحْش والظُّلم بأنْ حال بينهم وبين الاهتداء به.

والأمرُ الثاني: أنَّ العبد إذا آمن بالكتاب واهتدىٰ به مجملًا وقَبِلَ أوامرهُ وصدَّق بأخباره؛ كان ذلك سببًا لهدايةٍ أُخرىٰ تحصُلُ له علىٰ التفصيل؛ فإنَّ الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبدُ فيها ما بلغ؛ ففوق هدايته هدايةٌ أخرىٰ، وفوق تلك الهداية هدايةٌ أخرىٰ إلىٰ غير غاية.

فكلما اتَّقىٰ العبد ربَّهُ ارتقىٰ إلىٰ هداية أخرىٰ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التَّقْوىٰ، وكلَّما فوَّتَ حظًّا من التقوىٰ فاته حظٌّ من الهداية بحسبه؛ فكلَّما اتَّقىٰ زاد هداه، وكلما اهتدىٰ زادت تقواه...

قال [تعالىٰ]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]؛ فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهُم بالإيمان هدايةً بعد هدايةٍ.

ونظيرُ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفُرقان: ما يُعطيهم من النُّور الذي يُفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، والنصر والعزِّ الذي يتمكنون به من إقامة الحقِّ وكسر الباطل؛ فُسِّرَ الفرقان بهذا وهذا.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ في سورة لقمان [آية: ٣١]، وسورة إبراهيم [آية: ٥]، وسبأ [آية: ١٩]، والشورىٰ [آية: ٣٣]؛ فأخبر عن آياته

المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهلُ الصبر والشُّكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهلُ التقوىٰ والخشية والإنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكرُ بها من يخشاهُ سبحانه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: ١ - ٣]، وقال في الساعة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات: ٤٥].

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها؛ فلا تنفعه الآياتُ العيانيَّةُ ولا القرآنيةُ.

ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذِّبين للرسل وما حلَّ بهم في الدُّنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها؛ فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوةُ! وربما أحال ذلك علىٰ أسباب فلكيَّةٍ وقُوىٰ نفسانية!

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات؛ لأنَّ الإيمان ينبني علىٰ الصبر والشكر؛ فنصفُهُ صبرٌ ونصفه شكرٌ؛ فعلىٰ حسب صبر العبد وشكره تكون قوةُ إيمانِه، وآياتُ الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر؛ فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوىٰ؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآياتُ نافعةً له ولا مؤثِّرةً فيه إيمانًا.



وأمَّا الأصل الثاني: وهو اقتضاءُ الفجور والكبر والكذب للضَّلال، فكثيرٌ أيضًا في القرآن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ﴾ [النساء: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فأخبر أنه عاقبهم علىٰ تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه؛ بأن قلَّب أفئدتَهم وأبصارهم، وحال بينهم وبين الإيمان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلىٰ ما فيه حياتُهم، ثم حذَّرهم من التخلُّف والتأخُّر عن الاستجابة الذي يكون سببًا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]؛ فأخبر سبحانه أن كسبهم غطَّىٰ علىٰ قلوبهم وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المطففين: ١٣].

وقال تعالىٰ في المنافقين: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فجازاهم علىٰ

نسيانهم له أن نَسِيَهم فلم يذكرهم بالهدىٰ والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم، فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدىٰ ودين الحق، فأنساهم طلبَ ذلك ومحبته ومعرفته والحرصَ عليه عقوبة نسيانهم له.

وقال تعالىٰ في حقهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٦ - ١٧]؛ فجمع لهم بين اتباع الهوىٰ والضلال الذي هو ثمرته وموجبه كما جمع للمهتدين بين التقوىٰ والهدىٰ. اهـ(١).

[نوم الأكياس]

قال أبو الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا حبَّذا نومُ الأكياس وفِطْرُهم؛ كيف يغبنون به قيام الحمقىٰ وصومهم؛ والذَّرَّةُ مِن صاحب تقوىٰ أفضلُ من أمثال الجبال عبادةً من المُغترِّين؟!».

وهذا من جواهر الكلام وأدلِّه علىٰ كمال فقه الصحابة وتقدمهم علىٰ مَن بعدهم في كل خير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

فاعلمْ أن العبد إنما يَقطع منازلَ السير إلىٰ الله بقلبه وهمته لا ببدنِه، والتقوىٰ في الحقيقة تقوىٰ القلوب لا تقوىٰ الجوارح؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ

---

(١) «الفوائد» (١٨٨ - ١٩٣).



لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوىٰ ها هنا**»، وأشار إلىٰ صدره[١].

فالكيِّسُ يَقطعُ من المسافة بصحة العزيمة وعلوِّ الهمَّةِ وتجريد القصد وصحة النية -مع العمل القليل- أضعافَ أضعافِ ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاقّ؛ فإن العزيمة والمحبة تُذهِب المشقة وتُطيِّب السيرَ، والتقدمُ والسبقُ إلىٰ الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدمُ صاحبُ الهمة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل؛ فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله.

وهذا موضعٌ يحتاجُ إلىٰ تفصيل يوافق فيه الإسلام الإحسان:

فأكملُ الهديِ هديُ رسول الله ﷺ، وكان موفِّيًا كلَّ واحدٍ منهما حقَّه؛ فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقومُ حتىٰ تَرِمَ قدماهُ، ويصوم حتىٰ يُقال: لا يُفطِرُ، ويجاهدُ في سبيل الله، ويُخالِط أصحابه ولا يَحتجِبُ عنهم، ولا يترك شيئًا من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تَعجِزُ عن حملها قُوىٰ البشر.

والله تعالىٰ أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام علىٰ ظواهرهم وحقائق الإيمان علىٰ بواطنهم، ولا يَقبل واحدًا منهما إلا بصاحبه وقرينه، وفي «المسند» مرفوعًا: «**الإسلام علانيةٌ، والإيمانُ في القلب**»[٢].

---

(١) رواه مسلم، كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (تحريم الظلم)، (ح ٢٥٦٤).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٣٤).

فكل إسلام ظاهرٍ لا يَنفُذُ صاحبُه منه إلىٰ حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتىٰ يكون معه شيءٌ من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت؛ فلو تمزَّق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبَّدْ بالأمرِ وظاهر الشرع لم يُنْجِهِ ذلك من النار؛ كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقةُ الإيمان لم يُنجِه ذلك من النار. اهـ[1].

[هل تعرف قَدْرَ البيت؟]

مَن لم يَعرِف نفسَه كيف يَعرِف خالقَه؟

فاعلم أن الله تعالىٰ خلق في صدرك بيتًا وهو القلب، ووضعَ في صدره عرشًا لمعرفته يستوي عليه المَثَل الأعلىٰ؛ فهو مستوٍ علىٰ عرشه بذاته بائنٌ من خلقه، والمثل الأعلىٰ من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ علىٰ سرير القلب، وعلىٰ السرير بِساطٌ من الرضا، ووضع عن يمينه وشماله مَرافقَ شرائعِه وأوامره، وفتَح إليه بابًا من جنة رحمته والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أنبتَ فيه أصنافَ الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس، وجعل في وسط البستان شجرة معرفة؛ فهي تُؤتي أُكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه، وأجرىٰ إلىٰ تلك الشجرة ما يَسقِيها من تدبُّر كلامه وفهمه والعمل بوصاياهُ، وعلَّق في ذلك البيت قنديلًا أسرجَه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده؛ فهو يَستمِدُّ من ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ

---

(١) «الفوائد» (٢٠٧، ٢٠٨).



﴿وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ [النور: ٣٥]، ثم أحاط عليه حائطًا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومَن يؤذي البستان؛ فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حَرَسًا من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه؛ فهو دائمًا همُّه إصلاح السكن ولمُّ شَعَثِه ليرضاه الساكن منزلًا، وإذا أحسَّ بأدنىٰ شعث في السكن بادر إلىٰ إصلاحه ولمِّه خشيةَ انتقال الساكن منه؛ فنعم الساكن ونعم المسكن!

فسبحان الله رب العالمين! كم بين هذا البيت وبيتٍ قد استولىٰ عليه الخرابُ وصار مأوىٰ للحشرات والهوامِّ ومحلًا لإلقاء الأنتان والقاذورات فيه؟! فمن أراد التخلي وقضاء الحاجة وجد خربةً لا ساكن فيها ولا حافظ لها، وهي مُعدَّة لقضاء الحاجة، مظلمة الأرجاء، منتةُ الرائحة، قد عمَّها الخرابُ وملأتْها القاذوراتُ؛ فلا يأنس بها ولا يَنزِل فيها إلا مَن يناسبه سُكناها من الحشرات والديدان والهوامِّ؛ الشيطان جالسٌ علىٰ سريرها، وعلىٰ السرير بساطٌ من الجهل، وتَخفِقُ فيه الأهواء، وعن يمينه وشماله مَرافقُ الشهَوات واتباع الهوىٰ، وقد فُتح إليه بابٌ من حَقْلِ الخذلان والوحشة والركونِ إلىٰ الدنيا والطمأنينة بها والزهد في الآخرة، وأُمطِرَ من وابل الجهل والهوىٰ والشرك والبدع ما أنبتَ فيه أصنافَ الشوك والحنظل والأشجار المثمرة بأنواع المعاصي والمخالفات؛ من الزوائد والتنديبات والنوادر والهزليات والمضحكات والأشعار الغزليات والخمريات؛ التي تُهيِّج علىٰ ارتكاب المحرمات وتُزهِّد في الطاعات، وجُعِلَ في وسط الحقل شجرةُ الجهل به والإعراض عنه؛ فهي تؤتي

أُكلَها كل حين من الفسوق والمعاصي واللهو واللعب والمجون والذهاب مع كل ريح واتباع كل شهوة، ومن ثمرِها الهمومُ والغموم والأحزان والآلام، ولكنها متواريةٌ باشتغال النفس بلهوها ولعبها؛ فإذا أفاقتْ من سكرها أُحضرتْ كلَّ همٍّ وغمٍّ وحزنٍ وقلق ومعيشة ضَنْك، وأُجرِيَ إلىٰ تلك الشجرة ما يَسقِيها من اتباع الهوىٰ وطول الأمل والغرور.

ثم تُرِكَ ذلك البيتُ وظلماته وخراب حيطانه؛ بحيث لا يُمنَع منه مفسِدٌ ولا حيوانٌ ولا مؤذٍ ولا قذرٌ. فسبحانَ خالقِ هذا البيت وذلك البيت!

فمن عرف قدرَ بيته وقدر الساكن فيه وقدرَ ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات؛ انتفع بحياته ونفسه، ومن جَهِلَ ذلك جهل نفسَه وأضاع سعادته. وبالله التوفيق. اهـ[١].

[كلمات من القلب في القلب]

* ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوة القلب والبُعدِ عن الله.

* خُلِقت النارُ لإذابة القلوب القاسية.

* أبعدُ القلوب من الله القلبُ القاسي.

* إذا قسا القلبُ قَحَطَتِ العينُ.

* قسوةُ القلب من أربعة أشياء إذا جاوزتْ قدرَ الحاجة: الأكل، والنوم،

(١) «الفوائد» (٢٥٤- ٢٥٦).

والكلام، والمخالطة. كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعامُ والشرابُ؛ فكذلك القلبُ إذا مرض بالشهوات لم تَنْجَعْ فيه المواعظُ.

* مَن أراد صفاءَ قلبه فليُؤْثِر الله علىٰ شهوته.

* القلوب المتعلقةُ بالشهوات محجوبةٌ عن الله بقدر تعلُّقها بها.

* خَرابُ القلبِ من الأمن والغفلة، وعِمارتُهُ من الخشية والذِّكْرِ.

* الشوقُ إلىٰ الله ولقائه نسيمٌ يَهُبُّ علىٰ القلب يُرَوِّحُ عنه وَهَجَ الدُّنيا.

* من وَطَّنَ قلبَه عند ربِّه سكنَ واستراح، ومن أرسله في الناس اضطربَ واشتد به القلقُ.

* لا تَدخلُ محبةُ الله في قلب فيه حبُّ الدُّنيا، إلا كما يدخل الجملُ في سَمِّ الإبرة.

* وإذا أحبَّ الله عبدًا اصطنَعه لنفسِه، واجتباهُ لمحبَّتِهِ، واستخلصه لعبادته، فشَغلَ همَّهُ به، ولسانهُ بذكره، وجوارحَهُ بخدمته.

* القلب يَمرضُ كما يمرض البدنُ، وشفاؤهُ في التوبة والحِمْية، ويَصْدَأ كما تَصْدأ المرآةُ، وجلاؤهُ بالذِّكر، ويَعْرَىٰ كما يَعْرَىٰ الجسمُ، وزينتُهُ التَّقوىٰ، ويجوعُ ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفةُ والمحبة والتوكل والإنابة والخدمةُ. اهـ[1].

---

(١) «الفوائد» (١٤٦ - ١٤٧).

[مَلِكُ الجوارح]

[إذا شاهدتَ] القلبَ تجد مَلِكًا عظيمًا جالسًا علىٰ سرير مملكته؛ يأمر وينهىٰ، ويولِّي ويعزِل، وقد حَفَّ به الأمراءُ والوزراء والجُند وكلُّهم في خدمته؛ إن استقامَ استقاموا، وإن زَاغَ زاغُوا، وإن صحَّ صَحُّوا، وإن فسد فسدوا، فعليه المُعَوَّلُ، وهو مَحلُّ نظر الرَّبِّ تعالىٰ، ومَحلُّ معرفته ومحبَّته وخشيته والتوكُّلِ عليه والإنابةِ إليه والرِّضَا به وعنه، والعبوديةُ عليه أوَّلًا؛ وعلىٰ رعيَّته وجنده تبعًا.

فأشرفُ ما في الإنسان (قلبُه)؛ فهو العالِمُ بالله، العامِلُ له، السَّاعي إليه، المُحِبُّ له، فهو مَحلُّ الإيمان والعرفان.

وهو المخاطَبُ المبعوثُ إليه الرُّسُلُ، المخصوصُ بأشرف العطايا، وهو الإيمان والعقل.

وإنَّما الجوارح أتباعٌ للقلب؛ يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والراعي للرعيَّة، والذي يسري إلىٰ الجوارح من الطاعات والمعاصي إنَّما هي آثاره، فإنْ أظْلَمَ أظْلَمَت الجوارح، وإن اسْتَنَارَ استنارت، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ.

فسبحان مُقَلِّب القلوب ومُودِعِها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته وذنبه، مُصَرِّفِ القلوب كيف أراد، وحيث أراد!



أوحىٰ إلىٰ قلوب أوليائه: أنْ أَقْبِلِي إليَّ؛ فبَادَرَتْ وقَامَتْ بين يَدَي رَبِّ العالمين.

وكَرِه ﷻ انبعاثَ آخرين فَثَبَّطَهُم، وقيل: اقعُدُوا مع القاعدين.

كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ: «لا، ومُقَلِّبِ القلوب»[(١)]، وكان من دعائه: «اللهُمَّ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا علىٰ طاعتِك»[(٢)].

قال بعض السلف: «لَلْقَلْبُ أشدُّ تقلُّبًا من القِدْرِ إذا استجمعت غليانها».

وقال آخر: «القلبُ أشدُّ تقلُّبًا من الريشة بأرضٍ فَلَاةٍ في يومِ ريحٍ عاصِفٍ». اهـ[(٣)].

[أحسن عملاً أم أكثر عملاً]

لا يلزم من كثرة الثواب أن يكون العمل الأكثر ثوابًا أحبّ إلىٰ الله تعالىٰ من العمل الذي هو أقل منه، بل قد يكون العمل الأقل أحب إلىٰ الله تعالىٰ، وإن كان الكثير أكثر ثوابًا.

وهذا كما في «المسند» عنه ﷺ أنه قال: «دَمُ عَفراءَ أحبُّ إلىٰ الله من دَم سَوْداوين»[(٤)]، يَعني في الأضحية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب (القدر)، باب (يحول بين المرء وقلبه)، (ح ٦٦١٧).

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي، كتاب (القدر)، باب (ما جاء أن القلوب بين أصابعي الرحمن)، (ح ٢١٤٠)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٩١، ٢٥١).

(٣) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٨٩- ٢٩١).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٤١٧).

وكذلك كان ذَبح الشاة الواحدة يوم النَّحر أحب إلىٰ الله من الصدقة بأضعاف أضعاف ثمنها، وإن كَثُر ثواب الصّدَقة.

وكذلك قِراءة سُورة بتدبّر ومَعرفة وتَفهُّم، وجَمع القلب عليها، أحب إلىٰ الله تعالىٰ من قِراءة خَتمة سَردًا وهذًّا، وإن كثر ثواب هذه القراءة.

وكذلك صلاة ركعتين يُقبل العبد فيهما علىٰ الله تعالىٰ بقَلبه وجَوارحه، ويُفرّغ قَلبه كلّه لله فيهما، أحب إلىٰ الله تعالىٰ من مائتي ركعة خَالية عن ذلك، وإن كَثُر ثوابها عددًا.

ومن هذا: «سَبَقَ دِرهمٌ مائة ألفِ دِرْهمٍ»[1].

ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «إنَّ اقتصادًا في سَبيلٍ وسُنَّةٍ خَيرٌ من اجتهاد في خِلاف سَبيلٍ وسُنَّةٍ».

فالعمل اليسير الموافق لمرضاة الربّ وسُنّة رسوله ﷺ أحب إلىٰ الله تعالىٰ من العمل الكثير، إذا خلا عن ذلك، أو عن بعضه.

ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فهو سبحانه وتعالى إنما خَلق السموات والأرض، والموت والحياة، وزَيّن الأرض

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب (الزكاة)، باب (جهد المقل)، (ح ٢٥٢٧).



بما عليها ليَبْلُوَ عِباده أيهم أحسن عملًا، لا أكثر عملًا.

و(الأحسن) هو: الأخلص والأصوب، وهو الموافق لمرضاته ومحبته، دُون الأكثر الخالي من ذلك، فهو ﷻ يُحب أن يُتعبّد له بالأرضىٰ له، وإن كان قليلًا، دون الأكثر الذي لا يُرضيه، والأكثر الذي غيره أَرضىٰ له منه.

ولهذا يكون العمَلان في الصورة واحدًا، وبينهما في الفضل -بل بين قليل أحدهما، وكثير الآخر في الفضل- أعظم ممَّا بين السماء والأرض.

وهذا الفضل يكون بحَسب رِضا الربّ سبحانه بالعمل، وقَبوله له، ومَحبته له، وفَرحه به ﷻ؛ كما يَفرح بتوبة التائب أعظم فرح، ولا ريب أن تلك التوبة الصادقة أفضل وأحبّ إلىٰ الله تعالىٰ من أعمالٍ كثيرةٍ من التّطوعات، وإن زادت في الكثرة علىٰ التوبة.

ولهذا كان القبول يَختلف ويَتفاوت بحسب رِضا الرب سبحانه بالعمل:

فقَبولٌ يُوجب رِضا الله ﷻ بالعمل، ومباهاة الملائكة به، وتَقريب عبده منه، وقَبولٌ يَترتب عليه كثرة الثواب والعطاء فقط، كمن تَصدق بألف دِينار من جُملة ماله -مثلًا- بحيث لم يَكترث بها، والألف لم تَنقصه نَقصًا يتأثر به، بل هي في بَيته بمنزلة حَصىٰ لَقيه في دَاره أخرج منها هذا المقدار؛ إمَّا ليتَخلّص من هَمِّه وحفظه، وإما ليجازىٰ عليه بمثله، أو غير ذلك.

وآخر عنده رَغيف واحد هو قُوته، لا يَملِك غيره، فآثر به علىٰ نَفسه مَن هو أحوج إليه منه؛ مَحبةً لله، وتقربًا إليه وتَوددًا، ورَغبةً في مَرضاته، وإيثارًا علىٰ نفسه.

فيا لله كم بُعد ما بين الصدقتين في الفضل، ومحبة الله وقبوله ورضاه؟

وقد قَبِل سبحانه هذه وهذه، لكنّ قَبول الرِّضا والمحبّة والاعتداد والمباهاة شيء، وقَبول الثواب والجزاء شيء.

وأنتَ تجدُ هذا في الشاهد في مَلِك تُهْدي إليه هدية صَغيرة المقدار، لكنه يُحبّها ويَرضاها ويُظهرها لخواصّه وحَواشيه، ويُثني علىٰ مُهديها كهدية كثيرة العدَد والقَدْر جدًّا، لا تقع عنده مَوقعًا، ولكنْ لِكَرمه وجُوده لا يُضيع ثواب مُهديها، بل يُعطيه عليها أضعافها وأضعافَ أضعافها، فليس قبوله لهذه الهدية مثل قبوله للأولىٰ.

ولهذا قال ابن عُمر وغيره من الصحابة: «لو أعلم أنَّ الله قَبل مِنِّي سَجدة واحدة، لم يكن غائبٌ أحب إليَّ من الموت».

إنما يُريد به القبول الخاص، وإلا فقبول العطاء والجزاء حاصل لأكثر الأعمال.

والقَبول ثلاثة أنواع: قَبول رِضًا ومَحبّة واعتداد ومُباهاة وثَناء علىٰ العامل به بين الملأ الأعلىٰ.

وقَبول جَزاء وثَواب، وإن لم يَقع مَوقع الأوّل.

وقبول إسقاط للعقاب فقط، وإن لم يترتب عليه ثواب وجزاء؛ كقبول صلاة مَن لم يُحْضِر قَلبَه في شيءٍ منها، فإنه ليس له من صلاته إلا ما عَقل منها، فإنها تُسقط الفرض، ولا يُثاب عليها.

وكذلك صَلاة الآبق، وصَلاة مَن أتىٰ عرافًا فصدَّقه؛ فإن النصَّ قد دلّ علىٰ



أن صلاة هؤلاء لا تُقبل، ومع هذا فلا يُؤمرون بالإعادة؛ لأنّ عَدم قَبول صلاتهم؛ إنما هو في عَدم حُصول الثواب، لا في سُقوطها من ذمّتهم.

والأعمال تَتفاضل بتفاضُل ما في القلوب من الإيمان والمحبة والتعظيم والإجلال، وقصد وجه المعبود وحده، دُون شيءٍ من الحظوظ سواه، حتىٰ تكون صورة العمَلين واحدة، وبينهما في الفضل ما لا يُحصيه إلا الله تعالىٰ.

وتَتفاضل -أيضًا- بتَجريد المتابعة؛ فبين العَمَلين من الفضل بحسب ما يتفاضلان به في المتابعة، فتتفاضل الأعمال بحسب تجريد الإخلاص والمتابعة تفاضلًا لا يُحصيه إلا الله تعالىٰ.

وينضاف هذا إلىٰ كون أحد العَملين أحب إلىٰ الله في نَفسه.

مثاله: الجهاد وبذل النّفس لله تعالىٰ، هو مِن أحب الأعمال إلىٰ الله تعالىٰ، ويقترن به تَجريد الإخلاص والمتابعة، وكذلك الصلاة والعلم وقراءة القرآن، فإذا فَضُل العمل في نَفسه، وفَضُل قصد صاحبه وإخلاصه، وتَجرّدت مُتابعته: لم يمتنع أن يكون العمل الواحد أفضل من سبعين، بل وسبعمائة من نَوعه.

فتأمل هذا فإنه يُزيل عنك إشكالات كثيرة، ويُطلعك علىٰ سِرّ العمل والفضل، وأنّ الله ﷻ أحكم الحاكمين، يضع فضله مَواضعه، وهو أعلم بالشاكرين.

ولا تلتفت إلىٰ ما يقول -من غَلُظ حِجاب قلبه من المتكلمين والمتكلفين-: إنه يجوز أن يكون العملان مُتَساويين من جميع الوجوه، لا تفاضل بينهما، ويُثيب الله علىٰ أحدهما أضعاف أضعاف ما يُثيب علىٰ الآخر،

بل يجوز أن يُثيب علىٰ أحدهما دون الآخر، بل يجوز أن يُثيب علىٰ هذا، ويُعاقب علىٰ هذا، مع فَرض الاستواء من كل وَجه.

وهذا قَول مَن ليس له فِقْه في أسماء الربّ وصِفاته وأفعاله، ولا فِقْه في شَرعه وأمره، ولا فِقْه في أعمال القلوب وحقائق الإيمان بالله، وبالله التوفيق. اهـ[١].

[حياةُ القلب]

حياة القلب بالعمل والإرادة والهمة، والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا: هو حيُّ القلب، وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «مَن واظب علىٰ (يا حيُّ يا قيوم، لا إله إلا أنت» كل يوم -بين سنة الفجر وصلاة الفجر أربعين مرة- أَحْيَا الله بها قلبه.

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب، فحياة القلب بدوام الذكر، والإنابة إلىٰ الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة علىٰ القلب، والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتوالىٰ عليه حتىٰ يموت، وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أتدرون من ميت القلب الذي قيل فيه:

ليس مَن مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

(١) «المنار المنيف» (٢٠- ٢٦).



قالوا: ومَن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا».

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه؛ إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب والروح، فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يخيل كأنه حقيقة، فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالًا، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:« لو أن الحياة الدنيا -من أولها إلىٰ آخرها- أُوتيها رجل واحد، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأىٰ في منامه ما يَسُرُّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء».

وقد قيل: «إن الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي؛ فمن أمات نفسه موتًا إراديًا كان موته الطبيعي حياة له». ومعنىٰ هذا: أن الموت الإرادي: هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المُتلفة، فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد ومعرفته والاشتغال به، ويرىٰ حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب علىٰ العيش اللذيذ الدائم أخسر الخسران.

فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة، فالقلب حينئذ إما أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزوما مُخرجًا عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه أو قتيلًا ميتًا، وما لجرح به إيلام، وأحسن أحواله أن يكون في حرب، يُدال له فيها مرة، ويدال عليه مرة، فإذا مات العبد موته الطبيعي، كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه، فتكون حياته هاهنا علىٰ حسب

موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلا أَلِبَّاء الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية والنفوس الزكية الأبية. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢١٤، ٢١٥).



الفصل الثاني: أنواع القلوب وآفاتها

[أقسام القلوب]

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدِّها، انقسم بحسب ذلك إلىٰ هذه الأحوال الثلاثة:

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتىٰ الله به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، والسليم هو السالم، وجاء علىٰ هذا المثال؛ لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف؛ فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفةً ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنىٰ القلب السليم، والأمرُ الجامعُ لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كل شهوةٍ تخالف أمرَ الله ونهيَه، ومن كل شبهةٍ تُعارِض خبره؛ فسَلِم من عبودية ما سواه، وسَلِم من تحكيم غير رسوله؛ فسَلِم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، وفي خوفه ورجائه والتوكلِ عليه، والإنابة إليه، والذلِّ له، وإيثارِ مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلُح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد

خلصتْ عبوديته لله تعالىٰ: إرادةً، ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً، وخلصَ عملُه لله؛ فإن أحبَّ أَحَبَّ في الله، وإن أبْغضَ أبْغضَ في الله، وإن أعْطَىٰ أعطىٰ لله، وإن مَنَع منع لله، ولا يكفيه هذا حتىٰ يَسْلَم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، فيَعقِد قلبَه معه عقدًا محكمًا علىٰ الائتمام والاقتداء به وحدَه دون كل أحدٍ في الأقوال والأعمال؛ من أقوال القلب: وهي العقائد، وأقوال اللسان: وهي الخبر عمَّا في القلب، وأعمال القلب: وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح؛ فيكون الحاكم عليه في ذلك كله -دِقِّه وجِلِّه- هو ما جاء به الرسول صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم؛ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعْلَةٍ -وإن صغُرت- إلا يُنشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل؟ أم الباعث علىٰ الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودُّد والتقرُّب إلىٰ الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحلُّ هذا السؤال أنه: هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟



والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد؛ أي: هل كان ذلك العمل مما شرعته لك علىٰ لسان رسولي؟ أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرْضَهُ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة؛ فإنَّ الله سبحانه لا يَقبل عملًا إلا بهما.

فطريق التخلُّص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص.

فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادةٍ تُعارِض الإخلاص، وهوىً يعارض الاتباع؛ فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمِنتْ له النجاة والسعادة.

والقلب الثاني: ضِدُّ هذا؛ وهو القلب الميت الذي لا حياة به؛ فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي -إذا فاز بشهوته وحظه- رضي ربُّه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا وسخطًا، وتعظيمًا وذلًّا؛ إن أَحَبَّ أَحَبَّ لهواه، وإن أبغض أبغَضَ لهواه، وإن أعطىٰ أعطىٰ لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثَرُ عنده وأحب إليه من رضا مولاه؛ فالهوىٰ إمامُه، والشهوة قائدُه، والجهلُ سائقه، والغفلةُ مركبُه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوىٰ وحبِّ العاجلة مخمور، يُنادَىٰ إلىٰ الله وإلىٰ الدار الآخرة من مكانٍ بعيدٍ ولا يستجيب

للناصح ويتَّبع كل شيطان مريد. الدنيا تُسخطه وتُرضيه، والهوىٰ يُصِمُّه عمَّا سوىٰ الباطل ويُعميه؛ فهو في الدنيا كما قيل في ليلىٰ:

عَـدُوٌّ لِمَـنْ عَـادَتْ، وَسِـلْمٌ لأهْلِهَـا ... وَمَـنْ قَرَّبَـتْ لَيْلَـىٰ أُحِـبُّ وَأُقَرِّبَـا

فمخالطة صاحب هذا القلب سُقْمٌ، ومعاشرته سُمٌّ، ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلبٌ له حياة وبه علَّة؛ فله مادتان، تَمُدُّه هذه مرة، وهذه أخرىٰ، وهو لِمَا غلب عليه منهما؛ ففيه من محبة الله تعالىٰ والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص علىٰ تحصيلها، والحسد، والكِبْر، والعُجْب، وحب العلوِّ في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعَطَبِهِ، وهو مُمتحَنٌ بين داعيين: داعٍ يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلىٰ العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول حيٌّ مُخْبِتٌ لَيِّنٌ واعٍ، والثاني يابسٌ ميتٌ، والثالث مريض؛ فإمَّا إلىٰ السلامة أدنىٰ، وإمَّا إلىٰ العَطَب أدنىٰ.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢- ٥٤].

فجعل الله ﷻ القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا؛ فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي، والناجي: القلب المؤمن المُخبت إلىٰ ربه؛ وهو المطمئن إليه، الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة له؛ يتأتىٰ منه ما هُيِّئ له وخُلِق لأجله، وخروجُه عن الاستقامة إمَّا بيُبسِه وقساوته، وعدم التأتِّي لما يراد منه؛ كاليد الشلَّاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذَكَر العِنِّين، والعين التي لا تبصر شيئًا؛ وإمَّا بمرضٍ وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال، ووقوعها علىٰ السداد. فلذلك انقسمت القلوب إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة:

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوىٰ إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضُه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشُّبه والشكوك: فتنةٌ لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يردُّ ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه؛ فيُخبِت للحق ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له، وكفرًا بالباطل وكراهة له؛ فلا يزال القلب المفتون في مِرْية من إلقاء الشيطان. وأمَّا القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدًا.

قال حُذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله -صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم-: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَىٰ القلُوبِ كعَرْض الحصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فأَيُّ قَلْبٍ أُشرِبَها نُكِتَتْ فِيه نُكتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْب أنْكَرهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّىٰ تَعُودَ القُلوبُ عَلَىٰ قَلْبين: قَلْبٍ أَسْوَد مُرْبَادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ معرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ إلَّا مَا أُشْرِبَ منْ هَوَاهُ، وَقلبٍ أبْيض، فلا تضرُّهُ فِتْنةٌ مَا دَامَتِ السَّماواتُ وَالأرْضُ**»[1].

فشبَّه عرض الفتن علىٰ القلوب شيئًا فشيئًا؛ كعرض عيدانِ الحصير، وهي طاقاتها شيئًا فشيئًا، وقسَّم القلوب عند عرضها عليها إلىٰ قسمين:

- قلب إذا عُرضت عليه فتنة أُشْرِبها، كما يشرب الإسفِنْج الماء، فتُنكَت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه، حتىٰ يسودَّ وينتكس، وهو معنىٰ قوله: «**كالكوز مُجَخِّيًا**»، أي: مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسودَّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلىٰ الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر؛ فلا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتىٰ يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسُّنة بدعة والبدعة سُنة، والحق باطلًا والباطل حقًّا.

الثاني: تحكيمه هواه علىٰ ما جاء به الرسول -صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم- وانقياده للهوىٰ واتباعه له.

- وقلب أبيض؛ قد أشرق فيه نورُ الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا

---

(١) رواه مسلم بنحوه، كتاب (الإيمان)، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريبًا...)، (ح١٤٤).

عُرضت عليه الفتنة أنكرها وكرهَها؛ فازداد نوره وإشراقه وقوَّته. اهـ[١].

[حال القلوب مع الغيث]

في «الصحيح» من حديث أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ منها طَائِفَة طَيِّبَة قَبِلَت الْمَاء فَأَنْبَتَتِ الْكلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا نَاسًا فَشَرِبُوا فَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وسقوْا ورعوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلًا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[٢].

فمثَّل القلوب بالأرض التي هي محل النبات والثمار، ومثَّل الوحي الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماءِ الذي يُنزله علىٰ الأرض:

فمن الأَرض أرض طيبة قابلة للماءِ والنبات، فلما أصابها الماءُ أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم وأَقوات المكلفين وغيرهم، وهذه بمنزلة القلب القابل لهدىٰ الله ووحيه المستعد لزكائه فيه وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرض أرض صلبة منخفضة غير مرتفعة ولا رابية، قابلة لحفظ

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١١ - ١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب (العلم)، باب (فضل من علم وعلَّم)، (ح٧٩)، ومسلم كتاب (الفضائل)، باب (بيان مثل ما بُعث به النبي ﷺ)، (ح٢٢٨٢).

الماءِ واستقراره فيها، ففيها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات، فلما حصل فيها الماءُ أَمسكته وحفظته فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم، وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه وأَداه إلىٰ من هو أفهم له منه وأَفقه منه وأَعرف بمراده، وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرض قيعان -وهي المستوية التي لا تنبت؛ إما لكونها سبخة أو رمالًا، ولا يستقر فيها الماء- فإذا وقع عليها الماءُ ذهب ضائعًا لم تمسكه لشرب الناس، ولم تنبت به كلأ؛ لأنها غير قابلة لحفظ الماءِ ولا لنبات الكلأ والعشب، وهذا حال أَكثر الخلق وهم الأَشقياءُ الذين لم يقبلوا هدىٰ الله ولم يرفعوا به رأْسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين، بل لا بدَّ لكل مسلم أن يزكو الوحي في قلبه، فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته، فمن لم ينبت قلبه شيئًا من الخير ألبتة فهذا من أشقىٰ الأشقياءِ؛ فصلوات الله وسلامه علىٰ من الهدىٰ والبيان والشفاءُ والعصمة في كلامه وفي أمثاله. اهـ[1].

[أنواع القلوب]

والقلوب ثلاثة:

قلب خال من الإيمان وجميع الخير؛ فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذ بيتًا ووطنًا وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٩٨، ٩٩).



القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه؛ لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية؛ فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دُوَلٌ وسِجال.

وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة؛ فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به؛ فهو كالسماء التي حرست بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق.

وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالىٰ له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيئًا إلا خطفه.

وقد مَثَّل ذلك بمثال حسن؛ وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره، وليس جواهر الملك وذخائره، وبيت خال صفر لا شيء فيه، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت، فمن أيها يسرق؟ فإن قلت: من البيت الخالي كان محالًا؛ لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق، ولهذا قيل لابن عباس ﵄: إنَّ اليهود تزعم أنها لا

توسوس في صلاتها، فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟ وإن قلت: يسرق من بيت الملك، كان ذلك كالمستحيل الممتنع؛ فإن عليه من الحرس واليزك وما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك بنفسه؟! وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث فهو الذي يشن عليه الغارات.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حقَّ التأمل، ولينزله علىٰ القلوب؛ فإنها علىٰ منواله. اهـ[1].

[من علامات مرض القلب]

كلُّ عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص، به كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خُلق له، حتىٰ لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب؛ فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلق له من معرفة الله ومحبته، والشوق إلىٰ لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك علىٰ كل شهوة؛ فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كلَّ حظ من حظوظ الدنيا ولذَّاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليًا من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات

(١) «الوابل الصيب» (٤٠، ٤١).



عذابًا له ولا بدَّ؛ فيصير مُعذَّبًا بنفس ما كان مُنعَّمًا به من جهتين: من جهة حسرة فَوْته، وأنه حِيلَ بينه وبينه، مع شدة تعلُّق روحه به، ومن جهة فَوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له؛ فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به، وكل من عرف الله أحبَّه وأخلص العبادة له ولا بدَّ، ولم يُؤثِر عليه شيئًا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث، وآثرته علىٰ الطيب سقطت عنها شهوة الطيِّب، وتعوَّضت بمحبة غيره.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته؛ وعلامة ذلك أنه لا تُؤلِمه جراحات القبائح، ولا يُوجِعه جهله بالحق وعقائده الباطلة؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمُّلُ مرارة الدواء والصبر عليها؛ فهو يُؤْثِرُ بقاءَ المرض علىٰ مشقة الدواء؛ فإن دواءه في مخالفة الهوىٰ، وذلك أصعب شيء علىٰ النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يُوطِّن نفسه علىٰ الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه؛ لضعف علمه وبصيرته وصبره؛ كمن دخل في طريق مَخُوفٍ مُفْضٍ إلىٰ غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضىٰ الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلىٰ قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتىٰ ضعف صبره ويقينه رجع عن الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عَدِمَ الرفيقَ، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي

بهم أسوة. وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم؛ فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]؛ فتفرُّدُ العبد في طريق طلبه دليلٌ علىٰ صدق الطلب.

ولقد سئل إسحاق بن راهَوَيْه عن مسألة فأجاب عنها؛ فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل قولك، فقال: «ما ظننتُ أن أحدًا يوافقني عليها»، ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافقة؛ فإن الحق إذا لاح وتبيَّن لم يَحْتَجْ إلىٰ شاهد يشهد به، والقلب يُبْصرُ الحقَّ كما تبصر العينُ الشمسَ؛ فإذا رأىٰ الرائي الشمس لم يحتج -في علمه بها واعتقاده أنها طالعة- إلىٰ من يشهد بذلك ويوافقه عليه(١).

[عَشرَةٌ لا ينتفع بها]

عشرَة أَشْيَاء ضائعة لَا ينْتَفع بهَا: علم لَا يعْمل بِهِ، وَعمل لَا إخلاص فِيهِ وَلَا اقْتِدَاء، وَمَال لَا ينْفع مِنْهُ فَلَا يسْتَمْتع بِهِ جَامعه فِي الدُّنْيَا وَلَا يقدمهُ أَمَامه إِلَىٰ الْآخِرَة، وقلب فارغ من محبَّة الله والشوق إِلَيْهِ والأنس بِهِ، وبدن معطل من طَاعَته وخدمته، ومحبة لَا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، وَوقت معطل عَن اسْتِدْرَاك فارط أَو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فِيمَا لَا ينفع، وخدمة من لَا تقربك خدمته إِلَىٰ الله وَلَا تعود عَلَيْك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وَهُوَ أسير فِي

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٧٥، ٧٦).



قَبضته وَلَا يملك لنَفسِهِ ضرًّا وَلَا نفعًا، وَلَا موتًا وَلَا حَيَاة وَلَا نشورًا.

وَأعظم هَذِه الإضاعات إضاعتان -هما أصل كل إِضَاعَة-: إِضَاعَة الْقلب، وإضاعة الْوَقْت؛ فإضاعة الْقلب من إِيثَار الدُّنْيَا على الْآخِرَة، وإضاعة الْوَقْت من طول الأمل، فَاجْتمع الْفساد كُله فِي اتباع الْهوى وَطول الأمل، وَالصَّلَاح كُله فِي اتِّبَاع الهدى والاستعداد للقاء... وَالله الْمُسْتَعَان(١).

[الحجب العشرة]

الْحُجُبُ التي تحجب القلب عن الرب عَشَرَةٌ:

الْأَوَّلُ: حِجَابُ التَّعْطِيلِ، وَنَفْيُ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ أَغْلَظُهَا، فَلَا يَتَهَيَّأُ لِصَاحِبِ هَذَا الْحِجَابِ أَنْ يَعْرِفَ اللهَ، وَلَا يَصِلَ إِلَيْهِ أَلْبَتَّةَ إِلَّا كَمَا يَتَهَيَّأُ لِلْحَجَرِ أَنْ يَصْعَدَ إِلَىٰ فَوْقَ.

الثَّانِي: حِجَابُ الشِّرْكِ، وَهُوَ أَنْ يَتَعَبَّدَ قَلْبُهُ لِغَيْرِ اللهِ.

الثَّالِثُ: حِجَابُ الْبِدْعَةِ الْقَوْلِيَّةِ، كَحِجَابِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِهَا.

الرَّابِعُ: حِجَابُ الْبِدْعَةِ الْعَمَلِيَّةِ، كَحِجَابِ أَهْلِ السُّلُوكِ الْمُبْتَدِعِينَ فِي طَرِيقِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ.

الْخَامِسُ: حِجَابُ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الْبَاطِنَةِ، كَحِجَابِ أَهْلِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ

---

(١) «الفوائد» (١٦٤، ١٦٥).

وَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ، وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَنَحْوِهَا.

السَّادِسُ: حِجَابُ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَحِجَابُهُمْ أَرَقُّ مِنْ حِجَابِ إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الْبَاطِنَةِ، مَعَ كَثْرَةِ عِبَادَاتِهِمْ وَزَهَادَاتِهِمْ وَاجْتِهَادَاتِهِمْ، فَكَبَائِرُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِنْ كَبَائِرِ أُولَئِكَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ صَارَتْ مَقَامَاتٍ لَهُمْ لَا يَتَحَاشَوْنَ مِنْ إِظْهَارِهَا وَإِخْرَاجِهَا فِي قَوَالِبَ عِبَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ، فَأَهْلُ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ أَدْنَىٰ إِلَىٰ السَّلَامَةِ مِنْهُمْ، وَقُلُوبُهُمْ خَيْرٌ مِنْ قُلُوبِهِمْ.

السَّابِعُ: حِجَابُ أَهْلِ الصَّغَائِرِ.

الثَّامِنُ: حِجَابُ أَهْلِ الْفَضَلَاتِ، وَالتَّوَسُّعِ فِي الْمُبَاحَاتِ.

التَّاسِعُ: حِجَابُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنِ اسْتِحْضَارِ مَا خُلِقُوا لَهُ وَأُرِيدَ مِنْهُمْ، وَمَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ دَوَامِ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ.

الْعَاشِرُ: حِجَابُ الْمُجْتَهِدِينَ السَّالِكِينَ، الْمُشَمِّرِينَ فِي السَّيْرِ عَنِ الْمَقْصُودِ.

فَهَذِهِ عَشرة حُجُبٍ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللهِ ﷻ. اهـ[1].

[الغفلة]

الغفلة: هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجاب عليه؛ فإن كُشف هذا الحجاب بالذكر، وإلا تكاثف حتىٰ يصير حجاب بطالة ولعب واشتغال بما لا يفيد؛ فإن بادر إلىٰ كشفه وإلا تكاثف حتىٰ يصير حجاب معاص وذنوب صغار تُبْعده

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧٦، ١٧٧).

عن الله؛ فإن بادر إلىٰ كشفه وإلا تكاثف حتىٰ يصير حجاب كبائر توجب مَقْت الرب تعالىٰ له وغضبه ولعنته؛ فإن بادر إلىٰ كشفه وإلا تكاثف حتىٰ صار حجاب بِدَع عملية يعذب العامل فيها نفسه، ولا تجدي عليه شيئًا؛ فإن بادر إلىٰ كشفه وإلا تكاثف حتىٰ صار حجاب بِدع قولية اعتقادية؛ تتضمن الكذب علىٰ الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول؛ فإن بادر إلىٰ كشفه وإلا تكاثف حتىٰ صار حجاب شك وتكذيب يقدح في أصول الإيمان الخمسة؛ وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله ولقائه، فلغلظ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يرىٰ حقائق الإيمان، ويتمكن منه الشيطان، يَعِدُه ويُمَنِّيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوىٰ وتشتهي، وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان فأسره وسجنه، إن لم يهلكه، وتولىٰ تدبير المملكة واستخدام جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرىٰ عليها العمل، وأغلق باب اليقظة، وأقام عليه بواب الغفلة، وقال: إياك أن نؤتَىٰ من قبلك، واتخذ حاجبًا من الهوىٰ، وقال: إياك أن تمكن أحدًا يدخل عليَّ إلا معك؛ فأمرُ هذه المملكة قد صار إليك وإلىٰ البواب.

فيا بَوَّاب الغفلة، ويا حاجب الهوىٰ؛ ليلزم كلٌّ منكما ثغره، فإن أخليتما فَسَدَ أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شَرَّ الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت علىٰ القلب هذه العساكر، مع رِقَّة الإيمان، وقلة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان أن آثر العاجل الحاضر علىٰ الغائب الموعود به

بعد طَيِّ هذه الأكوان، فالله المستعان وعليه التكلان. اهـ(١).

[المتكبرون الأربعة]

فالأول: المنحرفون أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقلُ والنقل: قدمنا العقل، وعزلنا النقل؛ إما عزل تفويض، وإمَّا عزل تأويل.

والثاني: المتكبرون من المنتسبين إلىٰ الفقه؛ قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص: قدمنا القياس علىٰ النص، ولم نلتفت إليه.

والثالث: المتكبرون المنحرفون من المنتسبين إلىٰ التصوف والزهد؛ فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قدَّموا الذوق والحال، ولم يعبأوا بالأمر.

والرابع: المتكبرون المنحرفون من الولاة والأمراء الجائرين؛ إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة، قدَّموا السياسة، ولم يلتفتوا إلىٰ حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. اهـ(٢).

[الكِبْرُ شَرٌّ من الشرك]

أول ذنب عَصَىٰ الله به أَبَوَا الثقلين: الكِبْر والحرص؛ فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلىٰ ما آل إليه، وذنب آدم علىٰ نبينا وعليه السلام كان من

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٣٥).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٤١).



الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنب إبليس حمله علىٰ الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلىٰ نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلىٰ النار إبليس. وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: «التكبر شرٌّ من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالىٰ، والمشرك يعبد اللهَ وغيره».

قلتُ: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين؛ كما قال تعالىٰ في سورة الزمر وفي سورة غافر: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾ [غافر: ٧٦]، وقال في سورة النحل: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾ [النحل: ٢٩]، وقال في سورة (تنزيل): ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله علىٰ قلوبهم، فقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذَرَّة مِن كِبْرٍ**»(١)، رواه مسلم، وقال ﷺ: «**الكبرُ بطرُ الحقِّ وغمطُ الناسِ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الإيمان)، باب (تحريم الكبر وبيانه)، (ح ٩١)، وفيه قصة.

(٢) هو بقية الحديث السابق.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] تنبيهًا علىٰ أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «مَن تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَه»، فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصَغَّرَه وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق -ولو جاءه علىٰ يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه- فإنما تكبره علىٰ الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله، فإذا ردَّه العبدُ وتكبر عن قبوله فإنما رَدَّ علىٰ الله، وتكبر عليه، والله أعلم. اهـ(١).

[أنواع شر الشيطان]

الشر الأول: شرُّ الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم بَرَد أنينُهُ، واستراح من تعبه معه، وهو أوَّلُ ما يُريد من العبد، فلا يزالُ به حتىٰ ينالَهُ منه، فإذا نال ذلك صَيَّرَهُ من جنده وعسكره، واستنابه علىٰ أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليسَ ونوَّابه.

[٢] فإن يَئِسَ منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلامُ في بطن أُمه، نقله إلىٰ المرتبة الثانية من الشر؛ وهي البدعة، وهي أحبُّ إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضرَرَها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي ذنبٌ لا يتابُ منه، وهي مخالفةٌ لدعوة الرُّسُل، ودعاء إلىٰ خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقيَ أيضًا نائِبَهُ وداعيًا من دعاتِهِ.

[٣] فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبدُ ممن سَبَقَتْ له من الله موهبةُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).



السُّنَّة ومعاداة أهل البدَع والضلال، نقله إلىٰ المرتبة الثالثة من الشَّرِّ؛ وهي الكبائرُ علىٰ اختلاف أنواعها، فهو أشدُّ حرصًا علىٰ أن يوقعَه فيها، ولا سيِّما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريصٌ علىٰ ذلك لينفِّرَ الناس عنه، ثم يشيعُ من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستَنِيبُ منهم من يشيعُها ويذيعُها تديُّنًا وتقرُّبًا بزعمه إلىٰ الله تعالىٰ، وهو نائب إبليسَ ولا يشعرُ؛ فإن الذين يُحِبُّون أن تشيعَ الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبُّوا إشاعَتَها وإذاعَتَها، فكيف إذا تولَّوْا هم إشاعَتَها وإذاعَتَها لا نصيحة منهم، ولكن طاعةً لإبليس ونيابةً عنه؟! كل ذلك لينفِّرَ الناسَ عنه، وعن الانتفاع به. وذنوب هذا ولو بلغت عَنان السَّماء أهونُ عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلمٌ منه لنفسه إذا استغفرَ اللهَ وتابَ إليه قَبِلَ اللهُ توبَتَهُ، وبدَّلَ سيئاتِهِ حسنات، وأمَّا ذنوبُ أولئك فظلم للمؤمنين وتتَبُّعٌ لعوراتهم وقصدٌ لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفىٰ عليه كمائنُ الصدور ودسائسُ النفوس.

[٤] فإنْ عجَزَ الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلىٰ المرتبة الرابعة؛ وهي: الصَّغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «**إيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوب؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ قَوْمٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأرض**»(١)، وذكر حديثًا معناه: أن كل واحد منهم جاء بعُود حَطَب حتىٰ أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشْتَوَوْا، ولا يزال يُسَهِّلُ عليه أمرَ الصغائر حتىٰ يستهينَ بها، فيكون صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحسنَ حالًا منه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والطبراني (١٠/ ٢٦١) (١٠٥٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: ٢٦٨٧.

[٥] فإن أعجزه العبدُ من هذه المرتبة نقله إلىٰ المرتبة الخامسة، وهي إشغالُه بالمُبَاحات التي لا ثوابَ فيها ولا عِقَابَ، بل عاقبتها فَوتُ الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

[٦] فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته، شحيحًا به، يعلم مقدارَ أنفاسِهِ وانقطاعها وما يقابلُها من النعيم والعذاب، نقلَه إلىٰ المرتبة السادسة؛ وهو: أن يشغَلَهُ بالعمل المفضول عمَّا هو أفضل منه، يزيح عنه الفضيلة ويفوِّته ثواب العمل الفاضل، فيأمرُهُ بفعل الخير المفضول، ويحضُّه عليه، ويحسِّنه له إذا تضمَّن ترك ما هو أفضل وأعلىٰ منه، وقلَّ من يَتنبَّهُ لهذا من الناس؛ فإنه إذا رأىٰ فيه داعيًا قويًّا ومحرِّكًا إلىٰ نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكادُ يقل: إن هذا الداعي من الشيطان؛ فإن الشيطان لا يأمرُ بخير، ويرىٰ أن هذا خيرٌ، فيقول: هذا الداعي من الله، وهو معذورٌ، ولم يصلْ علمُه إلىٰ أن الشيطان يأمره بسبعين بابًا من أبواب الخير: إمَّا لِيَتَوَصَّلَ بها إلىٰ بابٍ واحد من الشَّرِّ، وإمَّا لِيُفَوِّتَ بها خيرًا أعظمَ من تلك السبعين بابًا وأجلَّ وأفضلَ.

وهذا لا يُتوصلُ إلىٰ معرفته إلا بنورٍ من الله يقذفهُ في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدَّة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحةً لله تعالىٰ ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصَّتهم وعامَّتهم، ولا يعرفُ هذا إلا مَن كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن



ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالىٰ يمنُّ بفضله علىٰ مَن يشاء من عباده.

[٧] فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب السِّتِّ وأعيا عليه، سَلَّطَ عليه حزبَهُ من الإنس والجن بأنواع الأذىٰ والتكفير له، والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه ليُشَوِّشَ عليه قلبَهُ ويشغل بحربه فكره، وليمنعَ الناسَ من الانتفاع به، فيبقىٰ سعْيُه في تسليط المُبْطِلينَ من شياطين الإنس والجن عليه لا يَفْتُرُ ولا يَنِي، فحينئذٍ يلبَسُ المؤمن لأمَةَ الحرب ولا يضعُها عنه إلىٰ الموت، ومتىٰ وضعها أُسِرَ أو أُصيب، فلا يزال في جهادٍ حتىٰ يلقىٰ الله.

فتأمَّلْ هذا الفصلَ وتدبَّرْ موقِعَهُ وعظيمَ منفعته، واجعلْه ميزانك تَزِنُ به الناسَ، وتَزِنُ به الأعمال، فإنه يُطْلِعكَ علىٰ حقائق الوجود ومراتب الخلق... واللهُ المستعان، وعليه التُّكْلان، ولو لم يكنْ في هذا التعليق إلا هذا الفصلُ لكان نافعًا لمَن تدبَّرَهُ ووعاه. اهـ(١).

[من شرور الشيطان]

فمن شرِّه: أنه لصٌّ سارقٌ لأموال الناس؛ فكلُّ طعام أو شراب لم يُذكرِ اسمُ الله تعالىٰ عليه، فله فيه حظٌّ بالسَّرقة والخَطْف، وكذلك يبيتُ في البيت إذا لم يُذكر فيه اسم الله تعالىٰ؛ فيأكلُ طعامَ الإنس بغير إذنهم، ويَبيتُ في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغِيْرًا، ويدلُّ علىٰ عوراتهم، فيأمر العبدَ بالمعصية، ثم يلقي فِي قلوب الناس يَقظَةً ومنامًا: إنه فعل كذا وكذا.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢٠- ٢٢٢).

ومن هذا أن العبدَ يفعل الذنبَ لا يطَّلِع عليه أحدٌ من الناس، فيصبحُ والناسُ يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطانَ زيَّنَه له، وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلىٰ الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به؛ فالرَّبُّ تعالىٰ يستُرُه، والشيطانُ يَجْتهدُ في كشف ستره وفضيحته، فيغترُّ العبدُ ويقول: هذا ذنبٌ لم يَرَهُ إلا اللهُ تعالىٰ، ولم يشعرْ بأنَّ عدُوَّهُ ساعٍ في إذاعته وفضيحته، وَقلَّ مَن يتفطَّنُ من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره: أنه إذا نام العبدُ عَقَدَ علىٰ رأسه عُقَدًا تمْنَعهُ من اليَقَظَة، كما في صحيح البخاري، عن سعيد بن المُسَيِّب، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ قَافِيةِ رَأسِ أَحَدِكُمْ إذا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَىٰ كلِّ عُقْدَة مَكَانَها: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَويلٌ فَارْقُدْ، فَإِن اسْتَيْقَظَ فَذَكرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّىٰ انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا؛ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ»**(١).

ومن شره: أنه يبولُ في أُذن العبد حتىٰ ينام إلىٰ الصباح، كما ثَبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه ذُكِرَ عنده رجل نام ليلة حتىٰ أصبحَ، قال: **«ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ»**(٢)، رواه البخاريُّ.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري، كتاب (بدء الخلق)، باب (صفة إبليس وجنوده) (ح٣٢٦٩)، واللفظ له، ومسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، (ح ٧٧٦).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري، كتاب (بدء الخلق)، باب (صفة إبليس وجنوده)، (ح٣٢٧٠)، ومسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، (ح٧٧٤).



ومن شره: أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلِّها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشَّيْطَانُ مُرْصِدٌ عليه، يمنعُه بجَهْدِه أن يسلُكَهُ، فإن خالفَه وسلكَه ثَبَّطَهُ فيه وعوَّقَهُ، وشوَّشَ عليه بالمُعارضات والقواطع، فإن عَمِله وفرغ منه، قيَّضَ له ما يُبْطِلُ أثَرَه وَيَرُدُّهُ علىٰ حافِرَته.

ويكفي من شرِّه: أنه أقسمَ بالله ليقعُدَنَّ لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم لَيَأتِيَنَّهُمْ من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أَيْمانهم وعن شمائلهم، ولقد بلغ شره أن أعملَ المكيدة، وبالغ في الحِيلة، حتىٰ أخرجَ آدَمَ من الجنة، ثم لم يَكْفِهِ ذلك حتىٰ استقطعَ من أولاده شرطة للنَّار من كلِّ ألف [تسعمائة] وتسعة وتسعين، ثم لم يكفِهِ ذلك حتىٰ أعملَ الحيلةَ في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوةُ له، وأن يُعْبَدَ من دون الله؛ فهو ساعٍ بأقصىٰ جَهْده علىٰ إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض. اهـ(١).

[كيد إبليس.. إفراطٌ أو تفريطٌ]

من كيد الشيطان العجيب: أنه يشام النفس حتىٰ يعلم أيَّ القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟

فإن رأىٰ الغالب علىٰ النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقَّله عليه، فهَوَّن عليه تركه حتىٰ يتركه جملة، أو

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

يقصر فيه ويتهاون يه.

وإن رأىٰ الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلىٰ مبالغةٍ وزيادةٍ.

فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالىٰ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إمَّا إلىٰ تفريط وتقصير، وإمَّا إلىٰ مجاوزة وغلوٍّ، ولا يُبالي بأيِّهما ظَفِرَ».

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي. والقليل منهم جدًّا الثابت علىٰ الصراط الذي كان عليه رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وأصحابه.

- فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلىٰ مجاوزة الحد بالوسواس.

- وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتىٰ أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلًا علىٰ الناس، مستشرفين إلىٰ ما بأيديهم.

- وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتىٰ أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتىٰ أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

- وكذلك قصر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتىٰ قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ عبدوهم.

- وقصر بقوم في خلطة الناس حتىٰ اعتزلوهم في الطاعات؛ كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلُّم العلم، وتجاوز بقومٍ حتىٰ خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

- وقصر بقوم حتىٰ امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله، وتجاوز بآخرين حتىٰ جرأهم علىٰ الدماء المعصومة.

- وكذلك قصر بقومٍ حتىٰ منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به.

- وقصر بقومٍ حتىٰ أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتىٰ أطعمهم الحرام الخالص.

- وقصر بآخرين حتىٰ زين لهم ترك سُنة رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم من النكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتىٰ ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

- وقصر بقومٍ حتىٰ جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ عبدوهم مع الله تعالىٰ.

- وكذلك قصر بقومٍ حتىٰ منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوا الحلال ما حَلَّلوه والحرام ما حرَّموه، وقدَّموا أقوالهم علىٰ سُنة رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم الصحيحة الصريحة...

- وقصر بقومٍ حتىٰ تزيَّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقومٍ حتىٰ أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم، وسموا أنفسهم الملامتية.

- وقصر بقومٍ حتىٰ أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلًا أو فضولًا، وتجاوز بآخرين حتىٰ قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلىٰ كثيرٍ من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنىٰ إشارة. اهـ[1].

[الاقتصاد والاعتصام]

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا -وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسُّنة- فإن الشيطان يَشُمُّ قلب العبد ويختبره؛ فإن رأىٰ فيه داعية للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة: أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأىٰ فيه حرصا علىٰ السنة، وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها؛ فأمره بالاجتهاد، والجور علىٰ النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلًا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل؛ فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتىٰ يخرجه عن الاقتصاد فيها؛ فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج هذا الحد، فكذا هذا الآخر خارج عن

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١٢٤ - ١٢٧).

الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج الذين يَحْقِر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلىٰ البدعة؛ لكن هذا إلىٰ بدعة التفريط، والإضاعة، والآخر إلىٰ بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: «ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان؛ إمَّا إلىٰ تفريط، وإما إلىٰ مجاوزة، ولا يُبالي بأيِّهما ظفر»، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**يا عبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شِرَّة، ولكل شِرَّة فترة؛ فمن كانت فترته إلىٰ سُنة أفلح، ومن كانت فترته إلىٰ بدعة خاب وخسر**»[١]، قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع؛ كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم علىٰ منهاج الأنبياء عليهم السلام وسُنتهم.

وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة، والفتور والتواني يخرجه عنها أيضًا[٢].

---

(١) رواه أحمد بنحوه (٢/ ٢١٠).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).

[عندما تكون الكبائر صغائر]

هاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها -من الحياء والخوف، والاستعظام لها- ما يلحقها بالصغائر.

وقد يقترن بالصغيرة -من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها- ما يلحقها بالكبائر؛ بل يجعلها في أعلىٰ رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلىٰ ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد علىٰ مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يُعْفىٰ للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يعفىٰ لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدَّس الله روحه- يقول: «انظر إلىٰ موسىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- رمىٰ الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله؛ وهو هارون، ولطم عينَ ملك الموت ففقأها، وعاتب ربَّه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورَفْعِه عليه، وربُّه تعالىٰ يحتمل له ذلك كله، ويُحبه ويكرمه ويُدَلِّلُه؛ لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدىٰ عدو له، وصدع بأمره، وعالج أُمَّتي القِبْط وبني إسرائيل أشد المعالجة؛ فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظرْ إلىٰ يونس بن مَتَّىٰ حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسىٰ؛ غاضبَ ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسىٰ.

وفرقٌ بين من إذا أتىٰ بذنب واحد، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتىٰ بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع، كما قيل:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنبٍ واحد جاءت محاسنُه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكِّر به إذا وقع في الشدائد؛ قال تعالىٰ عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١][(١)].

[من مفسدات القلب: التمني]

ركوبه بحر التمني؛ وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المُنَىٰ رأس أموال المفاليس، وبضاعة ركابه مواعيد الشياطين، وخيالات المحال والبهتان؛ فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همَّة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهبية، وكلٌّ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٧).

وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيُمَثِّل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والْتَذَّ بالظفر بها، فبينا هو علىٰ هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلىٰ الله، ويُدْنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة؛ وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله؛ كالقائل: «لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه، وقال: «**هما في الأجر سواءٌ**»(١)، وتمنىٰ ﷺ في حجة الوداع: (أنه لو كان تمتع وحلَّ ولم يسُقِ الهدي، وكان قد قَرَن)(٢)، فأعطاه الله ثواب القِرَان بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين(٣).

---

(١) الترمذي في (الزهد)، باب (ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر)، (ح٢٣٢٥)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»، رقم (١٨٩٤).

(٢) يقصد ما أخرجه مسلم من قوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة**»، وهو جزء من حديث جابر الطويل في الحج، باب (حجة النبي ﷺ)، (ح١٢١٨).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥، ٤٤٦).

[من مفسدات القلب: التعلق بغير الله]

وهذا أعظم مفسدات القلب على الإطلاق؛ فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن الله، وأحجب له عن مصالحه وسعادته منه؛ فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلىٰ ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله ﷻ بتعلقه بغيره والتفاته إلىٰ سواه، فلا علىٰ نصيبه من الله حصل، ولا إلىٰ ما أمله ممن تعلّق به وصل؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] .

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت؛ أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢] مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك؛ إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي

تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور. اهـ[1].

[من مفسدات القلب: كثرة النوم]

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضار غير النافع للبدن، وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجةإليه، ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه، وكثر ضرره، ولا سيما نوم العصر، والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس؛ فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتىٰ لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتىٰ تطلع الشمس؛ فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه علىٰ حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة: فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٦).

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتىٰ تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه؛ فهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرىٰ عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة علىٰ الفهم والعمل، ويورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل؛ فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير، وبالله المستعان. اهـ[1].

[من مفسدات القلب: الطعام]

والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات؛ وهي نوعان:

محرمات لِحَقِّ الله؛ كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرمات لحق العباد؛ كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهرًا وإما حياء وتذممًا.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حده؛ كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط؛ فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتىٰ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٨، ٤٤٩).

يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوَّىٰ عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها؛ فإنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا، فنام كثيرًا، فخسر كثيرًا، وفي الحديث المشهور: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلًا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[1].

ويحكىٰ أن إبليس -لعنه الله- عرض ليحيىٰ بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيىٰ: «هل نلتَ مني شيئًا قط؟ قال: لا، إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشَهَّيته إليك حتىٰ شبعت منه، فنمت عن وِرْدِك، فقال يحيىٰ: للهِ عليَّ ألا أشبعُ من طعام أبدًا، فقال إبليس: وأنا، لله عليَّ ألا أنصح آدميًّا أبدًا». اهـ[2].

[مراتب الحسد، وأحد أدويته]

تأملْ تقييدَهُ -سبحانه- شرَّ الحاسد بقوله في سورة الفلق: ﴿إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ لأن الرجل قد يكون عندَهُ حَسَد ولكن يُخفيه ولا يُرَتِّبُ عليه أذىً بوجهٍ ما: لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجدُ في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعاجلُ أخاه إلا بما يُحِبُّ اللهُ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحدٌ؛ إلا مَنْ عَصمَهُ اللهُ.

---

(١) الترمذي في (الزهد)، باب (ما جاء في كراهية كثرة الأكل) (ح٢٣٨١)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»، برقم (١٩٣٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٧).



وقيل للحسن البصري: «أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساكَ إخوةَ يوسُفَ!».

لكن الفرقَ بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعُها ولا يأتمرُ لها، بل يعصِيها طاعةً لله وخوفًا وحياءً منه وإجلالًا له أن يَكرَهَ نِعَمَه علىٰ عباده، فيرىٰ ذلك مخالفةً لله وبغضًا لما يُحِبُّ اللهُ ومحبةً لما يبغضُه، فهو يجاهدُ نفسَه علىٰ دفع ذلك، ويُلْزِمُها بالدُّعاء للمحسود، وتمنِّي زيادةِ الخير له؛ بخلاف ما إذا حقق ذلك وحَسَد، ورتَّب علىٰ حسده مقتضاه من الأذىٰ بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسدُ المذمومُ هو كلُّه حسد تمنِّي الزوال.

وللحسد ثلاثُ مراتبَ:

أحدهما: هذه.

الثانية: وهي تمنِّي استصحاب عدم النِّعمة، فهو يكرهُ أن يُحْدِثَ اللهُ لعبده نعمةً، بل يُحبُّ أن يبقىٰ علىٰ حاله؛ من جهله أو فقره أو ضعفه أو شَتات قلبه عن الله، أو قِلَّة دينه، فهو يتمنَّىٰ دوامَ ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسدٌ علىٰ شيء مقدَّرٍ، والأول حسَدٌ علىٰ شيء محقَّق؛ وكلاهما حاسدٌ عدوٌّ نعمة الله وعدوُّ عبادِه، وممقوتٌ عند الله تعالىٰ وعند الناس، ولا يُسوَّدُ أبدًا ولا يواسىٰ؛ فإن الناس لا يُسَوِّدُون عليهم إلا من يريدُ الإحسان إليهم.

فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يُسَوِّدُونه باختيارهم أبدًا إلا قهرًا، يَعُدُّونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم اللهُ بها؛ فهم يُبغضونه وهو يُبْغِضُهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمنِّي أن يكونَ له مثلُ حال المحسود من غير أن تزولَ النعمةُ عنه، فهذا لا بأس به ولا يُعَابُ صاحبُه، بل هذا قريبٌ من المنافسة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي «الصحيحِ» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْن: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا وَسَلَّطهُ علي هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورَجُلٌ آتاه اللهُ الحِكْمَةَ فهو يقضي بِهَا، ويعَلِّمها النَّاسَ**»[١]، فهذا حَسَد غِبْطة، الحاملُ لصاحبه عليه كِبَر نفسه، وحُبُّ خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكونَ من سُبَّاقِهِم وعِلْيَتِهم ومُصَلِّيهم، لا من فَسَاكلهم[٢]، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه، فهذا لا يدخلُ في الآية بوجهٍ ما.

فهذه السورةُ من أكبر أدوية المحسود؛ فإنها تتضمَّنُ التَّوكُّلَ علىٰ الله، والالتجاءَ إليه، والاستعاذةَ به من شرِّ حاسد النعمة، فهو مستعيذٌ بولي النعم ومُوليها، كأنه يقول: يا منْ أولاني نعمتَه وأسْداها إليَّ، أنا عائذٌ بك من شرِّ من يريدُ أن يستلبَها مني، ويُزيلها عني، وهو حسْبُ من توَكَّلَ عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمِّنُ خوفَ الخائف، ويجيرُ المستجير، وهو نِعْمَ المولىٰ ونعم النصير، فمَن تولَّاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولَّاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتَّقاهُ آمَنَهُ مما يخافُ ويحذرُ، وجلب إليه كلَّ ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٧).

(٢) الذي يجيء في آخر السباق.

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته؛ فإن الله تعالىٰ بالغ أمره، وقد جعل اللهُ لكلِّ شيء قدْرًا لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ، ومن لم يَخَفْهُ أخافه من كل شيء، وما خاف أحدٌ غيرَ الله إلا لنقص خوفه من الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ ﴾ [النحل: ٩٨- ١٠٠] وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظِّمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفرِدوني بالمخافة أكْفِكمْ إيَّاهم. اهـ(١).

❧♦☙

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٢).

الفصل الثالث: صيانة القلوب وعلاجها

[من علامات صحة القلب]

أن يرتحل عن الدنيا حتىٰ ينزل بالآخرة، ويحل فيها، حتىٰ يبقىٰ كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلىٰ هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته، ويعود إلىٰ وطنه؛ كما قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القبُورِ**»(١).

فَحَـــيَّ عَلَـــىٰ جَنَّـــاتِ عَـــدْنٍ ... فَإِنها مَنَازِلُكَ الأولَىٰ وَفِيهَا المُخَيّمُ
وَلكِنَّنَـا سَـبْي العَـدُوِّ، فَهَـلْ تـرىٰ ... نَعُــودُ إلَــىٰ أَوْطَانِنَــا وَنُسَــلَّمُ؟

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بنون؛ فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل».

وكلما صحَّ القلب من مرضه ترحل إلىٰ الآخرة وقرب منها حتىٰ يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتلَّ آثر الدنيا واستوطنها، حتىٰ يصير من أهلها.

- **ومن علامات صحة القلب**: أنه لا يزال يضرب علىٰ صاحبه حتىٰ ينيب

---

(١) رواه الترمذي بلفظه، كتاب (الزهد)، باب (ما جاء في قصر الأمل)، (ح٢٣٣٣)، وأخرج البخاري أَوَّله، كتاب (الرقاق)، (ح٦٤١٦).

إلىٰ الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلىٰ محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذِكْره قُوته وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلىٰ غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة؛ فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوىٰ الله تعالىٰ أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده؛ فهو دائمًا يضرب علىٰ صاحبه حتىٰ يسكن ويطمئن إلىٰ إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرىٰ غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلق الخلقُ، ولأجله خُلقتِ الجنة والنار، وله أُرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفىٰ به جزاء وكفىٰ بفوته حسرة وعقوبة.

قال بعض العارفين: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، والتنعم بذكره وطاعته».

وقال آخر: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لَفِي عيشٍ طَيِّبٍ».

وقال آخر: «والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته».

وقال أبو الحسين الوراق: «حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني الحياة مع الله تعالىٰ لا غير».

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟!

وقال آخر: «مَن قرَّت عينه بالله تعالىٰ قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه علىٰ الدنيا حسرات».

وقال يحيىٰ بن معاذ: «من سُرَّ بخدمة الله سَرَّت الأشياء كلها بخدمته، ومن قَرَّت عينه بالله قَرَّت عيون كلِّ واحد بالنظر إليه».

- **ومن علامات صحة القلب**: ألا يَفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

- **ومن علامات صحته**: أنه إذا فاته وِرْدُه وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

- **ومن علامات صحته**: أنه يشتاق إلىٰ الخدمة، كما يشتاق الجائع إلىٰ الطعام والشرب.

- **ومن علامات صحته**: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرة عينه وسرور قلبه.

- **ومن علامات صحته:** أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

- **ومن علامات صحته:** أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًّا بماله.

- **ومنها:** أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل؛ فيحرص علىٰ الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منَّة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم.

وبالجملة: فالقلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهىٰ إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم علىٰ مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة؛ إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضىٰ له؛ قرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلىٰ غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة له وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها توددًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله؛ فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقًا ينطق: «لبَّيْك وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليَّ المنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك».



وإذا أصابه قَدر وجد من قلبه ناطقًا يقول: «أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك».

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهدِيَتْ إليَّ، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شرٌّ صرف عني. اهـ[1].

[أشياء في القلب]

في القلب شعثٌ لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٧٨- ٨٠).

الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا. اهـ(١).

[ثلاث تجمع الإيمان]

قال البخاري في «صحيحه»: قال عمار: «ثلاث من جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعَالَم، والإنفاق من الإقتار».

وقد تضمنت هذه الكلمات أصول الخير وفروعه؛ فإن الإنصاف يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موفرة، وأداء حقوق الناس كذلك، وألا يطالبهم بما ليس له، ولا يحملهم فوق وسعهم، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به، ويعفيهم مما يحب أن يعفوه منه، ويحكم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه وعليها، ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه؛ فلا يدَّعي لها ما ليس لها، ولا يخبثها بتدنيسه لها، وتصغيره إياها، وتحقيرها بمعاصي الله، ويُنميها ويكبِّرها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحبه وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثار مرضاته ومحابه علىٰ مراضي الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق ولا مع الله، بل يعزلها من البين كما عزلها الله، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه، وعطائه ومنعه، وكلامه وسكوته، ومدخله ومخرجه؛ فينجي نفسه من البين، ولا يرىٰ لها مكانة يعمل عليها، فيكون ممن ذمَّهم الله بقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل عليها؛ فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده، ونفسه ملك لسيده، فهو عامل علىٰ أن يؤدي إلىٰ سيده ما هو مستحق له عليه، ليس له مكانة أصلًا، بل قد كوتب

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٠، ١٢١).

علىٰ حقوق منجمة، كلما أدىٰ نجمًا حل عليه نجم آخر، ولا يزال المكاتب عبدًا ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصود: أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه، وحقه عليه، ومعرفة نفسه، وما خلقت له، وألا يزاحم بها مالكها وفاطرها ويدَّعي لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده، ويدفعه بمراده هو، أو يقدمه ويؤثره عليه، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده، وهي قسمة ضيزىٰ، مثل قسمة الذين قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه وبين الله لجهله وظلمه؛ وإلا لبس عليه وهو لا يشعر؛ فإن الإنسان خلق ظلومًا جهولًا، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل؟! وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق؟! كما في أثر إلهي: «يقول الله ﷻ: ابن آدم، ما أنصفتني؛ خيري إليك نازل، وشرك إلي صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي وأنت فقير إليَّ، ولا يزال المَلَكُ الكريمُ يَعرج إليَّ منك بعمل قبيح».

وفي أثر آخر: «ابن آدم، ما أنصفتني؛ خلقتك وتعبد غيري، وأرزقك وتشكر سواي».

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه، وظلمها أقبح الظلم، وسعىٰ في

ضررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها، فأتعبها كل التعب وأشقاها كل الشقاء من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها، وجدَّ كل الجدِّ في حرمانها حظها من الله، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها، ودساها كل التدسية وهو يظن أنه يكبرها وينميها، وحقرها كل التحقير وهو يظن أنه يعظمها؛ فكيف يرجي الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه؟! إذا كان هذا فعل العبد بنفسه، فماذا تراه بالأجانب يفعل؟

والمقصود: أن قول عمار ﵁: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار» كلام جامع لأصول الخير وفروعه.

وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه، وأنه لا يتكبر علىٰ أحد، بل يبذل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا يعرفه. والمتكبر ضدُّ هذا؛ فإنه لا يرد السلام علىٰ كل مَن سَلَّم عليه كبرًا منه وتيهًا، فكيف يبذل السلام لكل أحد؟!

وأمَّا الإنفاق من الإقتار فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله، وأن الله يخلفه ما أنفقه، وعن قوة يقين، وتوكل، ورحمة، وزهد في الدنيا، وسخاء نفس بها، ووثوق بوعد من وعده مغفرة منه وفضلًا، وتكذيبًا بوعد من يعده الفقر، ويأمر بالفحشاء، والله المستعان. اهـ[1].

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٠٧- ٤١٠).



[التخلية ثم التحلية]

قبُول الْمحل لما يوضع فِيهِ مَشْرُوط بتفريغه من ضدِّه.

وَهَذَا كَمَا أَنه فِي الذوات والأعيان، فَكَذَلِك هُوَ فِي الاعتقادات والإرادات، فَإِذا كَانَ الْقلب ممتلئًا بِالْبَاطِلِ اعتقادًا ومحبَّة لم يبْق فِيهِ لاعتقاد الْحق ومحبّته مَوضِع؛ فكَمَا أَن اللِّسَان إذا اشْتغل بالتكلم بِمَا لَا ينفع لم يتَمَكَّن صَاحبه من النُّطْق بِمَا يَنْفَعهُ إِلَّا إذا فرَّغ لِسَانه من النُّطْق بِالْبَاطِلِ، وَكَذَلِكَ الْجَوَارِح إذا اشتغلت بِغَيْر الطَّاعَة لم يُمكن شغلها بِالطَّاعَةِ إِلَّا إذا فرغها من ضدها.

فَكَذَلِك الْقلب المشغول بمحبَّة غير الله وإرادته والشوق إِلَيْهِ والأنس بِهِ، لا يُمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إِلَىٰ لِقَائِه إلا بتفريغه من تعلّقه بِغَيْرِهِ، وَلَا حَرَكَة اللِّسَان بِذكرِهِ والجوارح بخدمته إِلَّا إذا فرغها من ذكر غَيره وخدمته.

فَإِذا امْتَلَأَ الْقلب بِالشغلِ بالمخلوق والعلوم الَّتِي لَا تَنْفَع لم يبْقَ فِيهَا مَوضِع للشغل بِالله، وَمَعْرِفَة أَسْمَائِهِ وَصِفَاته وَأَحْكَامه.

وسرُّ ذَلِك أَن إصغاء الْقلب كإصغاء الْأذن؛ فَإِذا أصغىٰ إِلَىٰ غير حَدِيث الله لم يبْقَ فِيهِ إصغاء وَلَا فهم لحديثه، كَمَا إذا مَال إِلَىٰ غير محبَّة الله لم يبْق فِيهِ ميلٌ إِلَىٰ محبَّته، فَإِذا نطق الْقلب بِغَيْر ذكره لم يبْق فِيهِ مَحل للنطق بِذكرِهِ كاللسان.

وَلِهَذَا فِي «الصَّحِيح» عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «لِأَن يمتلئ جَوفُ أحدكم قَيْحًا يَرِيه[1] خيرٌ لَهُ من أَن يَمتلئ شِعرًا»[2]؛ فبَيَّن أَن الجوف يمتلئ بالشعر، فكذلك يمتلئ بالشُّبه والشكوك والخيالات والتقديرات الَّتِي لَا وجود لَهَا، والعلوم الَّتِي لَا تَنْفَع، والمفاكهات والمضحكات والحكايات وَنَحْوهَا.

وَإِذا امْتَلَأَ الْقلب بذلك جَاءَتْهُ حقائق الْقُرْآن وَالْعلم الَّذِي بِهِ كَمَاله وسعادته، فَلم تَجِد فِيهِ فراغًا لَهَا وَلَا قبولًا؛ فتعدته وجاوزته إِلَىٰ مَحل سواهُ. كَمَا إِذا بذلت النَّصِيحَة لقلب ملآن من ضدها لَا منفذ لَهَا فِيهِ، فَإِنَّهُ فِيهِ لَا يقبلهَا وَلَا تلج فِيهِ، ولَكِن تمرُّ مُجتازة لَا مستوطنة. اهـ[3].

[الحروز المانعة من الشيطان]

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز منه، وذلك في عشرة أسباب:

الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشيطان؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]...

الحرز الثاني: قراءة المعوذتين: فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله

---

(١) «يَرِيه»، أي: يأكل جوفه ويُفسده.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب (الأدب)، باب (ما يكره أن يكون الغالب علىٰ الإنسان الشعر)، (ح٦١٥٤)، ومسلم، كتاب (الشعر)، (ح٢٢٥٨)، واللفظ له.

(٣) «الفوائد» (٥٣).

تعالىٰ من شره ودفعه والتحصن منه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما تعوَّذ متعوذ بمثلهما**»(١)، وقد كان ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة.

وعنه ﷺ: «أن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثًا حين يصبح كَفَتْهُ مِن كل شيء»(٢).

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي: ففي «الصحيح» من حديث محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتىٰ آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ...، فذكر الحديث، فقال: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يَقربك شيطان حتىٰ تصبح، فقال النبي ﷺ: «**صَدَقكَ وهو كذوبٌ، ذاك شيطان**»(٣).

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة: ففي «الصحيح» من حديث سهل، عن عبد الله، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن**

---

(١) رواه أبو داود بلفظه، كتاب (الصلاة)، باب (في المعوذتين)، (ح١٤٦٣)، وبنحوه عند النسائي، كتاب (الاستعاذة)، (ح٥٤٣٠، ٥٤٣١، ٥٤٣٨).

(٢) أخرج أبو داود في «سننه»: أن النبيَّ ﷺ قال لعبد الله بن خُبيب: «**قل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ والمعوذتين حين تُمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**»، كتاب (الأدب)، باب (ما يقول إذا أصبح)، (ح٥٠٨٢]، وأخرجه -أيضًا- الترمذي في «سننه»، كتاب (الدعوات)، (ح٣٥٧٥)، والنسائي في «سننه»، كتاب (الاستعاذة)، (ح٥٤٢٨).

(٣) أخرج البخاري، كتاب (بدء الخلق)، باب (صفة إبليس وجنوده)، (ح٣٢٧٥).

البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»(١).

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة؛ فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتَاه**»(٢)، وفي الترمذي، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان**»(٣).

الحرز السادس: أول سورة (حم؛ المؤمن) إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣] **مع آية الكرسي**؛ في الترمذي، من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، عن ابن أبي مليكة، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ (حم؛ المؤمن) إلىٰ: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتىٰ يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتىٰ يصبح**»(٤)، وعبد الرحمن المليكي وإن كان قد

---

(١) رواه مسلم بنحوه، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، (ح٧٨٠)، والترمذي بلفظه، كتاب (فضائل القرآن)، باب (ما جاء في فضل سورة البقرة...)، (ح٢٨٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب (فضائل القرآن)، باب (فضل سورة البقرة)، (ح٥٠١٠)، ومسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، (ح٨٠٧).

(٣) رواه الترمذي، كتاب (فضائل القرآن)، باب (ما جاء في آخر سورة البقرة)، (ح٢٨٨٢)، والدارمي، كتاب (فضائل القرآن)، (ح٣٣٨٧).

(٤) رواه الترمذي، كتاب (فضائل القرآن)، باب (فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي)، (ح٣٣٨٦).

تُكلِّم فيه من قبل حفظه، فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي، وهو محتمل علىٰ غرابته.

الحرز السابع: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير**»: ففي «الصحيحين» من حديث سمي مولىٰ أبي بكر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، في يوم مائة مرة؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتىٰ يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك**»[1]؛ فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل علىٰ من يسره الله تعالىٰ عليه.

الحرز الثامن: كثرة ذكر الله، وهو من أنفع الحروز من الشيطان...

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة: وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة؛ فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أَمَا رأيتم إلىٰ حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟! فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض**»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب (بدء الخلق)، باب (صفة إبليس وجنوده)، (ح٣٢٩٣)، ومسلم، كتاب (الذكر والدعاء والتوبة)، (ح٢٦٩١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب (الفتن)، باب (ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه...)، (ح٢١٩١)، =

وفي أثر آخر: «**إن الشيطان خلق من نار، وإنما تُطفأ النار بالماء**»(١)، فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة؛ فإنها نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها علىٰ الله ذهب أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس؛ فإن الشيطان إنما يتسلط علىٰ ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة، فإن **فضول النظر** يدعوه إلىٰ الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في «المسند» عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلىٰ يوم يلقاه**»(٢)، أو كما قال ﷺ، فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؛ كما قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها من النظر ... ومُعظم النار من مستصغر الشرر

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء، وأمَّا فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان؛ فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك

= وأحمد في «المسند» (٣/ ١٩، ٦١).

(١) رواه أبو داود، كتاب (الأدب)، باب (ما يقال عند الغضب)، (ح٤٧٨٤)، وأحمد (٤/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه الحاكم بنحوه في «المستدرك» (٤/ ٣١٤)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٧٣)، (ح١٠٣٦٢) بنحوه أيضًا، وفي سنده: عبد الرحمن الواسطي، وهو ضعيف.

الأبواب كلها، وكم مِن حربٍ جَرَّتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «**وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟!**»[(١)].

وفي الترمذي: «أن رجلًا من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة: طوبىٰ له! فقال النبي ﷺ: «**فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه**»[(٢)]، وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان؛ فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات.

وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: «ما شيء أحوج إلىٰ طول السجن من اللسان».

وأما فضل الطعام فهو داعٍ إلىٰ أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارح إلىٰ المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونهما، فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًّا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، ولهذا جاء في بعض الآثار: «ضَيِّقوا مجاري الشيطان بالصوم»، وقال

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب (الإيمان)، باب (ما جاء في حرمة الصلاة)، (ح٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب (الفتن)، باب (كف اللسان في الفتنة)، (ح٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

(٢) أخرجه الترمذي بنحوه؛ كتاب (الزهد)، باب (فيمن تكلم بكلمة يُضحك بها الناس)، (ح٢٣١٦).

النبي ﷺ: **«ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن»**(١)، ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلىٰ الغفلة عن ذكر الله ﷻ، وإذا غفل عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهَّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت علىٰ أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

مخالطة الناس: إنَّ فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول؛ ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متىٰ خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يستغنىٰ عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا علىٰ الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله تعالىٰ وأمره ومكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله تعالىٰ ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب (الزهد)، باب (ما جاء في كراهية كثرة الأكل)، (ح٢٣٨٠، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وابن ماجه، كتاب (الأطعمة)، باب (الاقتصاد في الأكل...)، (ح٣٣٤٩).



صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يُستغنىٰ عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء... ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء علىٰ اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه؛ فمنهم من مخالطته كالداء العضال، والمرض المزمن؛ وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بدَّ من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنتْ مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم: من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم: من مخالطته حمىٰ الروح وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها؛ بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل علىٰ قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحْدِث من فيه كلما تحدَّث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرَّحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها علىٰ الأرض.

ويذكر عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ **أنه قال**: «ما جلس إلىٰ جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر».

ورأيت يومًا عند شيخنا -قدس الله روحه- رجلًا من هذا الضرب، والشيخ يحمله، وقد ضعفت القوىٰ عن حمله، فالتفت إلي وقال: «مجالسة الثقيل حمىٰ الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا علىٰ الحمىٰ، فصارت لها عادة»، أو كما قال.

وبالجملة: فمخالطة كل مخالف حمىٰ للروح فعَرَضِيَّة ولازمة.

ومن نكد الدنيا علىٰ العبد: أن يبتلىٰ بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتىٰ يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلاك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم؛ فإن اتفق لآكله ترياق، وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس -لا كثرهم الله- وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سُنة رسول الله ﷺ، الداعون إلىٰ خلافها، ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ؛ فيجعلون البدعة سُنَّة والسُّنَّة بدعة، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير؛ قالوا: أنت من المُشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهىٰ الله عنه ورسوله من المنكر؛ قالوا: أنت من المفتنين.

وإن انقطعت إلىٰ الله تعالىٰ وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا؛ قالوا: أنت من المُبلسين.

وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم؛ فأنت عند الله تعالىٰ من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالىٰ ورسوله بإغضابهم، وألا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضبهم، فإنه عَيْنُ كمالِك، كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كامل

وقال آخر:

وقد زادني حبًّا لنفسي أنني بغيض إلىٰ كل امرئ غير طائل

فمن كان بَوَّاب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم، وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسد علىٰ نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء؛ فعند الممات يحمد القوم التُّقىٰ، و(عند الصباح يحمد القوم السُّرىٰ).. والله الموفق لا رب غيره، ولا إله سواه. اهـ[1].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢٦ - ٢٣٣).

[طرق صيانة القلب]

جماع الطرق والأبواب التي يصان منها القلب وجنوده أربعة؛ فمن ضبطها وعدلها، وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها، استفاد منها قلبه وجوارحه، ولم يشمت به عدوه؛ وهي: الحرص، والشهوة، والغضب والحسد.

فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير، وكما هي طرق إلىٰ العذاب السرمدي فهي طرق إلىٰ النعيم الأبدي.

فآدم أبو البشر ﷺ أُخْرِج من الجنة بالحرص، ثم أدخل إليها بالحرص. ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثاني.

وأبو الجن، أُخرج منها بالحسد، ثم لم يُوفَّق لمنافسةٍ وحَسَدٍ يُعيده إليها، وقد قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا وسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار**»(١).

---

(١) هذان حديثان أدخل أحدهما في الآخر؛ فالأول متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه علىٰ هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**». رواه البخاري برقم (١٤٠٩)، ومسلم برقم (٨١٦)، والثاني متفق عليه -أيضًا- من حديث عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ: قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**». رواه البخاري برقم (٧٥٢٩)، ومسلم برقم (٨١٥).

وأمَّا الغضب فهو غول العقل؛ يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته.

وإذا كان حرصه إنما هو علىٰ ما ينفعه، وحسده منافسة في الخير، وغضبه لله علىٰ أعدائه، وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعونًا له علىٰ ما أُمر به، لم تضره هذه الأربعة، بل انتفع بها أعظم الانتفاع. اهـ[1].

[كيف ندفع لمة الشيطان؟]

والشيطان يُلِمُّ بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه، وهي نوعان: صفات وإرادات.

فإذا كانت الجواذب صفات قوىٰ سلطانه هناك، واستفحل أمره، ووجد موطنًا ومقرًّا، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس لا تدفع سلطان الشيطان؛ لأن مركبه صفة لازمة. فإذا قلع العبد تلك الصفات، وعمل علىٰ التطهر منها والاغتسال بقي الشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولَمَّات من غير استقرار؛ وذلك يضعفه ويقوي لمة الملك، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثالًا مطابقًا؛ فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه، وهو أقرب منك، فأنت تزجره

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧).

وتصيح عليه وهو يأبىٰ إلا التحوم عليك، والغارة علىٰ ما بين يديك.

فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له، ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك، فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوىٰ منه، فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب. وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبه وموطنه، فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولا يقوىٰ علىٰ إخراج العدو منه.

ومصداق ذلك تجده في الصلاة: فتأمل في الحال وانظر: هل تُخْرِج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك، وتفرغه كله لله تعالىٰ بكليته، وتقيمه بين يدي ربه مقبلًا بكليته عليه؛ يصلي لله تعالىٰ كأنه يراه، قد اجتمع همه كله علىٰ الله، وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ والله المستعان.

وهاهنا نكتة ينبغي التفطن لها؛ وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة فالعبادات والأذكار والتعوذات أدوية لتلك الأخلاط؛ كما يثير الدواءُ أخلاط البدن. فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حِمْية لم يزد الدواءُ علىٰ إثارته، وإن أزال منه شيئًا ما.

فمدار الأمر علىٰ شيئين: الحمية، واستعمال الأدوية.

وأول ما يطرق القلب الخطرة، فإن دفعها استراح مما بعدها، وإن لم

يدفعها قويت فصارت وسوسة، فكان دفعها أصعب.

- فإن بادر ودفعها، وإلا قويت وصارت شهوة.

- فإن عالجها، وإلا صارت إرادة.

- فإن عالجها، وإلا صارت عزيمة.

ومتىٰ وصلت إلىٰ هذه الحال لم يمكن دفعها، واقترن بها الفعل ولا بد، وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته.

وحينئذ ينتقل العلاج إلىٰ أقوىٰ الأدوية؛ وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح.

ولا ريب أنَّ دفع مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله -إن ساعد القدر، وأعان التوفيق- وأنَّ الدفع أولىٰ به.

وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم، الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه ألبتة؛ لا في قدره، ولا في بقائه.

- وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس.

- وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال علىٰ الله تعالىٰ، والتنعم بحبه وذكره وطاعته ولذة الإقبال علىٰ الرذائل والأنتان والقبائح.

- وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو، وبين لذة الذنب ولذة العفة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام

عدوه ورده خاسئًا ذليلًا، وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالىٰ وملائكته عليه، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالىٰ عاجلًا، وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته، والله المستعان. اهـ(١).

[لمة الملك ولمة الشيطان]

إذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب؛ فهذا يُلِمُّ به مرة، وهذا يلم به مرة.

فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح، والانشراح، والنور، والرحمة، والإخلاص، والإنابة، ومحبة الله، وإيثاره علىٰ ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور.

فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه؛ ولكن تأتيه لمة الشيطان فتحدث له من الضيق، والظلمة، والهم، والغم، والخوف، والسخط علىٰ المقدور، والشك في الحق، والحرص علىٰ الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله:

فمنهم من تكون لَمَّة المَلَك أغلب من لمة الشيطان وأقوىٰ، فإذا ألم به

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢/ ٣٠٠- ٣٠٥).



الشيطان وجد من الألم والضيق والحصر وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلىٰ طرد تلك اللمة، ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها، فهو دائمًا في حرب بين اللمتين؛ يُدَالُ له مرة، ويدال عليه مرة أخرىٰ، والعاقبة للتقوىٰ.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوىٰ؛ فلا تزال تغلب لمة الملك حتىٰ تستحكم ويصير الحكم لها، فيموت القلب ولا يُحِس ما ناله الشيطان به، مع أنه في غاية العذاب والضيق والحصر، ولكن سكر النشوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم.

فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحَسْمُه، وإن عاد الغطاءُ عاد الأمر كما كان حتىٰ ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهي لم تتجدد له، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامنًا، وتجدد له أضعافه. اهـ[١].

[كيف تأتي جيوش النصر للعبد؟]

أَلْقىٰ الله سُبْحَانَهُ الْعَدَاوَة بَين الشَّيْطَان وَبَين الْملك، والعداوة بَين الْعقل وَبَين الْهوىٰ، والعداوة بَين النَّفس الأمارة وَبَين الْقلب، وابتلىٰ العَبْد بذلك، وَجمع لَهُ بَين هَؤُلَاءِ، وأمدَّ كل حزب بِجُنُود وَأَعْوَان، فَلَا تزَال الْحَرْب سجالًا ودُولًا بَين الْفَرِيقَيْنِ، إِلَىٰ أَن يستولي أَحدهمَا علىٰ الآخر، وَيكون الآخر مقهورًا مَعَه.

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧).

فَإِذا كَانَت النوبَة للقلب وَالْعقل وَالْملك، فهنالك: السرُور، وَالنَّعِيم، واللذة، والبهجة، والفرح، وقُرة الْعين، وَطيب الْحَيَاة، وانشراح الصَّدْر، والفوز بالغنائم.

وَإِذا كَانَت النّوبَة للنَّفس والهوىٰ والشيطان فهنالك: الغموم، والهموم، وَالْأَحْزَان، وأنواع المكاره، وضيق الصَّدْر، وَحبس الْملك.

فَمَا ظَنُّك بِملكٍ استولىٰ عَلَيْهِ عدوه، فأنزله عَن سَرِير ملكه، وأسره وحبسه، وَحَال بَينه وَبَين خزائنه وذخائره وخدمه وصيَّرها لَهُ؛ وَمَعَ هَذَا فَلَا يَتَحَرَّك الْملك لطلب ثَأْره، وَلَا يستغيث بِمن يغيثه، وَلَا يستنجد بِمن ينجده. وَفَوق هَذَا الْملك ملكٌ قاهر لَا يُقهر، وغالب لَا يغلب، وعزيز لَا يُذل؛ فَأَرْسل إِلَيْهِ: إِن استنصرتني نصرتك، وَإِن استغثت بِي أغثتك، وَإِن التجأت إِلَيَّ أخذتُ بثأرك، وَإِن هربت إِلَيَّ وأويت إِلَيَّ سلَّطتك علىٰ عَدوك وَجَعَلته تَحت أسْرِك.

فَإِن قَالَ هَذَا الْملك المأسور: قد شَدَّ عدوي وثاقي، وَأحكم رباطي، واستوثق مني بالقيود، وَمَنَعَنِي من النهوض إِلَيْك والفرار إِلَيْك والمسير إِلَىٰ بابك؛ فَإِن أرْسلت جندًا من عنْدك يحلُّ وثاقي، ويفك قيودي ويخرجني من حَبسه أمكنني أَن أوافي بابك، وَإِلَّا لم يمكنني مُفَارقَة محبسي، وَلَا كسر قيودي.

فَإِن قَالَ ذَلِك احتجاجًا علىٰ ذَلِك السُّلْطَان، ودفعًا لرسالته، ورضا بِمَا هُوَ فِيهِ عِنْد عدوِّه خلاه السُّلْطَان الْأَعْظَم وحاله، وولاه مَا تولىٰ.

وَإِن قَالَ ذَلِك افتقارًا إِلَيْهِ، وإظهارا لعَجزه وذله، وَأَنه أَضْعَف وأعجز أَن



يسير إِلَيْهِ بنَفسِهِ، وَيخرج من حبس عدوه، ويخلص مِنْهُ بحوله وقوته، وَأَن من تَمام نعْمَته ذَلِك عَلَيْهِ -كَمَا أرسل إِلَيْهِ هَذِه الرسَالَة- أَن يمده من جنده ومماليكه بِمن يُعينهُ علىٰ الْخَلَاص، وَيكسر بَاب محبسه، ويفك قيوده. فَإِن فعل بِهِ ذَلِك فقد أتم إنعامه عَلَيْهِ، وإن تخلَّىٰ عَنهُ فَلم يَظْلمه وَلَا مَنعه حَقًّا هو له، وَأَنَّ حَمده وحكمته اقْتضيا مَنعه وتخليته فِي محبسه، وَلَا سِيمَا إِذا علم أَن الْحَبْس حَبسه، وَأَن هَذَا الْعَدو الَّذِي حَبسه مَمْلُوكٌ من مماليكه وَعبد من عبيده، ناصيته بِيَدِهِ، لَا يتَصَرَّف إِلَّا بِإِذْنِهِ ومشيئته؛ فَهُوَ غير ملتفت إِلَيْهِ وَلَا خَائِف مِنْهُ، وَلَا مُعْتَقد أَن لَهُ شيئًا من الْأَمر، وَلَا بِيَدِهِ نفع وَلَا ضرّ، بل هُوَ ناظر إِلَىٰ مَالِكه ومتولي أمره وَمن ناصيته بِيَدِهِ؛ قد أفرده بالخوف والرجاء والتضرُّع إِلَيْهِ والالتجاء وَالرَّغْبَة والرهبة؛ فهناك تَأتيه جيوش النَّصْر وَالظفر(١).

[إدراك الحياة الطيبة]

قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤] فتضمنت هَذِه الْآيَة أمورًا، أَحدهَا: أَن الْحَيَاة النافعة إِنَّمَا تحصل بالاستجابة لله وَرَسُوله؛ فَمن لم تحصل لَهُ هَذِه الاستجابة فَلَا حَيَاة لَهُ؛ وَإِن كَانَت لَهُ حَيَاة بهيمية مُشْتَركَة بَينه وَبَين أرذل الْحَيَوَانَات.

فالحياة الْحَقِيقِيَّة الطّيبَة: هِيَ حَيَاة من اسْتَجَابَ لله وَالرَّسُول ظَاهرًا وَبَاطنًا، فَهَؤُلَاءِ هم الْأَحْيَاء وَإِن مَاتُوا، وَغَيرهم أموات وَإِن كَانُوا أَحيَاء الْأَبدَان. وَلِهَذَا

---

(١) «الفوائد» (٩٢، ٩٣).

كَانَ أكملُ النَّاس حَيَاة أكملهم استجابة لدَعْوَة الرَّسُول؛ فَإِن كل مَا دَعَا إِلَيْهِ فَفِيهِ الْحَيَاة، فَمن فَاتَهُ جُزْء مِنْهُ فَاتَهُ جُزْء من الْحَيَاة، وَفِيه من الْحَيَاة بِحَسب مَا اسْتَجَابَ للرسول.

قَالَ مُجَاهِد: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يَعْنِي: للحق. وَقَالَ قَتَادَة: هُوَ هَذَا الْقُرْآن فِيهِ الْحَيَاة والثقة والنجاة والعصمة فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة. وَقَالَ السُّديُّ: هُوَ الْإِسْلَام أحياهم بعد مَوْتهمْ بالْكفْر. وَقَالَ ابْن إِسْحَاق وَعُرْوَة بن الزبير وَاللَّفْظ لَهُ: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يَعْنِي: للحرب الَّتِي أعزَّكم الله بهَا بعد الذل، وقوَّاكم بعد الضعْف، ومنعكم بهَا من عَدوكُمْ بعد الْقَهْر مِنْهُم لكم.

وَكل هذه عِبَارَات عَن حَقِيقَة وَاحِدَة؛ وَهِي الْقيام بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول ﷺ ظَاهرًا وَبَاطنًا.

قَالَ الواحدي: وَالْأَكْثَرُونَ علىٰ أَن معنىٰ قَوْله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ هُوَ الْجِهَاد، وَهُوَ قَول ابْن إِسْحَاق، وَاخْتِيَار أَكثر أهل الْمعَانِي.

قَالَ الْفراء: إذا دعَاكُمْ إِلَىٰ إحْيَاء أمركُم بجهاد عَدوكُمْ؛ يُرِيد: إِنَّمَا يُقَوي بِالْحَرْبِ وَالْجهَاد، فَلَو تركُوا لجهاد ضعُف أَمرهم واجترأ عَلَيْهِم عدوهم.

قلت: الْجِهَاد من أعظم مَا يحيهم بِهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي البرزخ وَفِي الْآخِرَة. أما فِي الدُّنْيَا فَإِن قوتهم وقهرهم لعدوهم بِالْجِهَادِ.

وَأما فِي البرزخ فقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩].



وَأمَّا فِي الْآخِرَة، فَإِن حَظَّ الْمُجَاهدين وَالشُّهَدَاء من حَيَاتهَا وَنَعِيمهَا أعظم من حَظ غَيرهم، وَلِهَذَا قَالَ ابْن قُتَيْبَة: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يَعْنِي: الشَّهَادَة.

وَقَالَ بعض الْمُفَسّرين: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يَعْنِي: الْجنَّة؛ فَإِنَّهَا دَار الْحَيَوَان، وفيهَا الْحَيَاة الدائمة الطّيبَة. حَكَاهُ أَبُو عَلي الْجِرْجَانِي.

وَالْآيَة تتَنَاوَل هَذَا كُله؛ فَإِن الْإِيمَان وَالْإِسْلَام وَالْقُرْآن وَالْجهَاد تحيي الْقُلُوب الْحَيَاة الطّيبَة، وَكَمَال الْحَيَاة فِي الْجنَّة، وَالرَّسُول دَاع إِلَىٰ الْإِيمَان وَإِلَىٰ الْجنَّة، فَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ الْحَيَاة فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

وَالْإِنْسَان مُضْطَر إِلَىٰ نَوْعَيْنِ من الْحَيَاة: حَيَاة بدنه الَّتِي بهَا يدْرك النافع والضار ويؤثر مَا يَنْفَعهُ علىٰ مَا يضرُّه، وَمَتىٰ نقصت فِيهِ هَذِه الْحَيَاة ناله من الْأَلَم والضعف بِحَسب ذَلِك، وَلذَلِك كَانَت حَيَاة الْمَرِيض والمحزون وَصَاحب الْهم وَالْغَم وَالْخَوْف والفقر والذل دون حَيَاة من هُوَ معافىٰ من ذَلِك.

وحياة قلبه وروحه الَّتِي بهَا يُمَيّز بَين الْحق وَالْبَاطِل، والغي والرشاد، والهوىٰ والضلال؛ فيختار الْحق علىٰ ضِدِّه؛ فتفيده هَذِه الْحَيَاة قُوَّة التميز بَين النافع والضار فِي الْعُلُوم والإرادات والأعمال، وتفيد قُوَّة الْإِيمَان والإرادة وَالْحب للحق، وَقُوَّة البغض وَالْكَرَاهَة للباطل، فشعوره وتمييزه وحبه ونَفْرَتُه بِحَسب نَصِيبه من هَذِه الْحَيَاة، كَمَا أَن الْبدن الْحَيّ يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، وَيكون ميله إِلَىٰ النافع ونفرته عَن المؤلم أعظم.

فَهَذَا بِحَسب حَيَاة الْبدن، وَذَاكَ بِحِسَاب حَيَاة الْقلب، فَإِذا بطلت حَيَاته

بَطل تَمْيِيزه، وَإِن كَانَ لَهُ نوع تَمْيِيز لم يكن فِيهِ قُوَّة يُؤثر بهَا النافع علىٰ الضار، كَمَا أَن الْإِنْسَان لَا حَيَاة لَهُ حَتَّىٰ ينْفخ فِيهِ الْملك، الَّذِي هُوَ رَسُول الله من روحه، فَيصير حَيًّا بذلك النفخ، وكَانَ قبل ذَلِك من جملَة الْأَمْوَات. اهـ[1].

[لا تنشغل بما ضُمِنَ لك!]

فَرِّغْ خاطرك للهمِّ بما أُمرت به، ولا تشغله بما ضُمِن لك؛ فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا، وإذا سدَّ عليك بحكمته طريقًا من طرقه فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه.

فتأمَّلْ حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق، فتح له طريقين اثنين، وأجرىٰ له فيهما رزقًا أطيب وألذ من الأول: لبنًا خالصًا سائغًا، فإذا تمَّت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام، فتح طرقًا أربعة أكمل منها: طعامان وشرابان؛ فالطعامان من الحيوان والنبات، والشرابان من المياه والألبان، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة؛ لكنه سبحانه فتح له -إن كان سعيدًا- طرقًا ثمانية، وهي أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء.

فهكذا الرب سبحانه؛ لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له. وليس ذلك لغير المؤمن؛ فإنه يمنعه الحظ الأدنىٰ الخسيس

(١) «الفوائد» (١٣٢- ١٣٤).



ولا يرضىٰ له به ليعطيه الحظ الأعلىٰ النفيس.

والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما مُنع منه وبين ما ذُخر له؛ بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا. ولو أنصف العبدُ ربَّه -وأنَّىٰ له بذلك؟!- لَعَلِمَ أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك؛ فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلىٰ هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه، فـ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾ [الإسراء: ٩٩]، والله المستعان. اهـ[(١)].

[علاج الهمِّ والغمِّ والحزن]

في «المسند» و«صحيح أبي حاتم»، من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي؛ إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله**

---

(١) «الفوائد» (٨٧، ٨٨).

مكانه فرحًا»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهن؟ قال: «**بلىٰ، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ**»(١).

فتضمن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة، والتوحيد، والعبودية.

منها: أن الداعي به صدّر سؤاله بقوله: «**إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك**»، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلىٰ أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملُّق له واستخذاء بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه، وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلَّىٰ عنه هلك ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة.

فَتَحْتَ هذا الاعتراف: إني لا غنىٰ بي عنك طرفة عين، وليس لي مَن أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده، وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه؛ فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار.

وأما العبيد فتصرفهم علىٰ محض العبودية، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومَن عداهم عبيد القهر والربوبية؛ فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلىٰ ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]..

(١) رواه أحمد بنحوه (١/ ٣٩١).

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

وفي التحقيق بمعنىٰ قوله: «**إني عبدك**» التزام عبوديته من الذل، والخضوع، والإنابة، وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وألا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفًا ورجاءً.

وفيه أيضًا: إني عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافىٰ ومبتلىٰ، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: إن مالي ونفسي مُلكٌ لك؛ فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضًا: إنك أنت الذي مننت عليَّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك علىٰ عبدك.

وفيه أيضًا: إني لا أتصرف فيما خوَّلتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فإن صحَّ له شهود ذلك، فقد قال: «**إني عبدك**» حقيقة.

ثم قال: «**ناصيتي بيدك**» أي أنت المتصرف فيَّ تصرفني كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي. وكيف يكون له في نفسه تصرف مَن نفسُه بيد ربه وسيده، وناصيته بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته

وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه، ليس إلىٰ العبد منه شيء، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك.

ومتىٰ شَهِدَ العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها، بيد الله وحده، يصرفهم كيف يشاء لم يَخَفْهم بعد ذلك، ولم يَرْجُهم، ولم يُنزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدبر لهم غيرهم.

فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقرُه وضرورته إلىٰ ربه وصفًا لازمًا له، ومتىٰ شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته، ولذا قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

وقوله: «ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك»، تضمَّن هذا الكلام أمرين:

أحدهما: مضاءُ حكمه في عبده.

والثاني: يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنىٰ قول نبيه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ أي: مع كونه مالكًا قاهرًا، متصرفًا في عباده، نواصيهم بيده، فهو علىٰ صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم؛ فهو علىٰ صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، فخبره كله

صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهىٰ عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله، ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفرَّق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء؛ فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري. والنوعان نافذان في العبد، ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين، قد مضيا فيه، ونفذا فيه شاء أم أَبَىٰ، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأمَّا الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال -وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه- قال: «**عدل في قضاؤك**» أي: الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه، وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه، فإن كان حكما دينيًّا فهو ماض في العبد، وإن كان كونيًّا؛ فإن نفذه سبحانه مضىٰ فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه، فهو سبحانه يقضي ما يقضي به، وغيره قد يقضي بقضاء، ويقدر أمرًا، ولا يستطيع تنفيذه، وهو سبحانه يقضي ويُمضي، فله القضاء والإمضاء.

وقوله: «عدل في قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه: من صحة، وسقم، وغنىٰ، وفقر، ولذة، وألم، وحياة، وموت، وعقوبة، وتجاوز وغير ذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].. وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ

كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ [الشورىٰ: ٤٨].. فكل ما يقضي علىٰ العبد فهو عدل فيه...

وقوله: «**أسألك بكل اسم**» إلىٰ آخره: توسل إليه بأسمائه كلها -ما علم العبد منها وما لم يعلم- وهذه أحب الوسائل إليه؛ فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري**»؛ الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبّه القرآن به لحياة القلوب به، وكذلك شبهه الله بالنور، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧]، وفي قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وفي قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] الآيات، ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ [النور: ٤٣] الآية.

فتضمن الدعاء أن يُحيي قلبه بربيع القرآن، وأن ينوِّر به صدره؛ فتجتمع له الحياة والنور؛ قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسع من القلب، كان النور الحاصل له يسري منه إلىٰ القلب؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه.

ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب -تسري الحياة منه إلىٰ الصدر ثم إلىٰ الجوارح- سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها.

ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن؛ فإنها أحرىٰ ألا تعود، أما إذا ذهبت بغير القرآن من: صحة أو دنيا، أو جاه، أو زوجة، أو ولد، فإنها تعود بذهاب ذلك.

والمكروه الوارد علىٰ القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم.. والله أعلم. اهـ[(١)].

[علامات تعظيم المناهي]

[من] **علامات تعظيم المناهي**: الحرص علىٰ التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها؛ كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها.

- وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

- وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروه.

- ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو اليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها؛ فإن مخالطة مثل هذا داعية إلىٰ سخط الله تعالىٰ وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالىٰ وحرماته.

---

(١) «الفوائد» (٤٢ - ٤٨).

- ومن علامات تعظيم النهي أن يغضب لله ﷻ إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصي الله تعالىٰ في أرضه، ولم يضطلع باقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

- ومن علامات تعظيم الأمر والنهي ألا يسترسل مع الرخصة إلىٰ حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم علىٰ المنهج الوسط؛ مثال ذلك أن السُّنة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يبرد إلىٰ فوات الوقت أو مقاربة خروجه فيكون مترخصًا جافيًا، وحكمة هذه الرخصة أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر، فمن حكمة الشارع ﷺ أن أمرهم بتأخيرها حتىٰ ينكسر الحر فيصلي العبد بقلب حاضر، ويحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال علىٰ الله تعالىٰ. ومن هذا: نهيه ﷺ أن يصلي بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط؛ لتعلق قلبه من ذلك بما يشوش عليه مقصود الصلاة ولا يحصل المراد منها، فمن فقه الرجل في عبادته أن يقبل علىٰ شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالىٰ ونصب وجهه له وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي بهما ما تقدم من ذنبه... وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغاليًا فيه حتىٰ يفوت الوقت، أو يردد تكبيرة الأحرام إلىٰ أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدد في الورع الغالي حتىٰ لا يأكل شيئًا من طعام عامة المسلمين خشية دخول الشبهات عليه...

- ومن علامات تعظيم الأمر والنهي ألا يحمل الأمر علىٰ علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله ﷻ، بل يسلم لأمر الله تعالىٰ وحكمه ممتثلًا ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر. اهـ[١].

[مصارف قوى القلب]

فما ابتُلي القلب بصفة من الصفات إلا وجعل لها الله مصرفا ومحلًا ينفذها فيه.

- فجعل لقوة الحسد فيه مصرفًا، وهو المنافسة في فعل الخير، والغبطة عليه، والمسابقة إليه.

- ولقوة الكبر مصرفًا، وهو التكبر علىٰ أعداء الله تعالىٰ وإهانتهم.

وقد قال النبي ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين في الحرب: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»[٢]، وقد أمر الله سبحانه بالغلظة علىٰ أعدائه.

- وجعل لقوة الحرص مصرفًا، وهو الحرص علىٰ ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك**»[٣]، ولقوة الشهوة مصرفًا؛ وهو التزوج بأربع والتسرِّي بما شاء.

---

(١) «الوابل الصيب» (٢٤- ٢٧).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٠٤) (ح٦٥٠٨)، وابن إسحاق في «السيرة» (ص٣٠٥)، رقم (٥٠٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب (القدر)، باب (في الأمر بالقوة)، (ح٢٦٦٤).

- ولقوة حب المال مصرفًا، وهو إنفاقه في مرضاته تعالىٰ، والتزود منه لمعاده، فمحبة المال علىٰ هذا الوجه لا تذم.

- ولمحبة الجاه مصرفًا؛ وهو استعماله في تنفيذ أوامره، وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحبة الرياسة والجاه علىٰ هذا الوجه عبادة.

- وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا؛ وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه، وكل ما أعان علىٰ الحق.

- وجعل القوة التحيل والمكر فيه مصرفًا؛ وهو التحيل علىٰ عدوه وعدو الله تعالىٰ بأنواع التحيل، حتىٰ يراغمه ويرده خاسئًا، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه.

وهكذا جميع القوىٰ التي رُكِّبت فيه جعل لها مصرفًا، وقد ركَّبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته، ولا يطلب تعطيلها، وإنما تصرف مجاريها من محل إلىٰ محل، ومن موضع إلىٰ موضع.

ومن تأمل هذا الموضع وتفقَّه فيه، علم شدة الحاجة إليه وعظم الانتفاع به. اهـ[1].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢/ ٢٩٤- ٢٩٦).

[حيُّ القلب]

قال تعالىٰ في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت؛ فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرىٰ في حقه.

الثاني: رجل له قلب حَيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها؛ فهو غائب القلب، ليس حاضرًا. فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرىٰ مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغىٰ بسمعه، وألقىٰ السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملق السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمىٰ الذي لا يُبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلىٰ غير جهة المنظور إليه.

فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلىٰ جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله علىٰ توسط من البعد والقرب؛ فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور!

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم علىٰ ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنىٰ الواو، كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلمْ أن الرجل قد يكون له قلب وَقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم؛ فهذا قلبه يوقعه علىٰ التذكر والاعتبار؛ فإذا سمع الآيات كانت له نورًا علىٰ نور، وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة، حتىٰ كأن الذي أخبرهم به الرسول ﷺ مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتىٰ قيل: إن مثل حال الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا دارًا فرأىٰ أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده علىٰ ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أن فيها أمورًا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا، فسأله عما رأىٰ في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه؛ لما عنده من شواهده، وهذه أعلىٰ درجات الصديقية، ولا تستبعد أن يمنَّ الله المنان علىٰ عبد بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نورًا إلىٰ نوره؛ فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقىٰ السمع وشهد قلبه ولم

يغب حصل له التذكر أيضًا: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما، حتىٰ إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦] فكل مؤمن يرىٰ هذا، ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر. اهـ[1].

[مما ينقص الأجر مع كثرة العمل]

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة؛ فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء، أو همة إلىٰ عمل لم ترْقَ بصاحبها إلىٰ ملاحظة المقصود، أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنَّة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه، أو عمل لم يوفه حقه من النصح والإحسان وهو يظن أنه وفاه، فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب.. والله الموفق. اهـ[2].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).

(٢) «الفوائد» (٢٤٧).

[الخطرات مبدأ الخير والشر]

الخطراتُ مبدأُ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم؛ فمن راعىٰ خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب. ومن استهان بالخطرات قادته قسرًا إلىٰ الهلكات. ولا تزال الخطرات تتردد علىٰ القلب حتىٰ تصير مُنًىٰ باطلة: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]. وأخس الناس همة، وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلىٰ بها، وهي -لعمر الله- رءوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال؛ كما قال الشاعر:

أماني من سُعدىٰ رواء علىٰ الظمأ — سقتنا بها سُعدىٰ علىٰ ظمأ بردا

منىٰ إن تكن أحسن المنىٰ — وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

وهي أضر شيء علىٰ الإنسان، وتتولد منها العجز والكسل، ويتولد التفريط والحسرة والندم. والمتمني لمَّا فاته مباشرة الحقيقة بجسمها حل صورتها في قلبه، وعانقها، وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صوَّرها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب. والسكون إلىٰ ذلك



واستجلابه يدل علىٰ خساسة النفس ووضاعتها، وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها بأن ينفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضىٰ أن يخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطرات بعدُ أقسام تدور علىٰ أربعة أصول: خطرات يستجلب بها منافع دنياه، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدَّم الأهم الذي يخشىٰ فوته، وأخَّر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران: أحدهما: مهم لا يفوت، والثاني: غير مهم، ولكنه يفوت؛ ففي كل منهما ما يدعو إلىٰ تقديمه، فهنا يقع التردد والحيرة، فإن قدَّم المهم خشي فوات ما دونه، وإن قدَّم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم. وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر، فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن هاهنا ارتفع من ارتفع، وأنجح من أنجح، وخاب من خاب. وأكثر من ترىٰ ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لا يفوت علىٰ المهم الذي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلم من ذلك، ولكن مستقل ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرىٰ التي عليها مدار الشرع والقدر، وإليها مرجع الخلق والأمر، وهي: إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنىٰ المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها، فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها.

فخطرات العاقل وفكره لا تتجاوز ذلك، وبذلك جاءت الشرائع، ومصالح الدنيا والآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها، وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالىٰ، لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة. قال بعض السلف: أنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة، والاعتبار بها، والاستدلال بها علىٰ أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبره وجوده، وقد حض الله سبحانه عباده علىٰ التفكير في آياته وتدبرها وتعقلها، وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه، وإحسانه، وإنعامه علىٰ خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله، ومحبته، وخوفه، ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة، ومتىٰ

كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت، وصار الحكم لها، فحييَ القلبُ، ودارت كلمتُه في مملكته، وبَثَّ أُمراءَه وجنودَه في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه؛ فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدًا.

قال الشافعي رضي الله عنه: «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوىٰ حرفين: أحدهما قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك»، وذكر الكلمة الأخرىٰ: «ونفسك إن لم تشغلها بالحق، وإلا شغلتك بالباطل»، فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته، وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته.

وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فإما وساوس شيطانية، وإما أماني باطلة وخدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارىٰ والمحشوشين والموسوسين، ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كـان منزلتـي في الحشـر عندكم ... مـا قـد لقيـت، فقـد ضـيعت أيـامي
أمنيــةٌ ظفـرت نفســي بهــا زمنًــا ... واليــوم أحســبها أضــغاث أحــلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته؛ فالخاطر كالمار على الطريق، فإن تركته مر وانصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره؛ وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمارة، ونفسًا مطمئنة، وهما متعاديتان؛ فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما تلذذت به هذه تألمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله، وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله، وما جاء به داعي الهوى، وليس عليها شيء أضر منه. والمَلَك مع هذه عن يمنة القلب، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن تستوفي أجله من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة، والحق كله يتحيز مع المَلَك والمطمئنة، والحروب دُوُلٌ وسِجَالٌ، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله تعالى حكمًا لا يبدل أبدًا: أن العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين.

فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب، وغرور، وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له، فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش، وإذا أراد أن ينقش



ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه. فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة؛ فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوىٰ فصادف قلبًا خاليًا فتمكَّنا

وهذا كثير من أرباب السلوك: بنوا سلوكهم علىٰ حفظ الخواطر، وألا يمكنوا خاطرًا يدخل قلوبهم، حتىٰ تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها، وهؤلاء حفظوا شيئًا، وغابت عنهم أشياء؛ فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر، فبقيت فارغة لا شيء فيها، فصادفها الشيطان خالية، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلىٰ الأشياء وأشرفها، وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدىٰ، وإذا خلا القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليًا، فشغله بما يناسب حال صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية، فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية علىٰ قلبه؛ وهي إرادة مراد الله الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته علىٰ التفصيل به، والقيام به وتنفيذه في الخلق، والتطرق إلىٰ ذلك، والتوصل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلىٰ تركه وتعطيله، من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها، وأوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ؛ وهيهات هيهات إنما الكمال في امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالىٰ من العبد ومن

الناس، والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الرب تعالىٰ، فربما استعملها في صلاته، وكان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة.

وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة. وهو باب عزيز شريف لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب، متضلع من العلم، عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. اهـ[1].

[انتبه لخواطرك]

مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلىٰ الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها؛ فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة علىٰ مرضاته ومحابه؛ فإنه سبحانه به كلُّ صلاح، ومن عنده كل هدىٰ، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء.

(١) «الداء والدواء» (٢٢٨- ٢٣٣).



فيظفر العبد بكل خير وهدىٰ ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده، وطرق معرفته، وطرق عبوديته، وإنزاله إياه حاضرًا معه، مشاهدًا له، ناظرًا إليه، رقيبًا عليه، مُطَّلعًا علىٰ خواطره وإرادته وهمه، فحينئذ يستحي منه، ويجله أن يُطلعه منه علىٰ عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله، أو يرىٰ في نفسه خاطرًا يمقته عليه.

فمتىٰ أنزل ربَّه هذه المنزلة منه رفعه وقرَّبه منه، وأكرمه واجتباه وولاه؛ وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة. كما أنه كلما بَعُدَ منه وأعرض عنه قَرُب من الأوساخ والدناءات والأقذار، ويُقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص.

فالإنسان خيرُ المخلوقات إذا تقرَّب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره علىٰ هواه، وشر المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته.

فمتىٰ اختار التقرب إليه، وآثره علىٰ نفسه وهواه، فقد حَكَّم قلبه وعقله وإيمانه علىٰ نفسه وشيطانه، وحَكَّم رشده علىٰ غيِّه، وهداه علىٰ هواه. ومتىٰ اختار التباعد منه فقد حَكَّم نفسه وهواه وشيطانه علىٰ عقله وقلبه ورشده.

واعلم أن الخاطرات والوساوس تؤدِّي متعلقاتها إلىٰ الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلىٰ التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلىٰ الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلىٰ الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهل

من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يُعْطَ الإنسان إماتة الخواطر ولا القوة علىٰ قطعها؛ فإنها تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه علىٰ قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلىٰ دفع أقبحها وكراهته له ونَفْرته منه؛ كما قال الصحابة: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتىٰ يصير حممة أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: «**أَوَقَدْ وَجدتموه؟**»، قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»(١)، وفي لفظ: «**الحمد لله الذي ردَّ كيده إلىٰ الوسوسة**»(٢)، وفيه قولان:

أحدهما: أن رده وكراهيته صريح الإيمان.

والثاني: أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان؛ فإنه إنما ألقاه في النفس طلبًا لمعارضة الإيمان وإزالته به.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحىٰ الدائرة التي لا تسكن ولا بدَّ لها من شيء تطحنه، فإن وُضع فيها حب طحنته، وإن وُضع فيها تراب أو حصىٰ طحنته. فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحىٰ، ولا تبقىٰ تلك الرحىٰ معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها؛ فمن الناس من تطحن رحاه حبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الإيمان)، باب (٦٠) بيان الوسوسة في الإيمان...)، (ح١٣٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب (الأدب)، باب (١١٨) (في رد الوسوسة)، (ح٥١١٢)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٣٥).

يطحن رملًا وحصىٰ وتبنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه.

فإذا دَفعتَ الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرًا جوالًا، فاستخدم الإرادة، فتساعدت هي والفكر علىٰ استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلىٰ القلب بالتمني والشهوة وتوجهه إلىٰ جهة المراد.

ومن المعلوم: أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك؛ فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومَن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه. فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بُعدك عنه وسخطه عليك. ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك.

وإياك أن تمكِّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يفسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنْتَه علىٰ نفسك بتمكينه من قلبك

وخواطرك فملكها عليك؛ فمثالك معه مثال صاحب رحىٰ يطحن فيها جيد الحبوب، فأتاه شخص معه حِمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونه، فإن طرده ولم يمكنه من إلقاء ما معه في الطاحون استمر علىٰ طحن ما ينفعه، وإنْ مكَّنه في إلقاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطحين كله فاسدًا.

والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان علىٰ خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أو فيما يَملك الفِكْر فيه من أنواع الفواحش والحرام، أو في خيالات وهمية لا حقيقة لها، أو في باطل، أو فيما لا سبيل إلىٰ إدراكه من أنواع ما طُوي عنه علمه، فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية، ولا يقف منها علىٰ نهاية، فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه.

وجماع إصلاح ذلك: أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلىٰ الدخول إلىٰ الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعُزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته وطرح إرادة ما يضرك إرادته.

وعند العارفين أنَّ تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضر علىٰ القلب من نفس الخيانة، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها؛ فإن تمنيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده.



وأنت تجد في الشاهد أن الملك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخدمه مَن هو مُتَمن لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلئ منها، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله، فإذا اطلع علىٰ سره وقَصْده مقته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جنىٰ بعض الجنايات وقلبُه وسره مع الملك غير منطوٍ علىٰ تمني الخيانة ومحبتها والحرص عليها، فالأول يتركها عجزًا واشتغالًا بما هو فيه وقلبه ممتلئ بها، والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها، فهذا أحسن حالًا وأسلم عاقبة من الأول.

وبالجملة: فالقلب لا يخلو قط من الفكر؛ إما في واجب آخرته ومصالحها، وإما في مصالح دنياه ومعاشه، وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة.

وقد تقدَّم أن النفس مثلها كمثل رحىٰ تدور بما يُلْقىٰ فيها؛ فإن ألقيت فيها حَبًّا دارت به، وإن ألقيت فيها زجاجًا وحصىٰ وبعرًا دارت به، والله سبحانه هو قيِّم تلك الرحىٰ ومالكها ومصرفها، وقد أقام لها ملكًا يُلقي فيها ما ينفعها فتدور به، وشيطانًا يُلقي فيها ما يضرها فتدور به، فالملك يُلمُّ بها مرة، والشيطان يُلم بها مرة؛ فالحَبُّ الذي يلقيه الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، والحب الذي يلقيه الشيطان إيعادٌ بالشر وتكذيب بالوعد. والطحين علىٰ قدر الحَب وصاحب الحَب المضر لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجد الرحىٰ فارغة من الحب، وقَيِّمها قد أهملها، وأعرض عنها، فحينئذ يبادر إلىٰ إلقاء ما معه فيها.

وبالجملة: فقيِّم الرحىٰ إذا تخلىٰ عنها وعن إصلاحها، وإلقاء الحب النافع

فيها؛ وجد العدو السبيل إلىٰ إفسادها وإرادتها بما معه. وأصل صلاح هذه الرحىٰ بالاشتغال بما يعنيك، وفسادها كله في الاشتغال بما لا يعنيك، وما أحسن ما قال بعض العقلاء: لما وجدتُ أنواع الذخائر منصوبة غرضًا للمتالف، ورأيت الزوال حاكمًا عليها مدركًا لها، انصرفت عن جميعها إلىٰ ما لا يُنازِع فيه ذو الحجا أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر، والله المستعان. اهـ[1].

[قرين النفس المطمئنة وقرين النفس الأمَّارة]

أمد الله سبحانه النفس المطمئنة بجنود عديدة: فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها، ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه، ويريها قبح صورته.

وأمدها بما علَّمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق بنيانها، ويصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله؛ ازداد مددها فتقوىٰ علىٰ محاربة الأمارة.

فمِن جندها -وهو سلطان عساكرها ومَلِكُها- الإيمان واليقين؛ فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه: إن ثبت ثبتت، وإن انهزم ولت علىٰ أدبارها، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح علىٰ اختلاف أنواعها؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع

---

(١) «الفوائد» (٢٤٩ - ٢٥٣).



الإحسان، وشعبه الباطنة المتعلقة بالقلب؛ كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة، وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله، وتعظيم أوامر الله وحقوقه، والغيرة لله وفي الله، والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة، وملاك ذلك كله: الإخلاص والصدق، فلا يتعب الصادق المخلص؛ فقد أقيم علىٰ الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد، ولا يتعب إلا من حرم الصدق والإخلاص، فقد قُطِعت عليه الطريق واستهوته الشياطين في الأرض حيران، وإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك، فلا يزيده عمله من الله إلا بعدًا. وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة.

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها؛ فهو يعدها ويمنيها، ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء، ويزينه لها ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يُدخل عليها كل مكروه. فما استعان علىٰ النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه، وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس، فلا يستعينون علىٰ الصور الممنوعة منهم بشيء أبلغ من هواهم وإرادتهم، فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه، ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا تلك الصورة، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوىٰ دخلوا منه فجاسوا خلال الديار، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا، وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها؛ فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة، وخرَّبوا المساجد وعمَّروا البيع

والكنائس والحانات والمواخير، وقصدوا إلىٰ الملك فأسروا وسلبوه ملكه، ونقلوه من عبادة الرحمن إلىٰ عبادة البغايا والأوثان، ومن عز الطاعة إلىٰ ذُل المعصية، ومن السماع الرحماني إلىٰ السماع الشيطاني. ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلىٰ الاستعداد للقاء إخوان الشياطين، فبينا هو يراعي حقوق الله وما أمره به، إذ صار يرعىٰ الخنازير، وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصبًا لخدمة كل شيطان رجيم.

والمقصود: أن المَلَك قرين النفس المطمئنة، والشيطان قرين الأمارة.

وقد روىٰ أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبد الله قال: قال رسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق؛ وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾** [البقرة: ٢٦٨]»، رواه الترمذي والنسائي وغيرهما[١].

وقد رواه عمرو، عن عطاء بن السائب، وزاد فيه عمرو قال: «سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال: إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئًا؛ فليحمد الله وليسأله من فضله، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا؛ فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان»[٢].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب (تفسير القرآن)، باب (من سورة البقرة)، (ح ٢٩٩١).
(٢) «الروح» (٢٧١، ٢٧٢).



[أوجه عداوة النفس الأمَّارة للنفس المطمئنة]

انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتىٰ تفسده عليها، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق، وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه، ولا ترضىٰ حتىٰ تقدم محبة غيره وخوفه ورجاءه علىٰ محبته سبحانه وخوفه ورجائه، فيكون ما له عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم، وهذا حال أكثر هذا الخلق.

وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول، جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم علىٰ الوحي، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكيم السُّنة، وعدم الالتفات إلىٰ آراء الرجال، فتقوم الحرب بين هاتين النفسين، والمنصور من نصره الله.

وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة، جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها في عدة قوالب، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق، والله يعلم أنها كاذبة، وما مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلىٰ قضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها، ولعمر الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلىٰ سجن الهوىٰ والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته، فهي مسجونة في هذا العالم، وفي

البرزخ في أضيق منه، ويوم المعاد الثاني في أضيق منهما.

ومن أعجب أمرها: أنها تسحر العقل والقلب فتأتي إلىٰ أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها، فتخرجه في صورة مذمومة، وأكثر الخلق صبيان العقول، أطفال الأحلام، لم يصلوا إلىٰ حد الفطام الأول من العوائد والمألوفات، فضلًا عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيجتنبه، فتريه صورة تجريد التوحيد التي هي أبهىٰ من صورة الشمس والقمر في صورة التنقيص المذموم، وهضم العظماء منازلهم وحطهم منها إلىٰ مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض، الذي لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة، إلا من بعد إذن الله، فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم، ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء، فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

- وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه علىٰ آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله، وإن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلىٰ إساءة الظن بهم، وأنهم قد فاتهم الصواب، وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظىٰ بالصواب دونهم. فتنفر من ذلك أشد النفار، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع، وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض علىٰ أقوالهم، فما وافقها قبلناه، وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه، وتُقْسِم النفس السحارة بالله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا

وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء: ٦٢، ٦٣].

- وتريه صورة الإخلاص في صورة ينفر منها؛ وهو الخروج عن حكم العقل المعيشي والمداراة والمداهنة التي بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس، فمتىٰ أخلص أعماله ولم يعمل لأحدٍ شيئًا تجنبوهم وتجنبوه، وأبغضهم وأبغضوه، وعاداهم وعادوه، وسار علىٰ جادة وهم علىٰ جادة، فينفر من ذلك أشد النفار، وغايته أن يخلص في القدر اليسير من أعماله التي لا تتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله.

- وتريه صورة للصدق مع الله، وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق، وأنه يصير غرضًا لسهام الطاعنين، وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها.

- وتريه حقيقة الجهاد في صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير الأولاد يتامىٰ ويقسم المال.

- وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه، واحتياجه إلىٰ الناس، ومساواته للفقير وعوده بمنزلته.

- وتريه حقيقة إثبات صفات الكمال لله في صورة التشبيه والتمثيل، فينفر من التصديق بها ويُنفِّر غيره.

- وتريه حقيقة التعطيل والإلحاد فيها في صورة التنزيه والتعظيم.

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس علىٰ العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر؛ فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر علىٰ الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة، فيتباين الفعلان في البطلان، ويشتبهان في الظاهر. اهـ(١).

[تحقيق كلمة التوحيد]

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة، وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله علىٰ جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلىٰ الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلىٰ شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر عن دار الإيمان، وتميزت دار

(١) «الروح» (٢٧٣- ٢٧٥).



النعيم عن دار الشقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرض والسُّنة، و«من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»(١).

وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب -جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جده، ولا إله غيره- بالمحبة والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من: التوكل والإنابة والرغبة والرهبة؛ فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعًا لمحبته، وكونه وسيلة إلىٰ زيادة محبته، ولا يخاف سواه ولا يرجىٰ سواه، ولا ينذر إلا له، ولا يتاب إلا إليه، ولا يطاع إلا أمره، ولا يتحسب إلا به، ولا يستغاث في الشدائد إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه؛ ويجتمع ذلك في حرف واحد، وهو ألا يُعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة؛ فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم علىٰ النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾ [المعارج: ٣٣]، فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه، في قلبه وقالبه؛ فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلىٰ القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن؛ فروح ميتة، وروح مريضة إلىٰ الموت أقرب، وروح إلىٰ الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن. وفي

---

(١) رواه أبو داود، كتاب (الجنائز)، باب (٢٠) (في التلقين)، (ح ٣١١٦)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٣).

الحديث الصحيح عنه ﷺ: **«إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت رُوحه لها رَوْحًا»**(١).

فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات علىٰ هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمَن عاش علىٰ تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوىٰ، وعيشه أطيب عيش؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فالجنة مأواه يوم اللقاء! وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح به والرضىٰ به وعنه مأوىٰ روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد؛ ومن حرم هذه الجنة، فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإنِ اتسعت عليهم الدنيا؛ قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وطيب الحياة جنة الدنيا؛ وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمرُّ من ضيق الصدر؟ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) رواه أحمد: ١/ ٢٨، وابن ماجه بنحوه، كتاب (الأدب)، باب (٥٤) (فضل لا إله إلا الله)، (ح٣٧٩٥).



ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]، فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

قال النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلق الذِّكر»[١].

ومن هذا قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[٢].

ومن هذا قوله -وقد سألوه عن وصاله في الصوم-: «إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»[٣]، فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به، لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه، وينوب منابه، ويغني عنه، كما قيل:

لها أحاديثُ مِن ذكراك تَشْغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزَّاد
لها بوجهك نور تستضيء به ... ومِن حديثك في أعقابها حادي
إذا شَكتْ من كلال السير أوْعَدَها ... روح اللقاء فتحيا عند ميعاد

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج، كان تألمه بفقده أشد، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق

---

(١) رواه أحمد: ٣/ ١٥٠، والترمذي، كتاب (الدعوات)، باب (٨٧) (أسماء الله الحسنىٰ)، (ح ٣٥٠٥).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري، (ح ١١٩٥، ١١٩٦)، ومسلم (ح ١٣٩٠).
(٣) رواه بنحوه مسلم، كتاب (الصيام)، باب (١١) (النهي عن الوصال في الصوم)، (ح ١١٠٤).

أنفع للعبد من إقباله علىٰ الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته؛ بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له، وأشده عليه، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوت بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوت وحسرته، حتىٰ إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر، وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف علىٰ مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلىٰ الله؛ بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة؛ فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له؛ فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها، فلو قضىٰ الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته، وهذا لو كان الألم علىٰ مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب علىٰ الروح والبدن بأمور أخرىٰ وجودية ما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي!

فاعرض الآن علىٰ نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطب لك الحياة إلا معه، فأصبحت وقد أخذ منك، وحيل بينك وبينه، أحوج ما كنت إليه،



كيف يكون حالك؟ هذا، ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

وفي أثر إلهي: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». اهـ[(١)].

[التوحيد ملجأ أعداء الله وأوليائه]

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه:

فأما أعداؤه؛ فينجيهم من كُرب الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها؛ ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عُذِّب به المشركون في الدنيا وما أُعِد لهم في الآخرة.

ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يُقبَل.. هذه سُنة الله في عباده.

فما دُفِعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله كربه بالتوحيد، فلا يُلقي في

---

(١) «الداء والدواء» (٢٨٩- ٢٩٣).

الكُرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد؛ فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها.. وبالله التوفيق. اهـ[1].

[عظم الشهادة أيام الصحة]

لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلَّتْ بعد عزها، وخرج منها حرصا علىٰ الدنيا وفضولها، واستخذتْ بين يَدَيْ ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرجىٰ ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه؛ فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها علىٰ من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه؛ فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوىٰ سرُّه وعلانيته فقال: لا إله إلا الله، مخلصًا من قلبه. وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلىٰ ما سواه، وقد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم علىٰ ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله؛ فطهرته من ذنوبه، وأدخلته علىٰ ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها

---

(١) «الفوائد» (٨٢).

باطنها وسرها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة علىٰ هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلىٰ الله من الناس، وأنس به دون ما سواه؛ لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحُب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلىٰ غير الله، فلو تجردتْ كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر، وعيش آخر سوىٰ عيشها البهيمي.. والله المستعان. اهـ[١].

[شهادة التوحيد وثمارها]

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، فشبه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع.

وهذا ظاهر علىٰ قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة؛ فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كلمة طيبة):

---

(١) «الفوائد» (٨٦، ٨٧).

شهادة أن لا إله إلا الله، (كشجرة طيبة): وهو المؤمن، (أصلها ثابت): قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، (وفرعها في السماء)، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلىٰ السماء. وقال الربيع بن أنس: (كلمة طيبة) هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعه في السماء: خشية الله.

والتشبيه علىٰ هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه سبحانه شبَّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلىٰ السماء.

لا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها؛ فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفىٰ تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوىٰ الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوىٰ معبوده الحق بدلًا؛ فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب علىٰ هذا اللسان لا تزال تؤتي



ثمرها من العمل الصالح الصاعد إلىٰ الرب تعالىٰ، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلىٰ الرب تعالىٰ، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالحُ الكلم الطيب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة؛ ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾

قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلىٰ الله.

وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٌ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤﴾ قال: ذلك المؤمن؛ ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له، ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٌ﴾ قال: أصل عمله ثابت في الأرض، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤﴾ قال: ذكره في السماء. ولا اختلاف بين القولين. اهـ[1].

[شعاع لا إله إلا الله وضباب الذنوب]

اعلمْ أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه؛ فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور -قوة وضعفًا- لا يحصيه إلا الله تعالىٰ.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء. **وآخر:** كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم علىٰ هذا المقدار؛ بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملًا ومعرفة وحالًا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٨٧- ١٨٩).



بحسب قوته وشدته، حتىٰ إنه ربما وصل إلىٰ حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه. وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئًا؛ فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها؛ فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته؛ فلا ينال منه السارق إلا علىٰ غِرَّة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه، أو حَصَّل أضعافه بكسبه؛ فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، ووَلَّىٰ الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عُبَّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن -من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلىٰ بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض- ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلىٰ المعاصي، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «**إن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله**»[١]، وقوله: «**لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله**»[٢]، وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت علىٰ كثير من الناس، حتىٰ ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت

(١) البخاري في حديث مطول في الصلاة)، باب (المساجد في البيوت ح (٤٢٥)، ومسلم ح (٣٣)، (٢٦٣).

(٢) مسلم في الإيمان)، باب (تحريم الكبر وبيانه ح (١٤٨).

قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود، وقال: المعنىٰ: لا يدخلها خالدًا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.

والشارع -صلوات الله وسلامه عليه- لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط؛ فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قول القلب، وقول اللسان، وقول القلب يتضمن -من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته- من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنىٰ بالقلب علمًا ومعرفة ويقينًا وحالًا -ما يوجب تحريم قائلها علىٰ النار. وكل قول رَتَّب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام؛ كقوله ﷺ: «**من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة؛ حُطَّت عنه خطاياه -أو غُفرت ذنوبه- ولو كانت مثل زَبَد البحر**»[1]، وليس هذا مرتبًا علىٰ مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه غافلًا عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابها، حَطَّتْ من خطاياه بحسب ما في قلبه؛ فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل

---

(١) الترمذي في الدعوات)، باب (فضل سبحان الله ح ٣٤٦٢، وقال: حسن صحيح. وأخرجه مسلم مطولًا في الذكر والدعاء)، باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء)، (ح٢٦٩١).

بتفاضل ما في القلوب؛ فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مَد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب.

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثَقَّل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات، لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنىٰ، فانظرْ إلىٰ ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك غافل ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلىٰ محبة غيرك، وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحدًا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك، عندك سواء؟

وتأملْ ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلىٰ القرية، وحملته -وهو في تلك الحال- علىٰ أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة، وجُعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب -وقد اشتد به العطش يأكل الثرىٰ- فقام بقلبها ذلك الوقت -مع عدم الآلة، وعدم المعين،

وعدم من ترائيه بعملها- ما حملها علىٰ أن غَررَّت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خُفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحَمْلها خفها بفيها، وهو ملآن، حتىٰ أمكنها الرُّقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتىٰ شرب، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا؛ فأحرقت أنوارُ هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة علىٰ قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا، والله المستعان. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٨- ٣٣١).



الفصل الرابع: أعمال القلوب

أولاً: الإخلاص

[عبارات في الإخلاص]

وقد تنوعت العبارات في «الإخلاص» و«الصدق»، والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتىٰ عن نفسك.

و«**الصدق**»: التنقي من مطالعة النفس.

فالمخلص لا رياء له، **والصادق** لا إعجاب له.

ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه إلىٰ إخلاص. فنقصان كل مخلص في إخلاصه بقدر رؤية إخلاصه، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص، صار مخلِصًا مُخلَصًا.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلىٰ الخالق، ومن تزيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد؛ لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوىٰ فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد علىٰ النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص ألا تطلب علىٰ عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت علىٰ لون آخر.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٩، ١٠٠).



[سبيل الإخلاص]

لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبةُ المدح والثناء والطمعُ فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت.

فإذا حدَّثتكَ نفسك بطلب الإخلاص فأقبلْ علىٰ الطمع أولًا فاذبحْه بسكين اليأس، وأقبلْ علىٰ المدح والثناء فازهدْ فيهما زهدَ عُشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبحُ الطمع والزهد في الثناء والمدح سَهُل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يُسهِّل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئًا سواه. وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويزين ويضر ذمُّه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمِّي شَيْن، فقال: «**ذلك الله ﷻ**»(١).

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمُّه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه. ولن يقدر علىٰ ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتىٰ فقدتَ الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٨) و(٦/ ٣٩٣).

مركب؛ قال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. اهـ[١].

[الإخلاص يُعين على ترك المألوفات]

إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد مَن تركها لغير الله؛ أمَّا من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليُمْتَحن أصادقٌ هو في تركها أم كاذب، فإن صبر علىٰ تلك المشقة قليلًا استحالت لذة؛ قال ابن سيرين: سمعت شريحًا يحلف بالله: ما ترك عبد لله شيئًا فوجد فقده. وقولهم: مَن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه حق. والعوض أنواع مختلفة، وأجلُّ ما يُعوض به: الأنس بالله، ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوته، ونشاطه، وفرحه، ورضاه عن ربه تعالىٰ. اهـ[٢].

[حفظ العمل]

تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه. وبهذا يزول الإشكال الذي يورده من نقص حظه من هذا الباب علىٰ الحديث الذي فيه «أن صوم يوم عرفة يكفر سنتين،

---

(١) «الفوائد» (٢١٨، ٢١٩).

(٢) «الفوائد» (١٥٩، ١٦٠).



ويوم عاشوراء يكفر سنة»[(١)]، قالوا: فإذا كان دأبه دائمًا أنه يصوم يوم عرفة فصامه وصام يوم عاشوراء، فكيف يقع تكفير ثلاث سنين كل سنة، وأجاب بعضهم عن هذا بأن ما فضل عن التكفير ينال به الدرجات.

ويالله العجب، فليت العبد إذا أتىٰ بهذه المكفرات كلها أن تكفر عنه سيئاته باجتماع بعضها إلىٰ بعض، والتكفير بهذا مشروط بشروط، موقوف علىٰ انتفاء موانع في العمل وخارجه، فإن علم العبد أنه جاء بالشروط كلها وانتفت عنه الموانع كلها فحينئذ يقع التكفير، وأما عمل شملته الغفلة أو لأكثره، وفقد الإخلاص الذي هو روحه، ولم يوف حقه، ولم يقدره حق قدره، فأي شيء يكفر هذا؟ فإن وثق العبد من عمله بأنه وفاه حقه الذي ينبغي له ظاهرًا وباطنًا، ولم يعرض له مانع يمنع تكفيره ولا مبطل يحبطه من: عُجْب، أو رؤية نفسه فيه، أو يمن به، أو يطلب من العباد تعظيمه به، أو يستشرف بقلبه لمن يعظمه عليه، أو يعادي من لا يعظمه عليه، ويرىٰ أنه قد بخسه حقه وأنه قد استهان بحرمته؛ فهذا أي شيء يكفر؟ ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن **في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه**.

فالرياء -وإن دقَّ- محبط للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تحصر، وكون العمل غير مقيد باتباع السُّنَّة -أيضًا- موجب لكونه باطلًا، والمن به علىٰ الله تعالىٰ بقلبه مفسد له، وكذلك المن بالصدقة والمعروف والبر والإحسان والصلة مفسد لها؛ كما

---

(١) أخرجه مسلم، في (الصيام)، باب (استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر...)، (ح ١١٦٢). وهو حديث طويل فيه بيان أنواع صيام أخرىٰ غير الفرض.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] فحذَّر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض، وليس هذا بردة، بل معصية تحبط العمل وصاحبها لا يشعر بها، فما الظن بمن قدَّم علىٰ قول الرسول ﷺ وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه؟

أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر؟ ومن هذا قوله ﷺ: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»[1]، ومن هذا قول عائشة رضي الله تعالىٰ عنها وعن أبيها لزيد بن أرقم رضي الله عنه لما باع بالعينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إلا أن يتوب. وليس التبايع بالعينة ردة، وإنما غايته أنه معصية، فمعرفة ما يفسد الأعمال في حال وقوعها ويبطلها ويحبطها بعد وقوعها من أهم ما ينبغي أن يفتش عليه العبد ويحرص علىٰ عمله ويحذره. وقد جاء في أثر معروف: «إن العبد ليعمل العمل سرًّا لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالىٰ فيتحدث به فينتقل من ديوان السر إلىٰ ديوان العلانية، ثم يصير في ذلك الديوان علىٰ حسب العلانية؛ فإن تحدث به للسمعة وطلب الجاه والمنزلة عند غير الله تعالىٰ أبطله كما لو فعله لذلك». اهـ[2].

---

(١) أخرجه البخاري، في (مواقيت الصلاة)، باب (من ترك العصر)، (ح ٥٥٣).
(٢) «الوابل الصيب» (٢٠- ٢٢).

[السراب]

الأعمال التي لغير الله وعلىٰ غير أمره، يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله ﷻ فيها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة -وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم- فمحل السراب: أرض قفرة لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدىٰ.

وتأمل ما تحت قوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] والظمآن الذي قد اشتد عطشه فرأىٰ السراب، فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم علىٰ غير طاعة الرسول، ولغير الله جُعلت كالسراب، فرُفِعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا، ووجدوا الله سبحانه ثَمَّ؛ فجازاهم بأعمالهم ووَفَّاهم حسابهم.

وفي «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ -في حديث التجلي يوم القيامة-: «**ثم يُؤتىٰ بجهنم تُعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارىٰ: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن**

تسقينا، فيقال لهم: اشربوا، فيتساقطون»(١)، وذكر الحديث.

وهذه حال كل صاحب باطل؛ فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه؛ فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلًا.

وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة -كالعمل لغير الله، أو علىٰ غير أمره- بطل العمل ببطلان غايته، وتضرر عامله ببطلانه، وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده، لا له ولا عليه، بل صار معذبًا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه علىٰ هدىٰ. اهـ(٢).

[المراءات المحمودة]

هذا فيه تفصيل أيضًا، وهو أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان:

مشاهدة تبعث عليه، أو تُقوِّي باعثه؛ فهذه مراءاة خالصة أو مشوبة، كما أن المشاهدة القاطعة عنه أيضًا من الآفات والحجب.

ومشاهدة **لا تبعث عليه** ولا تعين الباعث؛ بل لا فرق عنده بين وجودها

(١) متفق عليه: رواه البخاري، في (التوحيد)، باب (قول الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾)، (ح٧٤٤٠)، ومسلم في (الإيمان)، (ح ١٨٣).

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ١٦٩، ١٧٠).



وعدمها، فهذه لا تدخله في التزين بالمراءاة، ولا سيما عند المصلحة الراجحة في هذه المشاهدة: إما حفظًا ورعاية، كمشاهدة مريض، أو مشرف علىٰ هلكة يخاف وقوعه فيها، أو مشاهدة عدو يخاف هجومه كصلاة الخوف عند المواجهة.

أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم منك، فتكون محسنًا إليه بالتعليم، وإلىٰ نفسك بالإخلاص، أو قصدًا منك للاقتداء، وتعريف الجاهل. فهذا رياء محمود، والله عند نية القلب وقصده.

فالرياء المذموم: أن يكون الباعث قصد التعظيم والمدح، والرغبة فيما عند من ترائيه، أو الرهبة منه، وأما ما ذكرناه -من قصد رعايته، أو تعليمه، أو إظهار السنة، وملاحظة هجوم العدو، ونحو ذلك-: فليس في هذه المشاهد رياء، بل قد يتصدق العبد رياء مثلًا، وتكون صدقته فوق صدقة صاحب السر.

مثال ذلك: رجل مضرور، سأل قومًا ما هو محتاج إليه، فعلم رجل منهم أنه إن أعطاه سرًّا، حيث لا يراه أحد لم يقتد به أحد، ولم يحصل له سوىٰ تلك العطية، وأنه إن أعطاه جهرًا اقتدي به واتُّبع، وأنف الحاضرون من تفرده عنهم بالعطية، فجهر له بالعطاء، وكان الباعث له علىٰ الجهر: إرادة سعة العطاء عليه من الحاضرين. فهذه مراءاة محمودة؛ حيث لم يكن الباعث عليها قصد التعظيم والثناء، وصاحبها جدير بأن يحصل له مثل أجور أولئك المعطين. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩١، ٩٢).

ثانيًا: المحبة

[محبة الله تعالى]

محبة الله سبحانه، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والرضا به وعنه: أصل الدين وأصل أعماله وإرادته، كما أن معرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل علوم الدين كلها؛ فمعرفته أجل المعارف، وإرادة وجهة أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم.

وقد قال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم يوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم، حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين**»(١).

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، وليس لله دين سواه، ولا يقبل من أحد دينًا غيره: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) رواه أحمد: (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧)، وسنده متصل صحيح.

فمحبته تعالىٰ، بل كونه أحب إلىٰ العبد من كل ما سواه علىٰ الإطلاق، من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، ومن أحب معه مخلوقًا مثل ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يقبل معه عمل؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتىٰ يكون عبدًا الله، ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبع لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه. وعلىٰ ذلك وُضِع الثواب والعقاب، وأُسست الجنة والنار، وانقسم الناس إلىٰ شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله محبة وإجلال ومخافة.

فالمخلوق كلما خِفته استوحشت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يُخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخاف عدله وقسطه.

وكذلك المحبة؛ فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ووبال عليه، وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلىٰ ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك؛ إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأمَّا محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن؛ فإنه لا شيء أحب إلىٰ القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها.

فمحبة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلىٰ ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلىٰ من كل لذة؛ كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له». وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها».

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».



ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوىٰ.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب؛ وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد، ومتىٰ ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبًّا لغيره، ولا أنسًا به، وكلما ازداد له حبًّا ازداد له عبودية وذلًّا، وخضوعًا ورقًّا له، وحرية عن رق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقًا حتىٰ يظفر بما خلق له، وهيئ له: من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطالبه؛ فإن فيه فقرًا ذاتيًّا إلىٰ ربه وإلهه، من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرًا ذاتيًّا إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره. وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبودبته له.

فَأَصْبَحَ حرًّا عِزَّةً وَصِيَانَةً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَنْوَارُهْ وَضِيَاؤُه

وما من مؤمنٍ إلا وفي قلبه محبة لله تعالىٰ، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلىٰ لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحس به لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلىٰ ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير

الإحساس والشعور به.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه: هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

ومتىٰ لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول -وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعًا لأجله- لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك.

ولو سعىٰ في هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح من كل باب، ولم يكن مستعينًا بالله، متوكلًا عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، متيقنًا أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته وإعانته، لا طريق له سوىٰ ذلك بوجه من الوجوه، لم يحصل له مطلوبه؛ فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يوصِّل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يعبد إلا بإعانته، ولا يطاع إلا بمشيئته: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وإذا عرف هذا، فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت، أو نقصت، أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملة لما قدَّم عليها لذة وشهوة لا نسبة بينها بوجه ما، بل هي أدنىٰ من حبة خردل بالنسبة إلىٰ الدنيا وما فيها، ولهذا قال النبي صلىٰ الله

تعالىٰ عليه وسلم: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١)؛ فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يشعثه وينقصه.

ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصًا لله منيبًا إليه، مطمئنًّا بذكره، مشتاقًا قلبه إلىٰ لقائه، منصرفًا عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعول عليها، ويرىٰ استبداله بها عما هو فيه كاستبداله البعر الخسيس بالجوهر النفيس، وبيعه الذهب بأعقاب الجزر، وبيعه المسك بالرجيع.

ولا ريب أنَّ في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة؛ إنما يصبو إلىٰ ما يناسبه، ويميل إلىٰ ما يشاكله، ينفر من المطالب العالية واللذات الكاملة كما ينفر الجُعل من رائحة الورد.

وشاهدنا من يمسك بأنفه عند وجود رائحة المسك ويتكره بها؛ لما يناله بها من المضرة.

فمن خلق للعمل في الدباغة لا يجيء منه العمل في صناعة الطيب، ولا يليق ولا يتأتىٰ منه. والنفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، أو للخوف من مكروه هو أشق عليها من فوات ذلك المحبوب.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في مواضع منها: كتاب (الحدود)، (ح ٦٨١٠)، ورواه مسلم في (الإيمان)، باب (نقصان الإيمان بالمعاصي)، (ح٥٧).

فالذنب يعدم لعدم المقتضىٰ له تارة، ولاشتغال القلب بما هو أحب إليه منه، ولوجود المانع تارة، ومن خوف فوات محبوب هو أحب إليه منه تارة.

فالأول: حال من حصل له من ذوق حلاوة الإيمان وحقائقه والتنعم به، ما عوض قلبه عن ميْله إلىٰ الذنوب.

والثاني: حال من عنده داع وإرادة لها، وعنده إيمان وتصديق بوعد الله تعالىٰ ووعيده، فهو يخاف إن واقعها أن يقع فيما هو أكره إليه، وأشق عليه.

فالأول: النفوس المطمئنة إلىٰ ربها.

والثاني: لأهل الجهاد والصبر.

وهاتان النفسان هما المخصوصتان بالسعادة والفلاح.

قال الله تعالَىٰ في النفس الأولىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

وقال في الثانية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

فالنفوس ثلاثة: نفس مطمئنة إلىٰ ربها -وهي أشرف النفوس وأزكاها- ونفس مجاهدة صابرة، ونفس مفتونة بالشهوات والهوىٰ؛ وهي النفس الشقية التي حظها الألم والعذاب، والبعد عن الله تعالىٰ والحجاب. اهـ[١].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٦٥- ٥٧٠).



[أنفع الحب]

اعْلَمْ أَنَّ أَنْفَعَ الْمَحَبَّةِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ وَأَوْجَبَهَا وَأَعْلَاهَا وَأَجَلَّهَا: مَحَبَّةُ مَنْ جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ، وَفُطِرَتِ الْخَلِيقَةُ عَلَىٰ تَأْلِيهِهِ، وَبِهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَعَلَيْهَا فُطِرَتِ الْمَخْلُوقَاتُ، وَهِيَ سِرُّ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي تَأَلَّهَ الْقُلُوبَ بِالْمَحَبَّةِ وَالإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالذُّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالتَّعَبُّدِ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَالْعِبَادَةُ هِيَ: كَمَالُ الْحُبِّ مَعَ كَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يُحَبُّ لِذَاتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُحَبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ وُجُوبِ مَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ، وَدَعْوَةُ جَمِيعِ رُسُلِهِ، وَفِطْرَتُهُ الَّتِي فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، وَمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ مَحَبَّةِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَكَيْفَ بِمَنْ كل الْإِحْسَانُ مِنْهُ؟ وَمَا بِخَلْقِهِ جَمِيعِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النَّحل: ٥٣]، وَمَا تَعَرَّفَ بِهِ إِلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُ مَصْنُوعَاتِهِ مِنْ كَمَالِهِ وَنِهَايَةِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَالْمَحَبَّةُ لَهَا دَاعِيَانِ: الْجَمَالُ، وَالْجَلَالُ.

وَالرَّبُّ تَعَالَىٰ لَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، بَلِ

الْجَمَالُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْإِجْلَالُ كُلُّهُ مِنْهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحَبَّ لِذَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ سِوَاهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الْمَائِدَة: ٥٤- ٥٦].

فَالْوِلَايَةُ أَصْلُهَا الْحُبُّ؛ فَلَا مُوَالَاةَ إِلَّا بِحُبٍّ، كَمَا أَنَّ الْعَدَاوَةَ أَصْلُهَا الْبُغْضُ، وَاللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ، فَهُمْ يُوَالُونَهُ بِمَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَهُوَ يُوَالِيهِمْ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ، فَاللهُ يُوَالِي عَبْدَهُ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ لَهُ.

وَلِهَذَا أَنْكَرَ -سُبْحَانَهُ- عَلَىٰ مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، بِخِلَافِ مَنْ وَالَىٰ أَوْلِيَاءَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْهُمْ أولياء مِنْ دُونِهِ، بَلْ مُوَالَاتُهُ لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مُوَالَاتِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَىٰ مَنْ سَوَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦٥].

وَأَخْبَرَ عَمَّنْ سَوَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْدَادِ فِي الْحُبِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ لِمَعْبُودِيهِمْ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧، ٩٨].

وَبِهَذَا التَّوْحِيدِ فِي الْحُبِّ أَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ جَمِيعَ كُتُبِهِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، وَلِأَجْلِهِ خُلِقَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَجَعَلَ الْجَنَّةَ لِأَهْلِهِ، وَالنَّارَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ فِيهِ.

وَقَدْ أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(١)]؛ فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ الرَّبِّ ﷻ؟

وَقَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «... لَا، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»[(٢)]، أَيْ: لَا تُؤْمِنُ حَتَّىٰ تَصِلَ مَحَبَّتُكَ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَىٰ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمِهَا، أَفَلَيْسَ الرَّبُّ ﷻ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَوْلَىٰ بِمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟ وَكُلُّ مَا مِنْهُ إِلَىٰ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَدْعُو إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ، مِمَّا يُحِبُّ الْعَبْدُ وَيَكْرَهُ؛ فَعَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ، وَمُعَافَاتُهُ وَابْتِلَاؤُهُ، وَقَبْضُهُ وَبَسْطُهُ، وَعَدْلُهُ وَفَضْلُهُ، وَإِمَاتَتُهُ وَإِحْيَاؤُهُ، وَبِرُّهُ وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَسَتْرُهُ وَعَفْوُهُ، وَحِلْمُهُ وَصَبْرُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ، وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِ، وَكَشْفُ كَرْبِهِ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَتَفْرِيجُ كُرْبَتِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، بَلْ مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ عَنْهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، كُلُّ ذَلِكَ دَاعٍ لِلْقُلُوبِ إِلَىٰ تَأْلِيهِهِ وَمَحَبَّتِهِ، بَلْ تَمْكِينُهُ عَبْدَهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَإِعَانَتُهُ عَلَيْهَا، وَسَتْرُهُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ وَطَرَهُ مِنْهَا، وَكَلَاءَتُهُ وَحِرَاسَتُهُ لَهُ،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الإيمان)، (ح ١٥)، ومسلم في (الإيمان)، (ح ٤٤).

(٢) رواه البخاري في (الأيمان والنذور)، باب (كيف كانت يمين النبي ﷺ؟)، (ح٦٦٣٢).

وَهو يَقْضِي وَطَرَهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، ويُعِينُهُ وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِنِعَمِهِ- مِنْ أَقْوَىٰ الدَّوَاعِي إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ؛ فَلَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا فَعَلَ بِمَخْلُوقٍ أَدْنَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَمْلِكْ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ، فَكَيْفَ لَا يُحِبُّ الْعَبْدُ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ بِعَدَدِ الْأَنْفَاسِ، مَعَ إِسَاءَتِهِ؟ فَخَيْرُهُ إِلَيْهِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُ إِلَيْهِ صَاعِدٌ، يَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، فَلَا إِحْسَانُهُ وَبِرُّهُ وَإِنْعَامُهُ إِلَيْهِ يَصُدُّهُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَلَا مَعْصِيَةُ الْعَبْدِ وَلُؤْمُهُ يَقْطَعُ إِحْسَانَ رَبِّهِ عَنْهُ.

فَأَلْأَمُ اللُّؤْمِ تَخَلُّفُ الْقُلُوبِ عَنْ مَحَبَّةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَتَعَلُّقُهَا بِمَحَبَّةِ سِوَاهُ.

وَأَيْضًا، فَكُلُّ مَنْ تُحِبُّهُ مِنَ الْخَلْقِ ويُحِبُّكَ إِنَّمَا يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ وَغَرَضِهِ مِنْكَ، وَاللهُ ﷻ يُرِيدُكَ لَكَ؛ كَمَا فِي الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ: «**عَبْدِي، كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لَكَ**»، فَكَيْفَ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ رَبُّهُ لَهُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ، مَشْغُولٌ بِحُبِّ غَيْرِهِ، قَدِ اسْتَغْرَقَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ سِوَاهُ.

وَأَيْضًا، فَكُلُّ مَنْ تُعَامِلُهُ مِنَ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ يَرْبَحْ عَلَيْكَ لَمْ يُعَامِلْكَ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبْحِ، وَالرَّبُّ تَعَالَىٰ إِنَّمَا يُعَامِلُكَ لِتَرْبَحَ أَنْتَ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الرِّبْحِ وَأَعْلَاهُ؛ فَالدِّرْهَمُ بِعَشَرَةِ أَمْثَالِهِ إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ أَسْرَعُ شَيْءٍ مَحْوًا.

وَأَيْضًا هُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَكَ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي مَرْضَاتِهِ.

وَأَيْضًا فَمَطَالِبُكَ -بَلْ مَطَالِبُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ جَمِيعًا- لَدَيْهِ، وَهُوَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ؛ أَعْطَىٰ عَبْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ فَوْقَ مَا يُؤَمِّلُهُ، يَشْكُرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ وَيُنَمِّيهِ، وَيَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ وَيَمْحُوهُ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغَلِّطُهُ كَثْرَةُ الْمَسَائِلِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، بَلْ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَغْضَبُ إذا لَمْ يُسْأَلْ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ مِنْهُ، وَيَسْتُرُهُ حَيْثُ لَا يَسْتُرُ نَفْسَهُ، وَيَرْحَمُهُ حَيْثُ لَا يَرْحَمُ نَفْسُهُ، دَعَاهُ بِنِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَأَيَادِيهِ إِلَىٰ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَأَبَىٰ، فَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فِي طَلَبِهِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَهُمْ عَهْدَهُ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ نَفْسُهُ، وَقَالَ: «**مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»[1]، كَمَا قِيلَ: أَدْعُوكَ وَلِلْوَصْلِ تَأْبَىٰ، أَبْعَثُ رَسُولِي فِي الطَّلَبِ، أَنْزِلُ إِلَيْكَ بِنَفْسِي، أَلْقَاكَ فِي النَّوْمِ.

وَكَيْفَ لَا تُحِبُّ الْقُلُوبُ مَنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ، وَيَسْتُرُ الْعَوْرَاتِ، وَيَكْشِفُ الْكُرُبَاتِ، وَيُغِيثُ اللَّهَفَاتِ، وَيُنِيلُ الطَّلَبَاتِ سِوَاهُ؛ فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ شُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِدَ، وَأَحَقُّ مَنْ حُمِدَ، وَأَنْصَرُ مَنِ ابْتُغِيَ، وَأَرْأَفُ مَنْ مَلَكَ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَىٰ، وَأَرْحَمُ مَن

---

(١) متفق عليه: جزء من حديث رواه البخاري في (الدعوات)، باب (الدعاء نصف الليل)، (ح٦٣٢١)، ومسلم في (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (الترغيب في الدعاء والذكر...)، (ح٧٥٨).

اسْتُرْحِمَ، وَأَكْرَمُ مَنْ قُصِدَ، وَأَعَزُّ مَنِ الْتُجِئَ إِلَيْهِ وَأَكْفَىٰ مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ، أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَأَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ إذا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ ثُمَّ وَجَدَهَا، وَهُوَ الْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفَرْدُ فَلَا نِدَّ لَهُ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَنْ يُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَنْ يُعْصَىٰ إِلَّا بِعِلْمِهِ، يُطَاعُ فَيَشْكُرُ، وَبِتَوْفِيقِهِ وَنِعْمَتِهِ أُطِيعَ، وَيُعْصَىٰ فَيَغْفِرُ وَيَعْفُو، وَحَقُّهُ أُضِيعَ، فَهُوَ أَقْرَبُ شَهِيدٍ، وَأَجَلُّ حَفِيظٍ، وَأَوْفَىٰ بِالْعَهْدِ، وَأَعْدَلُ قَائِمٍ بِالْقِسْطِ، حَالَ دُونَ النُّفُوسِ، وَأَخَذَ بِالنَّوَاصِي، وَكَتَبَ الْآثَارَ، وَنَسَخَ الْآجَالَ، فَالْقُلُوبُ لَهُ مُفْضِيَةٌ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَالْغَيْبُ لَدَيْهِ مَكْشُوفٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ مَلْهُوفٌ، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِنُورِ وَجْهِهِ، وَعَجَزَتِ الْعقول عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، وَدَلَّتِ الْفِطَرُ وَالْأَدِلَّةُ كُلُّهَا عَلَىٰ امْتِنَاعِ مِثْلِهِ وَشِبْهِهِ، أَشْرَقَتْ لِنُورِ وَجْهِهِ الظُّلُمَاتُ، وَاسْتَنَارَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَصَلُحَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، ويُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ:

مَا اعْتَاضَ بَاذِلُ حُبِّهِ لِسِوَاهُ مِنْ عِوَضٍ، وَلَوْ مَلَكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ[1]

---

(١) «الداء والدواء» (٣٣٦ - ٣٤١).

[كيف لا يُحَبُّ مَن هذا شأنه؟]

القلوب جُبلت علىٰ حُبِّ مَن أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه؛ فإن إحسانه علىٰ عبده في كل نفسٍ ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلىٰ ضبط أجناس هذا الإحسان فضلًا عن أنواعه أو عن أفراده، ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة؛ فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنىٰ نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة، فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، هذا إلىٰ ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذىٰ التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور له بأكثرها أصلًا، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وسواء كان المعنىٰ: من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا، ويكون يكلؤكم مضمنًا معنىٰ يجيركم وينجيكم من بأْسه، أو كانت «مِن» البدلية؛ أي: من يكلؤكم بدل الرحمن؛ أي: هو الذي يكلؤكم وحده لا كالئ لكم غيره، ونظير «مِن» هذه قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠﴾ [الزخرف: ٦٠] علىٰ أحد القولين؛ أي: عوضكم وبدلكم، فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءَتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار

وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه سبحانه وتعالىٰ؛ فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه، وفي بعض الآثار يقول تعالىٰ: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جودًا وكرمًا؟ أبيت أكلأُ عبادي في مضاجعهم؛ وهم يبارزونني بالعظائم»، وفي الترمذي: أن النبي ﷺ لما رأىٰ السحاب قال: «**هذه روايا الأرض يسوقها الله إلىٰ قوم لا يذكرونه، ولا يعبدونه**»[(١)]، وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله؛ إنهم ليجعلون له الولد، وهو يرزقهم ويعافيهم**»[(٢)]، وفي بعض الآثار: «يقول الله ﷻ: ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرك إليَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك؟! وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي وأنت فقير إليَّ؟! ولا يزال المَلَك الكريم يَعرج إليَّ منك بعمل قبيح».

ولو لم يكن من تحببه إلىٰ عباده وإحسانه إليهم وبره بهم إلا أنه خلق لهم ما في السماوات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثم أهلهم وكرمهم، وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كل وقت أرادوا، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة، فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوب أحدهم عَنان السماءِ ثم استغفره غفر له، ولو لقيه

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي بنحوه في (تفسير القرآن)، باب (تفسير سورة الحديد)، (ح٣٢٩٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في (الأدب) (ح٦٠٩٩)، ورواه مسلم بنحوه في (صفة القيامة والجنة والنار)، (ح ٢٨٠٤).



بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا لأَتاه بقرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب فوفقهم لفعلها ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله فوفقهم لفعله وكفَّر عنهم سيئاتهم به، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات هو الذي أمرهم بها وخلقها لهم وأعطاهم إياها ورتب عليها جزاءَها؛ فمنه السبب ومنه الجزاءُ، ومنه التوفيق ومنه العطاءُ أولًا وآخرًا، وهم محل إحسانه فقط ليس منهم شيء، إنما الفضل كله والنعمة كلها والإحسان كله منه أولًا وآخرًا؛ أعطىٰ عبده ماله وقال: تقرَّب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبد له والمال له والثواب منه، فهو المعطي أولًا وآخرًا، فكيف لا يحب من هذا شأْنه؟ وكيف لا يستحي العبد أن يصرف شيئًا من محبته إلىٰ غيره؟ من أولىٰ بالحمد والثناءِ والمحبة منه؟ ومن أولىٰ بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده لا إله إلا هو العزيز الحكيم. ويفرح ﷻ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفِّر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ ﷻ سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاءِ لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلىٰ هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلىٰ العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه ويدعوهم

إلىٰ سؤاله، فيدعو مسيئهم إلىٰ التوبة، ومريضهم إلىٰ أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلىٰ أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءَها كل ليلة، ويدعوهم إلىٰ التوبة وقد حاربوه وعذبوا أولياءَه وأحرقوهم بالنار؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠]. وقال بعض السلف: انظروا إلىٰ كرمه كيف عذَّبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلىٰ التوبة. اهـ[1].

[الأسباب الجالبة للمحبة]

وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به؛ كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنها توصله إلىٰ درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره علىٰ كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال؛ فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذِّكر.

الرابع: إيثار محابه علىٰ محابك عند غلبات الهوىٰ، والتسنم إلىٰ محابه، وإن صعب المرتقىٰ.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في

(١) «طريق الهجرتين» (٣١٥- ٣١٧).



رياض هذه المعرفة ومباديها؛ فمَن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبَّه لا محالة.

ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلىٰ المحبوب.

السادس: مشاهدة بِره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلىٰ محبته.

السابع -وهو من أعجبها-: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالىٰ. وليس في التعبير عن هذا المعنىٰ غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقىٰ أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المُحِبُّون إلىٰ منازل المحبة، ودخلوا علىٰ الحبيب.

ومِلاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٢٩، ٥٣٠) وقد شُرِحت هذه الأسباب العشرة في كتاب مستقل؛ =

[كمال القلب]

الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له؛ مثاله كمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوىٰ التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك.

وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه، وإرادته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلىٰ الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه علىٰ تحصيل ذلك؛ فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين. اهـ[1].

= بعنوان: «شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدَّها الإمام ابن القيم»، للدكتور عبد العزيز مصطفىٰ، دار طيبة للنشر والتوزيع، فليُراجعه مَن أراد الاستزادة في ذلك المجال.

(١) «الروح» (٢٦٦).



[أعظم نعيم الدنيا وأعظم لذات الآخرة]

فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: هو النظر إلىٰ وجه الرب ﷻ، وسماع كلامه منه، والقرب منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**»[١]، وفي حديث آخر: «**إنه إذا تجلىٰ لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم**»[٢].

وفي النسائي و«مسند الإمام أحمد»، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في دعائه: «**وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك الكريم، والشوق إلىٰ لقائك**»[٣].

وفي كتاب «السُّنَّة» لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعًا: «**كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن؛ فكأنما لم يسمعوه قبل ذلك**»[٤].

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا علىٰ الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته؛ فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر؛ فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الجنة

---

(١) رواه الترمذي بلفظه في (صفة الجنة)، (ح٢٥٥٢)، ومسلم بنحوه في الإيمان)، (ح١٨١).

(٢) لم أجده.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي في (السهو)، (ح١٣٠٥).

(٤) «السُّنة» لعبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ١٤٧)، فقرة (١٢٣)، وقال محققه: «إسناده ضعيف».

رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقىٰ صاحبها في المعيشة الضنك؛ فليست الحياة الطيبة إلا بالله. وكان بعض المحبين تمر به أوقات، فيقول: «إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب»، وقد تقدم ذلك. وكان غيره يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب علىٰ قلب المحب يقول في حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوىٰ ... ولا خير فيمن لا يُحب ويعشقُ

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرحٍ بميت إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلىٰ أعظم لذة في الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلىٰ لذة الآخرة، ويثاب الإنسان علىٰ هذه



اللذة أتم ثواب؛ ولهذا كان المؤمن يثاب علىٰ ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلىٰ لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة، وتعقب آلامًا أعظم منها؛ كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودة بينهم في الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨، ١٢٩]، ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق، وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم، ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكمل اللذات؛ بمنزلة من قدَّم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلىٰ هلاكه؛ قال تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

قال بعض السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالىٰ في أصحاب هذه اللذة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال في حقهم: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مـآرب كانـت في الحيـاة لأهلهـا ... عـذابًا فصـارت في المعـاد عـذابا

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها علىٰ لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولا بدَّ أن تشغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «**كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته؛ فإنهن من الحق**»[(١)]، فما أعان علىٰ اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل. اهـ[(٢)].

[طيب العيش في الدنيا]

ذكر [العبد] وفرحه بربه ﷻ أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يُجازَىٰ به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنىٰ

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي بنحوه في (فضائل الجهاد)، باب (ما جاء في فضل الرمي)، (ح١٦٣٧).

(٢) «الداء والدواء» (٣٤٣- ٣٤٧).



حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال علىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: «إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة». وقال لي مرة: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنَّىٰ رحت فهي معي لا تفارقني؛ إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة». أو قال: «ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير»، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله»، وقال لي مرة: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالىٰ، والمأسور من أسره هواه».

ولما دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرّهم نفسًا؛ تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون

وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وقال آخر: «مساكين أهل الدنيا؛ خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالىٰ ومعرفته وذكره». أو نحو هذا.

وقال آخر: «إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

وقال آخر: «إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

فمحبة الله تعالىٰ ومعرفته، ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي علىٰ هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين. وإنما تقر عيون الناس به علىٰ حسب قرة أعينهم بالله ﷻ، فمن قرَّت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات. اهـ[1].

---

(١) «الوابل الصيب» (٦٩- ٧١).



[أكمل الناس لذة]

لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه؛ فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همة وأرفعهم قدرًا من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه. فلذته في إقباله عليه، وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذته في أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفِعال والأشغال؛ فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسُه بقبوله ولا التفتْ إليه، وربما تألمت من ذلك، كما أن الأول إذا عُرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به، ولم تلتفت إليه، ونفرت نفسه منه.

وأكمل الناس لذة مَن جُمِع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن؛ فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه، فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وأبخسهم حظًّا من اللذة مَن تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة؛ فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع؛ فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أُذِن لهم فيه، فجُمِع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا

وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم.

فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب، فليجعل لذة الدنيا موصلًا له إلىٰ لذة الآخرة بأن يستعين بها علىٰ فراغ قلبه لله في إرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة علىٰ طلبه، لا بحكم مجرد الشهوة والهوىٰ. وإن كان ممن زُويت عنه لذات الدنيا وطيباتها، فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه هاهنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك. فطيبات الدنيا ولذاتها نِعمَ العون لمن صحَّ طلبه لله والدار الآخرة وكانت هِمَّتُه لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته، وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نِعمَ العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فمن أخذ منافع الدنيا علىٰ وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعًا، وإلا خسرهما جميعًا. اهـ[١].

[من علامات محبة الله تعالى]

إذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم؛ فإن من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنـــتَ تـــزعم حُبِّـــي فلـــم هجـــرتَ كتـــابي؟!

(١) «الفوائد» (٢١٩- ٢٢١).

أمَـــا تأملـــتَ مـــا فيـــه   مـــن لذيـــذ خطـــابي؟!

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله». وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه، وهو غاية مطلوبه؟! وقال النبي ﷺ يومًا لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اقرأ عليَّ**»، فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟! فقال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فاستفتح فقرأ سورة النساء، حتىٰ إذا بلغ قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١] قال: «**حسبك**»، فرفع رأسه، فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء[(١)].

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسىٰ يقولون: يا أبا موسىٰ، ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يستمعون. فلمحبي القرآن -من الوجد والذوق، واللذة، والحلاوة، والسرور- أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل: ذوقه، وجده، وطربه، وتشوقه إلىٰ سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، كما قيل: تُقْرأ عليكَ الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيتٌ من الشعر يُنشد تميل كالسكران. فهذا أقوىٰ الأدلة علىٰ فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه علىٰ شيء. اهـ[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في (تفسير القرآن)، (ح٤٥٨٢)، ومسلم بنحوه في (صلاة المسافرين وقصرها)، (ح٨٠٠).

(٢) «الداء والدواء»: (٣٤٧، ٣٤٨).

[الذل والانكسار لله تعالى]

[لا غنىٰ للعبد عن] الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب ﷻ، فيشهد في كل ذَرّة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقارًا تامًّا إلىٰ ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته.

وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةُ حقيقتها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كَسْرَة خاصة لا يشبهها شيء؛ بحيث يرىٰ نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغَب في مثله، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقَيِّمه؛ فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما منَّ ربه إليه من الخير، ويرىٰ أنه لا يستحق قليلًا منه ولا كثيرًا، فأي خير ناله من الله استكثره علىٰ نفسه، وعلم أن قَدْره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقلَّ ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها -ولو ساوت طاعات الثقلين- من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه؛ فإن الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنىٰ النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلىٰ الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلىٰ الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة؛ فهو

ناكس الرأس بين يدي ربه؛ لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلًا من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدةً لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله -هذه السجدة العظمىٰ- سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجهُ حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده علىٰ عتبة العبودية، ناظرًا بقلبه إلىٰ ربه ووليه نظر الذليل إلىٰ العزيز الرحيم، فلا يُرَىٰ إلا متملقًا لربه، خاضعًا له، ذليلًا مستعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضىٰ ربه كما يترضىٰ المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له، الذي لا غنىٰ له عنه، ولا بد له منه، فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له؛ يقول: كيف أُغضب مَن حياتي في رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كَنَف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه علىٰ درجات الكمال أتم ترقية، وهو القَيِّم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له، فخرج عليه في طريقه عدو، فأسره وكَتَّفه وشدَّه وثاقًا، ثم ذهب به إلىٰ بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب، وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفَيْنَة بعد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأىٰ حاله، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه، فبينما هو في أسر عدوه يَسومه سوء العذاب، ويريد نَحْره في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتة

إلىٰ نحو ديار أبيه، فرأىٰ أباه منه قريبًا، فسعىٰ إليه، وألقىٰ نفسه عليه، وانطرح بين يديه يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلىٰ ولدك وما هو فيه، ودموعه تستبق علىٰ خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتىٰ وقف علىٰ رأسه، وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلىٰ عدوه، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فرَّ عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقىٰ بنفسه طريحًا ببابه؛ يُمرِّغ خدَّه في ثَرىٰ أعتابه باكيًا بين يديه، يقول: يا رب، يا رب، ارحمْ من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك؛ مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك، لا ملجأ له ولا منجىٰ له منك إلا إليك، أنت معاذه وبك ملاذه.

يا مَن ألوذ به فيما أُؤمله ... ومَن أعوذُ به مما أحاذره

لا يَجبر الناس عَظْمًا أنت كاسرُه ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابرُه

. اهـ(١).

[مشهد العبودية والمحبة]

وهو الغاية التي شَمَّر إليها السالكون، وأمَّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون. وهو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلىٰ لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره علىٰ لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٩، ٤٢٠).



المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلىٰ مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته؛ فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يُعبَّر عنه.

ويحكىٰ عن بعض العارفين أنه قال: دخلت علىٰ الله من أبواب الطاعات كلها؛ فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتىٰ جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية».

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلىٰ الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوىٰ، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة؛ يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله علىٰ الله، وترميه علىٰ طريق المحبة؛ فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة؛ لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم؛ بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر

وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في وادٍ وهو في وادٍ. وهي تسمىٰ طريق الطير، يسبق النائم فيها علىٰ فراشه السعاة؛ فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة، فالله المستعان، وهو خير الغافرين. وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده؛ فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد مننَ ربه سبحانه عليه قَبْلَ الذنب، وفي حال مواقعته، وبعده، وبِرَّه به وحلمه عنه، وإحسانه إليه؛ هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلىٰ لقائه؛ فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها، وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يُمِده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويُسْبِل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنىٰ عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه يراه ويطلع عليه؛ فالسماء تستأذن ربها أن تَحْصبه، والأرض تستأذنه أن تَخْسِف به، والبحر يستأذنه أن يُغرقه، كما في «مسند الإمام أحمد» عن النبي ﷺ: **«ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق ابن آدم، والملائكة تستأذنه أن تعاجله وتهلكه، والرب تعالىٰ يقول: دعوا عبدي، فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض؛ إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمني وإليَّ، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلًا قبلته، وإن أتاني نهارًا قبلته، وإن تقرَّب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن مشىٰ إليَّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرتُ له، وإن استقالني أقلتُه، وإن تابَ إليَّ تبت عليه، مَن أعظم مني جودًا وكرمًا، وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في**



مضاجعهم، وأحرسهم علىٰ فُرُشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيدٍ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنتُ له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد، أهلُ ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهِّرهم من المعايب». اهـ[(١)][(٢)].

[غيرة الله على قلب عبده]

الله ﷻ يغار علىٰ قلب عبده أن يكون مُعطَّلًا من حبه وخوفه ورجائه، وأن يكون فيه غيره؛ فالله ﷻ خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم، خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عمَّا خلقتك له». وفي أثر آخر: «خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلتُ لك برزقك فلا تتعب. يابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا خير لك من كل شيء».

ويغار علىٰ لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره، ويغار علىٰ جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقبُح بالعبد أن يغار مولاه الحق علىٰ قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

---

(١) روىٰ الإمام أحمد أول الحديث (١/ ٤٣) بمعناه وهو قوله: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات علىٰ الأرض، فيستأذن الله في أن ينتضح عليهم فيَكُفّه الله ﷻ»، وقد ضعف هذا الحديث الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع»، رقم (٤٩٣٢)، وبقية الحديث لم أقف عليه.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢١- ٤٢٣).

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلَّط علىٰ قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره أنواع العذاب حتىٰ يرجع قلبه إليه، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء. وهذا من غيرته ﷻ علىٰ عبده، كما أنه ﷻ يغار علىٰ عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرمته، فلا يُمكن المفسد أن يتوصَّل إلىٰ حرمته غيرةً منه لعبده؛ فإنه ﷻ يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم، وجوارحهم، وأهلهم، وحريمهم، وأموالهم، يتولىٰ سبحانه الدفع عن ذلك كله غَيْرةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم. والله تعالىٰ يغار علىٰ إمائه وعَبيده من المفسدين شرعًا وقدرًا، ومن أجل ذلك حَرَّم الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنع القَتَلات لشدة غَيْرته علىٰ إمائه وعبيده، فإن عُطِّلت هذه العقوبات شرعًا أجراها سبحانه قَدرًا. اهـ[1].

[الأدب مع الله تعالى]

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة المرء معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلىٰ غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقته عليه.

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: «العبد يصل بطاعة الله إلىٰ الجنة، ويصل بأدبه في طاعته إلىٰ الله».

---

(١) «روضة المحبين» (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

وقال: «رأيت من أراد أن يمد يده في الصلاة إلىٰ أنفه فقبض علىٰ يده».

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: الأدب الوقوف مع المستحسنات، فقيل له: وما معناه؟ فقال: أن تعامله سبحانه بالأدب سرًّا وعلنًا، ثم أنشد:

إذا نطقتْ جاءت بكل ملاحة ... وإن سكتتْ جاءت بكل مليح

وقال أبو علي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهلُ إلىٰ القتل».

وقال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ترك العارف أدبه مع معروفه، فقد هلك مع الهالكين».

وقال أبو علي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ترك الأدب يوجب الطرد؛ فمن أساء الأدب علىٰ البساط رُدَّ إلىٰ الباب، ومن أساء الأدب علىٰ الباب رد إلىٰ سياسة الدواب».

وقال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله».

وقال ابن مبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «نحن إلىٰ قليل من الأدب أحوج منا إلىٰ كثير من العلم».

وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ عن أنفع الأدب، فقال: «التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك».

وقال سهل رَحِمَهُ اللَّهُ: «القوم استعانوا بالله علىٰ مراد الله، وصبروا لله علىٰ آداب الله».

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون».

وقال: «الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف»... وتأمل أحوال الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر علىٰ علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ ، ثم أثنىٰ علىٰ ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها؛ فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به -وهو محض التوحيد- فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم؛ فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧] ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك؛ فإذا عذبتهم -مع كونهم عبيدك- فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم علىٰ سيدهم، وأعصاهم له- لم تعذبهم؛ لأن مرتبة العبودية تستدعي إحسان السيد إلىٰ عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده؟ لولا فرط عُتُوِّهم، وإباؤهم عن

طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦] أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم، فإذا عذبتهم عذبتهم علىٰ علم منك بما تعذبهم عليه؛ فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلىٰ محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل: «الغفور الرحيم»، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ؛ فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلىٰ النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة؛ بل مقام براءة منهم، فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربَّه علىٰ أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم؛ فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه علىٰ مَن غضب الرب عليهم؛ فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلىٰ ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم... وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٠]، ولم يقل: «وإذا أمرضني» حفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقل: «فأراد ربك أن أعيبها»، وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، ولم يقولوا: «أراده بهم»، ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قول موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤]، ولم يقل: «أطعمني». اهـ(١).

[أنواع المحبة]

هَاهُنَا أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهَا، وَإِنَّمَا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ بِعَدَمِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهَا:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ اللهِ. وَلَا تَكْفِي وَحْدَهَا فِي النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَعُبَّادَ الصَّلِيبِ وَالْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ.

الثَّانِي: مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ اللهُ؛ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَتُخْرِجُهُ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ أَقْوَمُهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَأَشَدُّهُمْ فِيهَا.

الثَّالِثُ: الْحُبُّ لِلَّهِ وَفِيهِ؛ وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ مَا يُحِبُّ، وَلَا تَسْتَقِيمُ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ إِلَّا فِيهِ وَلَهُ.

وَالرَّابِعُ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللهِ؛ وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الشِّرْكِيَّةُ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شيئًا مَعَ اللهِ لَا لِلَّهِ، وَلَا مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا فِيهِ، فَقَدِ اتَّخَذَهُ نِدًّا مِنْ دُونِ اللهِ، وَهَذِهِ مَحَبَّةُ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَقِيَ قِسْمٌ خَامِسٌ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ وَهو: الْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ: وَهِيَ مَيْلُ الْإِنْسَانِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٩- ٣٨٣).

إِلَىٰ مَا يُلَائِمُ طَبْعَهُ؛ كَمَحَبَّةِ الْعَطْشَانِ لِلْمَاءِ، وَالْجَائِعِ لِلطَّعَامِ، وَمَحَبَّةِ النَّوْمِ وَالزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ، فَتِلْكَ لَا تُذَمُّ إِلَّا إذا أَلْهَتْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَشَغَلَتْ عَنْ مَحَبَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧]. اهـ[١].

[إيثار رضا الله على رضا غيره]

قال [الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «الدرجة الثانية من الإيثار: إيثار رضا الله علىٰ رضا غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطَّوْل والبدن».

إيثار رضا الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا ﷺ عليه وعليهم؛ فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلىٰ الله، واحتمل عداوة القريب والبعيد في الله تعالىٰ، وآثر رضا الله علىٰ رضا الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم؛ بل كان همُّه وعزمه وسعيه كله مقصورًا علىٰ إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتىٰ ظهر دين الله علىٰ كل دين، وقامت حجته علىٰ العالمين، وتمت نعمته علىٰ المؤمنين، فبلَّغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتىٰ أتاه اليقين من ربه؛ فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما ناله ﷺ.

وأمَّا قوله: «وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن»: فإن المحنة تعظم فيه

---

(١) «الداء والدواء» (٢٨١، ٢٨٢).

أولًا، ليتأخر من ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحًا، وصارت تلك المؤن عونًا. وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة؛ فإنه ما آثر عبد مرضاة الله ﷻ علىٰ مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر علىٰ محنته؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمَّل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانًا، ومظان عَطَبه نجاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضا، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذِلَّة المتهيبين.

هذا، وقد جرت سُنة الله -التي لا تبديل لها- أن من آثر مرضاة الخلق علىٰ مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنته علىٰ يديه؛ فيعود حامده ذامًّا، ومن آثر مرضاته ساخطًا فلا علىٰ مقصوده منهم حصل، ولا إلىٰ ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضا الخلق لا مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور؛ فهو مستحيل، بل لا بد من سخطهم عليك؛ فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض، فإذا كان سخطهم لا بد منه -علىٰ التقديرين- فآثِرْ سخطهم الذي ينال به رضىٰ الله، فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضا من لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم، وخاصة العقل احتمال أدنىٰ المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنىٰ المصلحتين لتحصيل أعلاهما؛ فوازن بعقلك، ثم انظر أيَّ الأمرين خير فآثِرْه، وأيهما شر فابعدْ عنه؛ فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضا الله علىٰ رضا الخلق. هذا مع أنه إذا آثر

رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لَمُصانعة وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها.

وقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رضا الناس غاية لا تدرك؛ فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه. ومعلوم أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا ربها ومولاها علىٰ غيره، ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنىٰ إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله؛ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًّا:

فليتك تحلو، والحياة مريرة ... وليتك ترضىٰ، والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صحَّ منك الود فالكل هَيِّن ... وكل الذي فوق التراب تراب

. اهـ[1].

[إيثار الخالق]

وهو إيثار رضاه علىٰ رضىٰ غيره، وإيثار حبه علىٰ حب غيره، وإيثار خوفه ورجائه علىٰ خوف غيره ورجائه، وإيثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق علىٰ بذل ذلك لغيره. وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به علىٰ تعلق ذلك بغيره؛ فالأول آثر بعض العبيد علىٰ نفسه فيما

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٤- ٣٠٦).

هو محبوب له، وهذا آثر الله علىٰ غيره ونفسه من أعظم الأغيار؛ فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله. وعلامة هذا الإيثار شيئان: **أحدهما**: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه، **الثاني**: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه؛ فبهذين الأَمرين يصح مقام الإيثار. ومؤنة هذا الإيثار شديدة لغلبة الأغيار وقوة داعي العادة والطبع؛ فالمحنة فيه عظيمة والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة. ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به، وإنه ليسير علىٰ مَن يسَّره الله عليه، فحقيق بالعبد أن يسمو إليه وإن صعُب المرتقىٰ، وأن يشمر إليه وإن عظمت فيه المحنة، ويحمل فيه خطرًا يسيرًا لمُلْك عظيم وفوز كبير؛ فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الأعمال، ويسير منه يُرقي العبد ويُسيِّره ما لا يرقىٰ غيره إليه في المدد المتطاولة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار، والذي يسهله علىٰ العبد أُمور:

أحدها: أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة، وليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة.

الثاني: أن يكون إيمانه راسخًا ويقينه قويًّا؛ فإن هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

الثالث: قوة صبره وثباته. فبهذه الثلاثة الأُمور ينهض إلىٰ هذا المقام ويسهل عليه دركه. والنقص والتخلف في النفس عن هذا يكون من أمرين:

أحدهما: أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك، بل بطيئة ولا تكاد ترىٰ حقيقة الشيء إلا بعد عسر، وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات، فلا يتخلص له رؤيتها وعيانها.



الثاني: أن تكون القريحة وقَّادة درَّاكة، لكن النفس ضعيفة مهينة؛ إذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن إيثاره، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض، كلما ساقه خطوة وقف خطوة، أو كسوق الطفل الصغير الذي تعلقت نفسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلىٰ رشده وهو ملتفت إلىٰ لهوه ولعبه لا ينساق معه إلا كرهًا. فإذا رزق العبد قريحة وقادة، وطبيعة منقادة: إذا زجرها انزجرت، وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين، وارتدىٰ مع ذلك بعلم نافع وإيمان راسخ، أقبلت إليه وفود السعادة من كل جانب. اهـ[١].

[من أعجب الأشياء]

من أعجب الأشياء: أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلىٰ انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلىٰ نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!

وأعجب من هذا: علمك أنك لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه، وأنت عنه مُعرض، وفيما يبعدك عنه راغب!. اهـ[٢]

---

(١) «طريق الهجرتين» (٣٠١، ٣٠٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (٧٢، ٧٣).

[السفر إلى الرَّبِّ]

لما سافر موسىٰ إلىٰ الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ [الكهف: ٦٢] فإنه سفر إلىٰ مخلوق.

ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها، لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلىٰ ربه تعالىٰ. وهكذا سفر القلب وسيره إلىٰ ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلىٰ بعض المخلوقين. اهـ[1].

[توقير الله ﷻ]

من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبُك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]، أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه. والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

قال الحسن: «ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه؟»، وقال مجاهد: «لا تبالون عظمة ربكم». وقال ابن زيد: «لا ترون لله طاعة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تعرفون حق عظمته».

وهذه الأقوال ترجع إلىٰ معنىٰ واحد؛ وهو أنهم لو عظَّموا الله وعرفوا حق

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧٢).

عظمته وحَّدوه وأطاعوه وشكروه؛ فطاعته سبحانه اجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب. ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يُسْتحىٰ من ذكره، فيقرن اسمه به؛ كما تقول: قَبَّح الله الكلبَ والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره ألا تعْدِل به شيئًا من خلقه؛ لا في اللفظ بحيث تقول: والله وحياتِك، ما لي إلا الله وأنت، وما شاء اللهُ وشئتَ، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظَّلَمة والفَجَرة، ولا في الخوف والرجاء. ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني علىٰ المسامحة، ولا يجعله علىٰ الفضلة ويُقدِّم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد، فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولُبه ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدَّمًا علىٰ مراد ربه. فهذا كله من عدم وقار الله في القلب. ومَن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم. وإنْ وقَّروه مخافة شره فذاك وقارُ بُغْض لا وقار حُب وتعظيم. ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه علىٰ سره وضميره فيرىٰ فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس. والمقصود أنَّ مَن لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟! القرآنُ والعلمُ وكلام الرسول ﷺ صِلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر

ورادع وموقظ قائم بك، فلا ما وردَ إليك وعظَك! ولا ما قام بك نَصَحَك! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك! فأنت كمُصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظًا وانزجارًا، وهو يطلب من غيره أن يتَّعظ وينزجر بالنظر إلىٰ مصابه. فالضربُ لم يؤثر فيه زجرًا وهو يريد الانزجار ممن نظر إلىٰ ضربه. اهـ(١).

[كيف يستقيم القلب؟]

استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالىٰ تتقدم عنده علىٰ جميع المحاب، فإذا تعارض حب تعالىٰ الله وحب غيره سبق حبُّ الله تعالىٰ حب ما سواه، فرتب علىٰ ذلك مقتضاه. ما أسهل هذا بالدعوىٰ وما أصعبه بالفعل؛ فعند الامتحان يُكرم المرء أو يهان. وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله علىٰ ما يحبه الله تعالىٰ. فهذا لم تتقدم محبة الله تعالىٰ في قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها، وسُنة الله تعالىٰ فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه، ولا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص؛ جزاء له علىٰ إيثار هواه وهوىٰ من يعظمه من الخلق أو يحبه علىٰ محبة الله تعالىٰ.

وقد قضىٰ الله تعالىٰ قضاء لا يرد ولا يدفع: أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بد، وأن من خاف غيره سلط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضىٰ غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بدَّ.

---

(١) «الفوائد» (٢٦٧، ٢٦٨).



الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي؛ فإن الله تعالىٰ ذمَّ من لا يعظم أمره ونهيه؛ قال ﷻ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: ١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالىٰ عظمة. ما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو ألا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرَّضا لتشديد غال، ولا يحملا علىٰ علة توهن الانقياد.

ومعنىٰ كلامه أن أول مراتب تعظيم الحق ﷻ تعظيم أمره ونهيه؛ وذلك المؤمن يعرف ربه ﷻ برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلىٰ كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله ﷻ واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالىٰ ونهيه دالًا علىٰ تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصدق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر.

فإن الرجل قد يتعاطىٰ فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ علىٰ المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر والناهي، فعلامة التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها والتفتيش علىٰ أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص علىٰ تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها؛ كمن يحزن علىٰ فوت الجماعة ويعلم أنه تقبلت منه صلاته منفردًا، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا. ولو أن رجلًا يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير

سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالىٰ.

فإذا فوَّت العبد عليه هذا الربح قطعًا -وكثير من العلماء يقول: لا صلاة له- وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا عدم تعظيم أمر الله تعالىٰ في قلبه، وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالىٰ، أو فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته علىٰ ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قرعة، وكذلك فَوْت الجَمْع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، كلما كثر الجَمْع كان أحب إلىٰ الله ﷻ، وكلما بعدت الخطا كانت خطوة تحط خطيئة، وأخرىٰ ترفع درجة. وكذلك فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالىٰ الذي هو روحها ولبها؛ فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يهدي إلىٰ مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جارية ميتة؟! فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟ فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة علىٰ الله تعالىٰ؛ فهي بمنزلة هذا العبد -أو الأمة- الميت الذي يريد إهداءه إلىٰ بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالىٰ منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها؛ فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها؛ كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليصلي الصلاة وما كُتب له إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، إلا خمسها، حتىٰ بلغ عشرها**»[(١)]. اهـ[(١)].

---

(١) رواه الإمام أحمد بنحوه (٤/ ٣٢١)، وأبو داود بنحوه في (الصلاة)، (ح٧٩٦).



[حُبُّ الحبيب ﷺ]

قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهذا دليل علىٰ أن مَن لم يكن الرسول أولىٰ به من نفسه، فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورًا:

منها: أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا فيجب أن يكونَ الرسول أولىٰ به منها، وأحبَّ إليه منها؛ فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة: كمالُ الانقياد، والطاعة، والرضىٰ، والتسليم، وسائر لوازم المحبة من الرضىٰ بحكمه، والتسليم لأمره، وإيثاره علىٰ كل من سواه.

ومنها: ألا يكون للعبد حُكْمٌ علىٰ نفسه أصلًا، بل الحكمُ علىٰ نفسه للرسول ﷺ، يحكمُ عليها أعظمَ من حُكْمِ السيد علىٰ عبده، والوالد علىٰ ولده؛ فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولىٰ به منها.

فيا عجبًا كيف تَحصُلُ هذه الأولوية لعبدٍ قد عَزَلَ ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورَضِيَ بحكم غيره، واطمأن إليه أعظمَ من طمأنينته إلىٰ رسول الله ﷺ، وزعم أن الهدىٰ لا يُتَلَقَّىٰ من مشكاته، وإنما يتلقىٰ من دلالات العقول، وأنَّ ما جاء به لا يفيد اليقين، إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراضَ عنه وعما جاء

---

(١) «الوابل الصيب» (١٥ - ١٩).

به، والحوالة في العلم النافع إلىٰ غيره، وذلك هو الضلال المبين.

ولا سبيلَ إلىٰ ثبوت هذه الأولوية إلَّا بعَزْلِ كل ما سواه، وتوليتِه في كل شيء، وعَرْضِ ما قاله كل أحد سواه علىٰ ما جاء به؛ فإن شهد له بالصحة قَبِلَه، وإن شهد له بالبطلان ردَّه، وإن لم تتبينْ شهادتُه له بصحةٍ ولا بطلانٍ جَعَلَه بمنزلة أحاديث أهل الكتاب، وَوَقَفَه حتىٰ يَتَبَيَّن أي الأمرين أولىٰ به.

فمن سلكَ هذه الطريقةَ استقامَ له سَفَرُ الهجرة، واستقام له علمُه وعملُه، وأقبلتْ وجوهُ الحقِّ إليه من كلِّ جهةٍ. اهـ[1].

[الأدب مع الرسول ﷺ]

أمَّا الأدب مع الرسول ﷺ فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شكًّا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزُبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسِلَ ﷻ بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول؛ فلا يحاكم إلىٰ غيره، ولا يرضىٰ بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره علىٰ عرضه علىٰ قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن

(١) «الرسالة التبوكية» (٩٣- ٩٥).

يعظمه؛ فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإنْ طَلَبَ السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمىٰ تحريفه: تأويلًا، وحملًا؛ فقال: نؤوله ونحمله. فلأنْ يلقىٰ العبدُ ربه بكل ذنب علىٰ الإطلاق -ما خلا الشرك بالله- خير له من أن يلقاه بهذه الحال. ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء، فقلت له: سألتك بالله، لو قُدِّر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا، وقد واجهنا بكلامه وبخطابه، أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه علىٰ رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتىٰ نعرض ما سمعناه منه علىٰ آراء الناس وعقولهم؟ فقال: بل كان الفرض المبادرة إلىٰ الامتثال من غير التفات إلىٰ سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟ فوضع إصبعه علىٰ فيه وبقي باهتًا متحيرًا، وما نطق بكلمة...

ومن الأدب مع الرسول ﷺ: ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف، حتىٰ يأمر هو، وينهىٰ ويأذن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا باقٍ إلىٰ يوم القيامة ولم ينسخ؛ فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تفتاتوا علىٰ رسول الله ﷺ بشيء حتىٰ يقضيه الله علىٰ لسانه». وقال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تقضوا أمرًا دون رسول الله ﷺ». وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب»؛ أي: لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه. وقال غيره: لا تأمروا حتىٰ يأمر، ولا تنهوا حتىٰ ينهىٰ.

ومن الأدب معه: ألا تُرفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سبب لحبوط

الأعمال، فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار علىٰ سُنته وما جاء به؟ أترىٰ ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: ألا يجعل دعاءه كدعاء غيره؛ قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا؛ بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ المفعول؛ أي: دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنىٰ: لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل؛ أي: دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه علىٰ أمر جامع -من خطبة، أو جهاد، أو رباط- لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتىٰ يستأذنه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة، ولم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: ألا يَستشكل قوله؛ بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقىٰ لنصوصه. ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا؛ نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به

ﷺ علىٰ موافقة أحد؛ فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة. اهـ(١).

ثالثًا: الرضا والتسليم
[مراتب الشكوى]

الجاهلُ يشكو الله إلىٰ الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه؛ فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناسَ لما شكا إليهم.

ورأىٰ بعضُ السلف رجلًا يشكو إلىٰ رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، واللهِ ما زدتَ علىٰ أن شكوت مَن يرحمكَ إلىٰ مَن لا يرحمكَ.

وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلىٰ ابن آدم إنما ... تشكو الرحيمَ إلىٰ الذي لا يرحمُ

والعارفُ إنما يشكو إلىٰ الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلىٰ الله من نفسه لا من الناس؛ فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه؛ فهو ناظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالمراتب ثلاثة:

أخسها: أن تشكو الله إلىٰ خلقه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٠- ٣٩٣).

وأعلاها: أن تشكو نفسك إليه.

وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه. اهـ[(١)].

[حبس القلب وحبس اللسان]

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرُه وطلبُه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلىٰ غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه علىٰ ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها علىٰ الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتىٰ يلقىٰ ربه، فيخلصه من السجن إلىٰ أوسع فضاء وأطيبه. ومتىٰ لم يصبر علىٰ هذين الحبسين، وفرَّ منهما إلىٰ فضاء الشهوات؛ أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا؛ فكل خارج من الدنيا إمَّا متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلىٰ الحبس... وبالله التوفيق. اهـ[(٢)].

[العبودية التامَّة]

الصبرُ حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوىٰ، وحبس الجوارح عن المعصية؛ كاللطم، وشق الثياب، ونتف الشعر ونحوه. فمدار الصبر علىٰ هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت

---

(١) «الفوائد» (١٣٠، ١٣١).

(٢) «الفوائد» (٨٣).



المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله ﷻ لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن لله تعالىٰ علىٰ العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالىٰ؛ فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفقته عليها وعلىٰ عياله ونفسه عبودية. هذا، والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عبودية، ولكن فرق عظيم بين العبودتين. فمن كان عبدًا لله في الحالتين قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب، فذلك الذي تناوله قوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]... وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، ولما علم عدو الله إبليس أن الله تعالىٰ لا يُسْلم عباده إليه ولا يسلطه عليهم قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]. فلم يجعل لعدوه سلطانًا علىٰ عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل الغافل فهذا لا بد

منه؛ لأن العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله علىٰ العبد من هذه الأبواب الثلاثة ولو احتزر العبد ما احتزر، فلا بد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب...

فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته، حتىٰ يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنىٰ قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالىٰ، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتىٰ يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها علىٰ ربه، ويتكبر بها ويرىٰ نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول: فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالىٰ بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه.



فإنَّ العارفين كلهم مجمعون علىٰ أن التوفيق ألا يكلك الله تعالىٰ إلىٰ نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالىٰ إلىٰ نفسك. فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلىٰ الله تعالىٰ والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده. فالعارف سائر إلىٰ الله تعالىٰ بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتىٰ فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: العارف يسير إلىٰ الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل... فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وألا يرىٰ نفسه إلا مفلسًا، وأقرب باب دخل منه العبد علىٰ الله تعالىٰ هو الإفلاس؛ فلا يرىٰ لنفسه حالًا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل علىٰ الله تعالىٰ من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض؛ دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتىٰ وصلت تلك الكسرة إلىٰ سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلىٰ ربه ﷻ، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلىٰ ربه تبارك وتعالىٰ، وأنه إن تخلىٰ عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالىٰ عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلىٰ الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوىٰ. والعبودية مدارها علىٰ قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام. ومنشأ هذين

الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين -وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام- وإذا كان العبد قد بنىٰ سلوكه إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ هذين الأصلين، لم يظفر عدوه به إلا علىٰ غرة وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله ﷻ ويجبره ويتداركه برحمته. اهـ(١).

[شرح لحديث عظيم]

رواه النسائي، والإمام أحمد، وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم، من حديث عمار بن ياسر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «**اللهمَّ بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحْيِني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيمًا لا ينفَد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك الشوقَ إلىٰ لقائك، في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّة، ولا فتنة مُضلة، اللهمَّ زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين**»(٢).

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا -وهو الشوق إلىٰ لقائه سبحانه- وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظر إلىٰ وجهه سبحانه، ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفًا علىٰ عدم ما يضر في الدنيا، ويفتن في الدين قال:

---

(١) «الوابل الصيب» (١١- ١٥).

(٢) النسائي في (السهو)، (ح١٣٠٥)، وأحمد (٤/ ٣٦٤).

«في غير ضرَّاء مُضرة، ولا فتنة مُضلة».

ولما كان كمال العبد في أن يكون عالمًا بالحق، متَّبعًا له، معلِّمًا لغيره، مرشدًا له، قال: «**اجعلنا هُداة مهتدين**».

ولما كان الرضا النافع المحصِّل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله؛ فإن ذلك عَزْمٌ علىٰ الرضا، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضا بعده؛ فإن المقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما، كما في «المسند» وغيره عنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم: «**إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضىٰ الله، وإن من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضىٰ الله تعالىٰ**»[(١)].

ولما كانت خشية الله ﷻ رأس كل خير في المشهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة. ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلىٰ الباطل، وقد يدخله أيضًا رضاه في الباطل، سأل الله ﷻ أن يوفِّقه لكلمة الحق في الغضب والرضا، ولهذا قال بعض السلف: «لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق».

ولما كان الفقر والغنىٰ بَلِيَّتَيْنِ ومِحْنتين يبتلي الله بهما عبده؛ ففي الغنىٰ يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله ﷻ القصد في الحالين، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

---

(١) رواه أحمد بنحوه (١/ ١٦٨)، والترمذي بنحوه في (القدر)، (ح٢١٥١).

ولما كان النعيم نوعين: نوعًا للبدن، ونوعًا للقلب؛ وهو قرة العين، وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: «**أسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع**».

ولما كانت الزينة زينتين: زينة البدن، وزينة القلب، وكانت زينة القلب أعظمهما قدرًا وأجلهما خطرًا، وإذا حصلت حصلت زينة البدن علىٰ أكمل الوجوه في العُقْبَىٰ، سأل ربه الزينة الباطنة فقال: «**زيِّنَّا بزينة الإيمان**».

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرُد لأحد كائنًا من كان، بل هو محشوٌّ بالغُصَص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، سأل بردَ العيش بعد الموت.

والمقصود: أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة. اهـ[1].

[الخير فيما اختاره الله]

لما كان العبد محتاجًا في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلىٰ علم بما فيه من المصلحة وقدرة عليه وتيسر له، وليس له من نفسه شيء من ذلك، بل علمه ممن علم الإنسان ما لم يعلم وقدرته منه؛ فإن لم يقدره عليه وإلا فهو عاجز، وتيسيره منه؛ فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره، أرشده[2] النبي ﷺ إلىٰ محض العبودية؛ وهو جلب الخيرة من العالم بعواقب الأمور

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٣٣، ٣٤).

(٢) قوله: (أرشده) هو جواب (لمَّا) المذكورة في أول الكلام.



وتفاصيلها وخيرها وشرها، وطلب القدرة منه؛ فإنه إن لم يقدره وإلا فهو عاجز، وطلب فضله منه، فإن لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متعذر عليه. ثم إذا اختاره له بعلمه وأعانه عليه بقدرته ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلىٰ أن يبقيه عليه ويديمه بالبركة التي يضعها فيه. والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قَدْرٌ زائد علىٰ إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل به ذلك كله فهو محتاج إلىٰ أن يرضِّيه به؛ فإنه قد يخير له ما يكرهه، فيظل ساخطًا له وقد خار الله له فيه.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن الرجل ليستخير الله فيختار له، فيسخط علىٰ ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خار له».

وفي المسند من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ: «**من سعادة ابن آدم استخارته الله تعالىٰ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضىٰ الله**»[(١)].

فالمقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبله، والرضا بعده؛ فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يختار قبل وقوعه، ويرضىٰ بعد وقوعه، ومن خذلانه له ألا يستخيره قبل وقوعه، ولا يرضىٰ به بعد وقوعه.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا أبالي أصبحت علىٰ ما أحب أو علىٰ ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره؟».

وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تكرهوا النقمات الواقعة والبلايا الحادثة، فلرُبَّ

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠٣).

أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربَّ أمر تؤثره فيه عطبك». اهـ[(١)].

[اختيار الله للعبد]

فاختيار الرب تعالىٰ لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي؛ فالواجب علىٰ العبد ألا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا.

النوع الثاني: اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده، فهذا لا يضره فِراره منها إلىٰ القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر، فهذا يكون تارة واجبًا، وتارة يكون مستحبًّا، وتارة يكون مباحًا مستوي الطرفين، وتارة يكون مكروهًا، وتارة يكون حرامًا.

وأمَّا القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه -مثل قَدَر المعائب والذنوب- فالعبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضا بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء.

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابًا عظيمًا، ونجا منه أصحاب الفرق

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ١٤٥، ١٤٦).



والتفصيل... والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه -من الصحة، والغنىٰ، والعافية، واللذة- أمر لازم بمقتضىٰ الطبيعة؛ لأنه ملائم للعبد، محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وألا يعصي المنعم بها، وأن يرىٰ التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري علىٰ خلاف مراد العبد ومحبته -مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره- مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر، وأذىٰ الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه، وينهىٰ عنه -كأنواع الظلم والفسوق والعصيان- حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالىٰ؛ فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء. اهـ[1].

[الرضا بالله ربًّا]

الرضا بالله ربًّا: ألا يتخذ ربًّا غير الله تعالىٰ يسكن إلىٰ تدبيره، وينزل به حوائجه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيدًا وإلهًا» يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء؟

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٩٦- ٢٠٠).

وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ؛ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي مَن يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحُكَّام، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلًا مبينًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتقًّا منها؛ فكثير من الناس يرضىٰ بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضىٰ به وحده وليًّا وناصرًا؛ بل يوالي من دونه أولياء، ظنًّا منه أنهم يقربونه إلىٰ الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك.

وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد: ألا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه؛ فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه. وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضىٰ بحكمه.

وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهًا، ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه، وهذا هو الرضا بالله إلهًا، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا؛ فمن أعطي الرضا به ربًّا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية. اهـ[(١)].

[الرضا بالله ربًّا وبمحمد ﷺ رسولاً]

قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»[(٢)]، وقال: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا؛ غُفرت له ذنوبه**»[(٣)].

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي. وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصديق حقًّا، وهي سهلة بالدعوىٰ واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان؛ ولا سيما

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) رواه مسلم في (الإيمان)، باب (١١): (الدليل علىٰ أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا فهو مؤمن...)، (١/ ٦٢)، (ح٣٤).

(٣) أخرجه مسلم بأطول منه في (الصلاة)، باب (٧): (استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه)، (١/ ٢٩٠)، (ح٣٨٦).

إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادها من ذلك تبين أن الرضا كان علىٰ لسانه به لا علىٰ حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوىٰ الإرادة والحب كلها إليه، فِعل الراضي بمحبوبه كل الرضا؛ وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. **والثاني**: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولىٰ به من نفسه؛ فلا يتلقىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يُحكِّم عليه غيره، ولا يرضىٰ بحكم غيره ألبتة؛ لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه.

لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره، ولا يرضىٰ إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم. وأحسن أحواله: أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.



وأما الرضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهىٰ: رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه. وسلَّم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلِّده وشيخه وطائفته.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم؛ فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد؛ فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به ربًّا، وبمحمد ﷺ رسولًا وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب، وذاق حلاوته، وتَنَسَّم روحه، قال: اللهم زدني اغترابًا، ووحشة من العالم، وأنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد: رأىٰ الوحشة عين الأنس بالناس، والذل عين العز بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم، وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم؛ فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يَبِعْ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان.

وغايته: مودَّة بينهم في الحياة الدنيا. فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبُعثِر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وبليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر؛ تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران، وما الذي يَخِف أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان. اهـ[1].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٠، ١٨١).

[التسليم وعدم الأسئلة]

إن مبنىٰ العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله علىٰ التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت نبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها علىٰ معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها، وكان رسولها أعظم في صدورها من سؤالها عن ذلك؛ كما في الإنجيل: «يا بني إسرائيل، لا تقولوا: لم أمر ربنا، ولكن قولوا: بم أمر ربنا»، ولهذا كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولًا ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها لِمَ أمر الله بذلك؟ ولم نهىٰ عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا علىٰ درجة التسليم، وذلك يوجب تعظيم الرب تعالىٰ وأمره ونهيه، فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه، ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلىٰ قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه.

وتعظيم الأمر دليل علىٰ تعظيم الآمر، وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم علىٰ امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع



والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به علىٰ أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورًا به، بحيث يتوقف الإنسان علىٰ معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فهذا من عدم عظمته في صدره، بل يسلم لأمر الله وحكمته، ممتثلًا ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر، أو فقهها العقل، كانت زيادة في البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته لم يوهن ذلك انقياده، ولم يقدح في امتثاله؛ فالمعظم لأمر الله يجري الأوامر والنواهي علىٰ ما جاءت، لا يعللها بعلل توهنها وتخدش في وجه حسنها، فضلًا عن أن يعارضها بعلل تقتضي خلافها، فهذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء. اهـ(١).

[التسليم أو الحرج]

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم -سبحانه- بنفسه المقدسة قسمًا مؤكدًا بالنفي قبله علىٰ عدم إيمان الخلق حتىٰ يُحكِّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع، وأحكام الشرع، وأحكام المعاد، وسائر الصفات وغيرها.

ولم يُثْبِت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتىٰ ينتفي عنهم الحرج؛ وهو

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥٦٠- ١٥٦٢).

ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول.

ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا حتىٰ ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضا والتسليم، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض.

فهنا قد يُحكِّم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه.

ولا يلزم من انتفاء الحرج والرضا والتسليم والانقياد؛ إذ قد يحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه، ولكن لا ينقاد قلبه، ولا يرضىٰ كل الرضىٰ بحكمه.

والتسليم أخص من انتفاء الحرج، فالحرج مانع، والتسليم أمر وجودي.

ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه؛ إذ قد ينتفي الحرج ويبقىٰ القلب فارغًا منه ومن الرضىٰ به والتسليم له، فتأمله.

وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالىٰ أقسم علىٰ انتفاء إيمان أكثر الخلق.

وعند الامتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدَّعي الإسلام أم لا؟

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اهـ[1].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢/ ٣١٨- ٣٢٠).



رابعًا: التوكل

[معنى التوكل]

قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «التوكل عمل القلب». ومعنىٰ ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم: من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب، فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل بقلبه كيف يشاء. وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار. قال سهل: التوكل: الاسترسال مع الله علىٰ ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا، فيقول: هو الرضا بالمقدور.

قال بشر الحافي: «يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله؛ يكذب علىٰ الله، ولو توكل علىٰ الله رضي بما يفعل الله».

وسئل يحيىٰ بن معاذ: متىٰ يكون الرجل متوكلًا؟ فقال: «إذا رضي بالله وكيلًا».

ومنهم: من يفسره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه، والسكون إليه.

قال ابن عطاء: التوكل ألا يظهر فيك انزعاج إلىٰ الأسباب، مع شدة فاقتك

إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلىٰ الحق مع وقوفك عليها.

قال ذو النون: هو ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوىٰ العبد علىٰ التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرىٰ ما هو فيه.

وقال بعضهم: التوكل التعلق بالله في كل حال.

وقيل: التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلىٰ من إليه الكفايات.

وقيل: نفي الشكوك، والتفويض إلىٰ مالك الملوك.

وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب. يريد قطعها من تعلق القلب بها؛ لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم: من جعله مُرَكبًا من أمرين أو أمور:

فقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب. يريد: حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكون إلىٰ المسبب، وركون إليه، ولا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلىٰ رضاه.

وقال أبو تراب النَّخْشَبي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلىٰ الكفاية؛ فإن أعطي شكر، وإن مُنع صبر. فجعله مركبًا من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلىٰ قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أعطىٰ، وصبره إذا منع.



قال أبو يعقوب النهرجوري: التوكل علىٰ الله بكمال الحقيقية، كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام: «أما إليك فلا»؛ لأنه غائب عن نفسه بالله، فلم ير مع الله غير الله.

وأجمع القوم علىٰ أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب؛ فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السُّنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته؛ فمن عمل علىٰ حاله فلا يتركن سنته. وهذا معنىٰ قول أبي سعيد: «هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب»، وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: التوكل قطع علائق القلب بغير الله.

وسئل سهل عن التوكل، فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وقيل: التوكل أن يستوي عندك الإكثار والإقلال. وهذا من موجباته وآثاره، لا أنه حقيقته. اهـ[١].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢١- ١٢٣).

[معنى التوكل والاستعانة]

هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلىٰ غير أبويه، وحبس همِّه علىٰ إنزال ما ينوبه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه. و«الحسب»: الكافي. فإن كان -مع هذا- من أهل التقوىٰ كانت له العاقبة الحميدة. اهـ[١].

[التوكل نصف الدين]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وفي «الصحيحين» -في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٤).

حساب-: «**هم الذين لا يَسْترقون، ولا يتطيرون، ولا يَكْتَوون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**»(١).

وفي «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣](٢).

وفي «**الصحيحين**»: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»(٣).

وفي الترمذي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مرفوعًا: «لو أنكم تتوكلون علىٰ الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**(٤).

وفي السنن، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال** -يعني إذا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الطب)، (ح٥٧٠٥)، ومسلم بنحوه في (الإيمان)، (ح٢٢٠).

(٢) رواه البخاري في (تفسير القرآن)، (ح٤٥٦٣).

(٣) رواه مسلم في (الذكر والدعاء)، باب (١٨): (التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل)، (٤/ ٢٠٨٦)، (ح٢٧١٧)، ولم أجده عند البخاري بهذا اللفظ، وإنما بلفظ: «**أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**» برقم (٧٣٨٣).

(٤) الترمذي في (الزهد)، باب (التوكل علىٰ الله)، (ح٢٣٤٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه في (الزهد)، باب (التوكل واليقين)، رقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، برقم (٣٣٥٩).

خرج من بيته- **بسم الله توكلتُ علىٰ الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت، فيقول الشيطانُ لشيطان آخر: كيف لك برجلٍ قد هُدي وكُفي ووُقي؟**»[١].

«**التوكل**»: نصف الدين، والنصف الثاني: «الإنابة»، فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل: هو الاستعانة، والإنابة: هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم، فأهل السماوات والأرض -المكلفون وغيرهم- في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم؛ فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم، وفي إقامته في الخلق، فيتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغًا عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه؛ من رزق أو عافية، أو نصر علىٰ عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

---

(١) رواه أبو داود في (الأدب)، باب (ما يقول الرجل إذا خرج من بيته)، برقم (٥٠٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٤٩)، ورواه الترمذي في (الدعوات)، باب (ما يقول إذا خرج من بيته)، (ح٣٤٢٦).



ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان، وحصول الإثم والفواحش؛ فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه؛ بل قد يكون توكلهم أقوىٰ من توكل كثير من أصحاب الطاعات؛ ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين علىٰ الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب -أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس- وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بعدُ في التوكل علىٰ حسب هممهم ومقاصدهم؛ فمن متوكل علىٰ الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله علىٰ الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوبًا له مرضيًّا كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به علىٰ طاعاته، والله أعلم. اهـ[(١)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٩، ١٢٠).

[أطيب العيش في التوكل]

من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة، أو خوف نقصان، أو طلب صحة، أو فرار من سقم، وعلم أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد، وأقدر علىٰ جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد منه لنفسه، وأرحم به منه بنفسه، وأبر به منه بنفسه، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة؛ فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر؛ فألقىٰ نفسه بين يديه، وسلم الأمر كل إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر، له التصرف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجهٍ من الوجوه استراح[١] حينئذ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات وحَمَّل كل حوائجه ومصالحه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها، فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه؛ لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه، وجعله وحده همَّه، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفرَّغ قلبه منها، فما أطيب عيشه! وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه!

وإن أبىٰ إلا تدبيره لنفسه واختياره لها، واهتمامه بحظه، دون حق ربه خلاه وما اختاره، وولاه ما تولىٰ؛ فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب

---

(١) قوله (استراح) هو جواب الاسم الموصول: (من) المذكور أول الكلام.



وكسف البال وسوء الحال، فلا قلب يصفو، ولا عمل يزكو، ولا أمل يحصل، ولا راحة يفوز بها، ولا لذة يتهنىٰ بها، بل قد حيل بينه وبين مسرَّته وفرحه وقرة عينه؛ فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش، ولا يظفر منها بأمل، ولا يتزود منها لمعاد.

والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضمانًا؛ فإن قام بأمره بالنصح والصدق والإخلاص والاجتهاد، قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج؛ فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عَبَدَه، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به، والكفاية لمن كان هو همه ومراده، والمغفرة لمن استغفره، وقضاء الحوائج لمن صدقه في طلبها ووثق به وقوي رجاؤه وطمعه في فضله وجوده.

فالفَطِنُ الكيِّس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيته لا بضمانه؛ فإنه الوفي الصادق، ومن أوفىٰ بعهده من الله. فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلىٰ أمر الله دون ضمانه. ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه... والله المستعان. اهـ[1].

[أعظم التوكل]

التوكل علىٰ الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

---

(١) «الفوائد» (١٦٧، ١٦٨).

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله؛ فمتىٰ توكل عليه العبدُ في النوع الثاني حقَّ توكله؛ كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتىٰ توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضًا، لكنْ لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه.

فأعظم التوكل عليه: التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرُّسل وخاصة أتباعهم.

والتوكل تارةً يكون توكل اضطرار وإلجاء بحيث لا يجد العبدُ ملجأ ولا وزرًا إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسبابُ، وضاقت عليه نفسه، وظنَّ أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير ألبتة. وتارة يكون توكل اختيار؛ وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلىٰ المراد، فإن كان السبب مأمورًا به ذمَّ علىٰ تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم علىٰ تركه أيضًا؛ فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما. وإن كان السبب محرمًا حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبقَ سبب سواه؛ فإن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوىٰ الأسباب علىٰ الإطلاق. وإن كان السبب مباحًا نظرت هل يُضْعِف قيامك به التوكلَ أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرَّق عليك قلبك وشتت همَّك، فتركه أولىٰ، وإن لم يضعفه فمباشرته أولىٰ؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام



بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة.

والذي يحقق لتوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلىٰ حصول الخير يحقق رجاءه؛ فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطَّلها يكون توكله عجزًا وعجزه توكلًا.

وسرُّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب علىٰ الله وحده؛ فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت علىٰ الله؛ مع اعتماده علىٰ غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد: توكلت علىٰ الله، مع اعتماد قلبه علىٰ غيره مثل قوله: تُبتُ إلىٰ الله، وهو مُصِرٌّ علىٰ معصيته مرتكب لها. اهـ[1].

[درجات التوكل]

الدرجة الأولىٰ: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلىٰ علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا

---

(١) «الفوائد» (١٢٩، ١٣٠).

من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضًا من الجهمية النفاة لصفات الرب ﷻ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات...

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات:

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلمْ أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة؛ لأن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به، فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببًا، ولا جعل دعاءه سببًا لنيل شيء، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله إن كان قد قُدِّر حصل، توكل أو لم يتوكل، دعا أو لم يدع، وإن لم يقدر لم يحصل، توكل -أيضًا- أو ترك التوكل...

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل:

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتىٰ يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب؛ فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول. وعلىٰ قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل؛ فإن العبد متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله علىٰ الله بقدر ذهاب تلك الشعبة؛ ومن هاهنا ظن مَن ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق؛ لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح؛ فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متصلًا بها، والله ﷻ أعلم.



الدرجة الرابعة: اعتماد القلب علىٰ الله، واستناده إليه، وسكونه إليه: بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها؛ بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلىٰ مسببها.

وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده علىٰ الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأىٰ حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربه إليه، وأغلق عليه باب الحصن؛ فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنىٰ له.

وكذلك من أعطاه ملك درهمًا فسُرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه فلا تهتم، متىٰ جئت إليَّ أعطيتك من خزائني أضعافه؛ فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به، واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه، وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلىٰ غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمه؛ كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلىٰ ربه سبحانه.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله ﷻ:

فعلىٰ قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه؛ ولذلك فسَّر

بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلىٰ التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل علىٰ من ساء ظنك به، ولا التوكل علىٰ من لا ترجوه، والله أعلم.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته:

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنىٰ قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير؛ يعني: الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك؛ لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده، والله ﷻ أعلم...

الدرجة السابعة: التفويض:

وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلىٰ الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب علىٰ أمره: كل أموره إلىٰ أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرىٰ أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها، فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلىٰ أبيه، وراحته من حمل



كُلَفها وثقل حملها، مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته...

الدرجة الثامنة: وهي «الرضا»:

وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكل حقَّ التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمَن توكل علىٰ الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية، أو معنىٰ هذا.

قلت: وهذا معنىٰ قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمكَ، وأستقدرك بقدرتكَ، وأسألك من فضلك العظيم**»[1]، فهذا توكل وتفويض. ثم قال: «**فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب**»، فهذا تبرؤ إلىٰ الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته، عاجلًا أو آجلًا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته، عاجلًا أو آجلًا. فهذا هو حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: «**واقْدُرْ لي الخيرَ حيث كان، ثم رَضِّني به**».

فقد اشتمل هذا الدعاء علىٰ هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية،

---

(١)(رواه البخاري في الدعوات)، باب (٤٨) الدعاء عند الاستخارة ح (٦٣٨٢).

التي من جملتها: التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته؛ فإن لم يرض بما قضي له، فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثماني يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمه فيه. وهذا معنىٰ قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله؛ يكذب علىٰ الله، لو توكل علىٰ الله لرضي بما يفعله الله به.

وقول **يحيىٰ بن معاذ** وقد سئل: متىٰ يكون الرجل متوكلًا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلًا. اهـ[1].

[اشتباه التوكل المحمود بالتوكل المذموم]

كثيرًا ما يشتبه في هذا الباب المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه **التفويض بالإضاعة**؛ فيضيع العبد حظه ظنًّا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه: **اشتباه التوكل بالراحة**، وإلقاء حمل الكَلِّ؛ فيظن صاحبه أنه متوكل، وإنما هو عامل علىٰ عدم الراحة. وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريح من غيرها لتعبه بها. والعامل علىٰ الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة، وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥ - ١٣٠).

لون، وهذا لون.

ومنه: **اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها**؛ فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها، وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: **اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز**؛ والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها؛ كغارس الشجرة، وباذرالأرض. والمغتر العاجز قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: **اشتباه الطمأنينة إلىٰ الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلىٰ المعلوم، وسكون القلب إليه**، ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأىٰ رجلًا بمكة لا يتناول شيئًا إلا شربة من ماء زمزم، فمضىٰ عليه أيام، فقال له أبو سليمان يومًا: أرأيت لو غارت زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقام وقبَّل رأسه، وقال: جزاك الله خيرًا، حيث أرشدتني؛ فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضىٰ.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلىٰ المعلوم، وهم يظنون أنه إلىٰ الله، وعلامة ذلك: أنه متىٰ انقطع معلوم أحدهم حضره هَمُّه وبثُّه وخوفه؛ فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكونا إلىٰ الله. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٠).

[توكيل يُوقِع في الغبن]

كثيرٌ من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله؛ وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون؛ كمن صرف توكله إلىٰ حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه نيلها بأيسر شيء، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيرًا. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله، ودعاءه إلىٰ وجع يمكن مداواته بأدنىٰ شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلىٰ نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين، والله أعلم. اهـ[1].

[العجز والكيس]

رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أُحد: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فتجهزوا وخرجوا للقاء عدوهم، وأعطوهم الكيس من نفوسهم، ثم قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فجعل التوكل بعد التقوىٰ الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل علىٰ الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٢، ١٣٣).



ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [المائدة: ١١]، فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها.

ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كاف في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلىٰ مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز، بحسب ما عطلوا من الأسباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا الهم كله وصيروه همًّا واحدًا، وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه، ففيه ضعف من جهة أخرىٰ، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده أضعفه التفريطُ في السبب الذي هو محل التوكل، فإن التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل علىٰ الله فيها، وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض، وألقىٰ فيها البذر، فتوكل علىٰ الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطىٰ التوكل حقه، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض، وتخليتها بورًا، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جده في السير، وتوكل الأكياس من النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، مع اجتهادهم في طاعته، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حسب من قام به. وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حسب صاحبه؛ فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعًا

وقدرًا، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته، فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم وكفايته إياهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة، بحسب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل علىٰ الله، كما قال بعض السلف: مَن سره أن يكون أقوىٰ الناس فليتوكل علىٰ الله؛ فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوىٰ والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما، لا بد أن يجعل الله له مخرجًا من كل ما ضاق علىٰ الناس، ويكون الله حسبه وكافيه. والمقصود أن النبي ﷺ أرشد العبد إلىٰ ما فيه غاية كماله، ونيل مطلوبه، أن يحرص علىٰ ما ينفعه، ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب، وقول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، بخلاف من عجز وفرط حتىٰ فاتته مصلحته، ثم قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسبه، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكل عليه. اهـ[1].

[كيف يندفع شر الحاسد؟]

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله تعالىٰ من شره، واللجوء والتحصن به، واللجوء إليه...

السبب الثاني: تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونفيه؛ فمن أتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه، ولم يكله إلىٰ غيره؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٦٢- ٣٦٤).

﴿كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله ابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»(١)، فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر علىٰ عدوه، وألا يقابله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر علىٰ حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل علىٰ الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه؛ فإنه كلما بغىٰ عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر؛ فبغيه سهام يرميها من نفسه إلىٰ نفسه، ولو رأىٰ المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرىٰ إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفىٰ حقه أولًا، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه؟ بل بغي عليه وهو صابر.

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سُنة الله: أنه لو بغىٰ جبل علىٰ جبل جعل الباغي منهما دكًا.

السبب الرابع: التوكل علىٰ الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، والتوكل من أقوىٰ الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوىٰ الأسباب في ذلك؛ فإن الله حسبه؛ أي: كافيه،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧)، والترمذي في (صفة القيامة)، (ح٢٥١٦).

ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذىٰ لا بد منه؛ كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده؛ فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفىٰ به منه؛ قال بعض السلف: جعل الله تعالىٰ لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده؛ فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد علىٰ الله تعالىٰ حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهنَّ، لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره...

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، وأقوىٰ الأسباب المعينة علىٰ اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر...

وهذا باب عظيم النفع، لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتىٰ يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرىٰ من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق روحه به، ولا يرىٰ شيئًا آلم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه

واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلًا، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا:

بالسبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه، وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره؛ كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبه انصرافًا عن ذكره، ولا روحه انصرافًا عن محبته، فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورًا بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته.

بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها ونزل بها، مالك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور.

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ

مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال في حق الصديق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن وصار داخل اليزك، لقد آوىٰ إلىٰ حصن لا خوف علىٰ من تحصن به، ولا ضيعة علىٰ من آوىٰ إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

السبب السابع: تجريد التوبة إلىٰ الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه؛ فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال لخير الخلق -وهم أصحاب نبيه- دونه ﷺ-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فما سلط علىٰ العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله وعلمه أضعاف ما يذكره.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قفْ حتىٰ أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه، وتاب وأناب إلىٰ ربه، ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلىٰ الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفىٰ به، فما يكاد العين والحسد والأذىٰ يتسلط علىٰ محسن متصدق،

وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية وحصن حصين؛ وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

ومن أقوىٰ الأسباب حسد الحاسد والعائن؛ فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبُه حتىٰ تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفئ ناره -لا أطفأها الله- فما حرس العبد نعمة الله تعالىٰ عليه بمثل شكرها، ولا عرَّضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله وهو كفران النعمة، وهو باب إلىٰ كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم علىٰ فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر... والله المستعان.

السبب التاسع -وهو من أصعب الأسباب علىٰ النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله-: وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذىٰ وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٦]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكىٰ عنه نبينا ﷺ أنه ضربه قومه حتىٰ أدموه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[1]؛ كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه: **أحدها**: عفوه عنهم. **والثاني**: استغفاره لهم. **الثالث**: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. **الرابع**: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: «**اغفر لقومي**»، كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي... فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا علىٰ النفس ويطيبه لها وينعمها به: اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك.

ومع هذا لا يقتصر علىٰ مجرد العفو والمسامحة حتىٰ ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم، ليعاملك الله هذه المعاملة؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاءً وفاقًا، فانتقم بعد ذلك أو اعف، وأحسن أو اترك، فكما تدين تُدان، وكما تفعل مع

---

(١) رواه البخاري في (أحاديث الأنبياء)، (ح٣٤٧٧).



عباده يُفْعل معك، فمن تصور هذا المعنىٰ وشغل به فكره، هان عليه الإحسان إلىٰ من أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكىٰ إليه قرابته وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، فقال: «**لا يزال معك من الله ظهير ما دمتَ علىٰ ذلك**»[1]، هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه علىٰ خصمه، فإن كل من سمع أنه يحسن إلىٰ ذلك الغير وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن علىٰ المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعًا ولا خبزًا، هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدىٰ حالتين: إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد له ويذل له ويبقىٰ من أحب الناس إليه، وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره إن أقام علىٰ إساءته إليه؛ فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنِّه وكرمه.

وفي الجملة؛ ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد علىٰ مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة.

السبب العاشر -وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب-: وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلىٰ المسبب العزيز الحكيم.

والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها

(١) رواه مسلم في (البر والصلة والآداب)، (ح٢٥٥٨).

وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه؛ فهو الذي يحسن علىٰ عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»(١)، فإذا جرَّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه عن أن يخافه مع الله تعالىٰ، بل يفرد الله بالمخافة، وقد أمنه منه، وخرج عن قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره، فيرىٰ أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده.

وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولىٰ حفظه والدفع عنه؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا فالله يدفع عنه ولا بد، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مُزِج له، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل علىٰ الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد: حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين؛ قال بعض السلف: من خاف الله خاف كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧)، والترمذي في (صفة القيامة)، (ح٢٥١٦).



فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلىٰ الله وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وألا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه. ومتىٰ علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وُكِل إليه وخُذل من جهته؛ فمن خاف شيئًا غير الله سُلِّط عليه، ومن رجا شيئًا سوىٰ الله خُذِل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢، الفتح: ٢٣]. اهـ[١].

[الالتفات إلى الأسباب]

قال بعض أهل العلم: الالتفات إلىٰ الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب -أن تكون أسبابًا- تغيير في وجه العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، والتوكل معنىٰ يلتئم من معنىٰ التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح وتقييد: فالالتفات إلىٰ الأسباب ضربان؛ أحدهما: شرك، والآخر: عبودية وتوحيد، فالشرك: أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود؛ فهو معرض عن المسبِّب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورًا عليها، وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها: فهذا الالتفات عبودية وتوحيد؛ إذ لم يشغله عن الالتفات إلىٰ المسبب؛ وأما محوها أن تكون أسبابًا فقدح في العقل والحس

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٣- ٢٠٩).

والفطرة؛ فإن أعرض عنها بالكلية كان ذلك قدحًا في الشرع، وإبطالًا له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب علىٰ المسبب، واعتقاد أنها بيده؛ فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل: لا يلتفت إلىٰ الأسباب؛ بمعنىٰ أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها -بمعنىٰ أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها- بل يكون قائمًا بها، ملتفتًا إليها، ناظرًا إلىٰ مسببها سبحانه ومجريها؛ فلا يصح التوكل -شرعًا وعقلًا- إلا عليه سبحانه وحده؛ فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده، فهو الذي سبب الأسباب، وجعل فيها القوىٰ والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سببًا يقتضي وحده أثره، بل لا بد معه من سبب آخر يشاركه، وجعل لها أسبابًا تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه؛ فإنها لا تحتاج إلىٰ أمر آخر، ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته، فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله، والجميع بمشيئته واختياره، فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف الخلق به ﷺ: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[١]، وقال «**لا منجىٰ ولا ملجأ منك إلا إليك**»[٢].

---

(١) رواه مسلم في (الصلاة)، باب (٤٢): (ما يقول في الركوع والسجود)، (١/ ٣٥٢)، (ح٤٨٦).
(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الدعوات)، باب (٧): (ما يقول إذا نام)، (ح ٦٣١٣)، ومسلم في =

فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب: استقام قلبك علىٰ السير إلىٰ الله، ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضىٰ عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم؛ وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وبالله التوفيق. اهـ[1].

[التداوي لا ينافي التوكل]

في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي وأنه لا يُنافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش، والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقْدَح في نفس التوكل، كما يَقْدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطِّلها أن تركها أقوىٰ في التوكل، فإنَّ تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب علىٰ الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا، ولا توكله عجزًا.

وفيها رد علىٰ من أنكر التداوي، وقال: إن كان الشفاء قد قُدِّر، فالتداوي لا يفيد، وإن لم يكن قدر فكذلك. وأيضًا فإن المرض حصل بقدر الله، وقدر الله لا يُدفع ولا يرد، وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب علىٰ رسول الله ﷺ،

= (الذكر والدعاء والتوبة)، باب (١٧): (ما يقول عند النوم)، (٤/ ٢٠٨١)، (ح٢٧١٠).

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣٥، ٤٣٦).

وأما أفاضل الصحابة فأعلمُ بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مِثْل هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفىٰ وكفىٰ، فقال: هذه الأدوية والرقىٰ والتقىٰ هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يرد قدره بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلىٰ الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كرد قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد، وكلٌّ من قدر الله: الدافع والمدفوع والدفع.

ويقال لمورد هذا السؤال: هذا يُوجب عليك ألا تباشر سببًا من الأسباب التي تجلب بها منفعة، أو تدفع بها مضرة؛ لأن المنفعة والمضرة إن قدرتا لم يكن بد من وقوعهما، وإن لم تقدرا لم يكن سبيل إلىٰ وقوعهما، وفي ذلك خراب الدين والدنيا وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق معاند له، فيذكر القدر ليدفع حجة المحق عليه، كالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، فهذا قالوه دفعًا لحجة الله عليهم بالرسل.

وجواب هذا السائل أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكره؛ وهو أن الله قدر كذا وكذا بهذا السبب، فإن أتيت بالسبب حصل المسبب وإلا فلا.

فإن قال: إن كان قدَّر لي السبب فعلته، وإن لم يُقدره لي لم أتمكن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك، وولدك، وأجيرك إذا احتج به



عليك فيما أمرته به، ونهيته عنه فخالفك؟ فإن قبلته، فلا تَلُم مَن عصاك، وأخذ مالك، وقذف عرضك، وضيَّع حقوقك، وإن لم تقبله، فكيف يكون مقبولًا منك في دفع حقوق الله عليك؟ وقد روي في أثر إسرائيلي: أن إبراهيم الخليل قال: يا رب، ممن الداء؟ قال: مني، قال: فممن الدواء؟ قال: مني، قال: فما بال الطبيب؟ قال: رجلٌ أُرسل الدواء علىٰ يديه.

وفي قوله ﷺ: «لكل داء دواء»[١] تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث علىٰ طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يُزيله، تعلَّق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، ومتىٰ قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتىٰ قويت هذه الأرواح قويت القوىٰ التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه. وأمراض الأبدان علىٰ وزان أمراض القلوب، وما يجعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله وصادف داءَ قلبه، أبرأه بإذن الله تعالىٰ. اهـ[٢].

---

(١) رواه مسلم في السلام)، باب (لكل داء دواء...)، (ح٢٢٠٤).
(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٥ - ١٧).

[دعاء الاستخارة وعنوان السعادة]

صح عنه ﷺ أنه قال: «إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به»، قال: «ويُسمِّي حاجته»[1]، رواه البخاري.

فعوض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين؛ يطلبون بها علم ما قسم لهم في الغيب، ولهذا سمي ذلك استقسام، وهو استفعال من القسم، والسين فيه للطلب، وعوَّضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار، وعبودية، وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم، واختيار الطالع ونحوه.

---

(١) رواه البخاري بنحوه في موضع منها كتاب (الدعوات)، (ح٦٣٨٢).



فهذا الدعاء هو الطالع الميمون السعيد، طالع أهل السعادة والتوفيق، الذين سبقت لهم من الله الحسنىٰ، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان، الذين يجعلون مع الله إلها آخر، فسوف يعلمون.

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه، والتبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيدِ وَلِيِّه وفاطره وإلهه الحق.

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سعادة ابن آدم: استخارة الله ورضاه بما قضىٰ الله، ومن شقاوة ابن آدم: ترك استخارة الله، وسخطه بما قضىٰ الله**»[1].

فتأملْ كيف وقع المقدور مكتنفًا بأمرين: التوكل الذي هو مضمون الاستخارة قبله، والرضىٰ بما يقضي الله له بعده، وهما عنوان السعادة. وعنوان الشقاء أن يكتنفه ترك التوكل والاستخارة قبله، والسخط بعده. والتوكل قبل القضاء، فإذا أبرم القضاء وتم، انتقلت العبودية إلىٰ الرضىٰ بعده، كما في «المسند»، وزاد النسائي في الدعاء المشهور: «**وأسألك الرضا بعد القضاء**»[2]. وهذا أبلغ من الرضا بالقضاء؛ فإنه قد يكون عزمًا فإذا وقع القضاء تنحل

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ١٩١)، وهو جزء من حديث طويل.

العزيمة، فإذا حصل الرضا بعد القضاء كان حالًا أو مقامًا.

والمقصود: أن الاستخارة توكل علىٰ الله وتفويض إلهي واستقسام بقدرته وعلمه، وحسن اختياره لعبده، وهي من لوازم الرضا به ربًّا، الذي لا يذوق طعم الإيمان من لم يكن كذلك، وإن رضي بالمقدور بعدها، فذلك علامة سعادته. اهـ[1].

خامسًا: الخوف والرجاء

[الخوف]

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، فجمع بين المقامات الثلاثة؛ فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه.

ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ ، فذكر الحب والخوف والرجاء؛ والمعنىٰ: أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلىٰ ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ وقد أمر سبحانه بالخوف منه في

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٤٣- ٤٤٥).



قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطًا في تحقيق الإيمان... وقد أثنىٰ سبحانه علىٰ أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنىٰ عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمَّنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**»[١]، وفي لفظ آخر: «**إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقىٰ**»[٢].

وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[٣]، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «وكفىٰ بخشية الله علمًا».

ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به؛ فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفًا وحبًّا، فالخوف من أجل منازل الطريق، وخوف

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الاعتصام بالكتاب والسنة)، (ح٧٣٠١)، ومسلم في (الفضائل)، (ح٢٣٥٦)، ولفظه عندهما: «**أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**».

(٢) أخرجه مسلم في (الصيام)، (ح١١٠)، وقال: «**أخشاكم**» بدلًا من: «**أخوفكم**».

(٣) رواه النسائي في (السهو)، (ح١٢١٤)، وأحمد (٤/ ٢٥، ٢٦).

الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم، فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلًا عن الاستقامة، فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة علىٰ ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور: أحدها: معرفته بالجناية وقبحها. والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب علىٰ المعصية عقوبتها. والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه؛ فإن الحامل علىٰ الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله علىٰ التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف ألا يفتح له باب التوبة، بل يُمْنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتىٰ ينجو. وأما إن كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس؛ لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ؛ فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ كانت أكثر يمينه: «**لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب**»[1]، وقال بعض السلف: القلب أشد

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها؛ كتاب (التوحيد)، باب (مقلب القلوب)، (ح٧٣٩١).



تقلبًا من القِدْر إذا استجمعت غليانًا. وقال بعضهم: مثل القلب في سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة، تقلبها الرياح ظهرًا لبطن.

ويكفي في هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأي قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحق بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال وإن توارىٰ عنه بغلبة حالة أخرىٰ عليه. فالخوف حشو قلبه، لكن توارىٰ عنه بغلبة غيره، فوجود الشيء غير العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرف له المقلب له كيف يشاء لا إله إلا هو. اهـ[1].

[منزلة الخوف]

وهو فرض علىٰ كل أحد؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومدح أهله في كتابه وأثنىٰ عليهم، فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١]، وفي «المسند» والترمذي: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله، قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي**

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٢- ٢٨٤).

ويتصدق، ويخاف ألا يُقبل منه»[1]، قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله يُقوِّم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله ﷻ؛ فإنك إذا خفته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلىٰ ربه؛ قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها، وقال ذو النون: الناس علىٰ الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق، قال حاتم الأصم: لا تغتر بمكان صالح؛ فلا مكان أصلح من الجنة، ولقي فيها آدم ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم؛ فإن بلعام بن باعورا لقي ما لقي وكان يعرف الاسم الأعظم، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم، فلا شخص أصلح من النبي ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون.

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف؛ فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(١) الترمذي في (التفسير)، باب (ومن سورة المؤمنين)، (ح٣١٧٤)، وابن ماجه في (الزهد)، باب (التوقي في العمل)، (٤١٩٨)، وصححه الحاكم ووافقة الذهبي (٢/ ٣٩٤)، وحسنة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوف، ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلىٰ وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: صِدقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: «الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله». اهـ(١).

[تعريف الرجاء وأنواعه]

قال الله تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء؛ قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٩٧- ٤٩٩).

وفي «صحيح مسلم»، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - قبل موته بثلاث-: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»(١).

وفي «**الصحيح**» عنه ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**»(٢).

«**الرجاء**»: حاد يحدو القلوب إلىٰ بلاد المحبوب؛ وهو الله والدار الآخرة، ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالىٰ، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالىٰ.

والفرق بينه وبين «التمني»: أن «**التمني**» يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«**الرجاء**» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنىٰ أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون علىٰ أن «**الرجاء**» لا يصح إلا مع العمل.

---

(١) رواه مسلم في (الجنة وصفه نعيمها)، باب (الأمر بحسن الظن بالله تعالىٰ عند الموت)، (ح٢٨٧٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٣/ ٤٩١)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، ووافقة الذهبي، وأصل الحديث في «الصحيحين».

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله علىٰ نور من الله؛ فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها؛ فهو راج لمغفرة الله تعالىٰ وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل؛ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلىٰ نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف، ونظر إلىٰ سعة فضل ربه وكرمه وبره يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد «الرجاء»: هو النظر إلىٰ سعة رحمة الله.

وقال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر؛ إذا استويا استوىٰ الطير وتمَّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجيًا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢- ٤٤).

[فوائد الرجاء]

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلىٰ ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطىٰ، وأحب ما إلىٰ الجواد أن يُرجىٰ ويؤمل ويسأل؛ وفي الحديث: «**مَن لم يسأل الله يغضب عليه**»[1]. والسائل راج وطالب؛ فمن لم يرج الله يغضب عليه. فهذه فائدة أخرىٰ من فوائد الرجاء؛ وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلىٰ الله، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه علىٰ ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه علىٰ عتبة المحبة، ويلقيه في دهليزها؛ فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالىٰ، وشكرًا له، ورضًا به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه علىٰ أعلىٰ المقامات؛ وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية؛ فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعىٰ لشكره.

---

(١) الترمذي في (الدعوات)، باب رقم (٢)، (ح٣٣٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، برقم (٢٦٨٦).



ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها؛ فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنىٰ، متعبِّد بها، داع بها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنىٰ التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء -كما تقدم- فكل واحد منهما يَمُدُّ الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف؛ قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]؛ قال كثير من المفسرين: المعنىٰ: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنىٰ الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له؛ فكل راج خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلىٰ عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب

والحِكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار؛ فعلىٰ قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله تبارك وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته من: الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء -من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله- ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة -كما تقدم بيانه- فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

إلىٰ فوائد أخرىٰ كثيرة يطالعها مَن أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق. اهـ[١].

[اعتدال الخوف والرجاء]

القلب في سيره إلىٰ الله عز وجل بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتىٰ سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتىٰ قطع الرأس مات الطائر، ومتىٰ فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٨- ٦٠).

السلف استحبوا أن يُقوَّىٰ في الصحة جناح الخوف علىٰ جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يُقوَّىٰ جناح الرجاء علىٰ جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره.

قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن كان غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه. اهـ(١).

[السرور بالعمل]

«**السرور الباعث**»: هو الفرحة والنعيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة؛ فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة، وليس له نظير يقاس به، وهو حال من أحوال أهل الجنة، حتىٰ قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه علىٰ دوام السير إلىٰ الله ﷻ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئًا منه، فلْيَتَّهم إيمانه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٢).

وأعماله؛ فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووَجْد حلاوته؛ فذكر الذوق والوجد، وعلَّقه بالإيمان، فقال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»[(١)]، وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر -بعد إذ أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقىٰ في النار**»[(٢)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا، فاتهمه؛ فإن الرب تعالىٰ شكور. يعني أنه لا بد أن يثيب العامل علىٰ عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين؛ فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به تبعث علىٰ الازدياد من طاعته، وتحث علىٰ الجد في السير إليه. اهـ[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان)، باب (الدليل علىٰ أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر)، (ح٣٤).

(٢) **متفق عليه:** البخاري في (الإيمان)، باب (حلاوة الإيمان وباب من كره أن يعود في الكفر)، (ح١٦، ٢١)، ورواه مسلم في (الإيمان)، باب (خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان)، (ح٤٣).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٧٥، ٧٦).



سادسًا: التوبة
[أنواع الإبانة]

كثيرًا ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله عن نبيه داود: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، والإنابة الرجوع إلىٰ الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم علىٰ درجات متفاوتة:

فمنهم: المنيب إلىٰ الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي؛ وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

ومنهم: المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات؛ فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات، وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف

هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم: المنيب إلىٰ الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه؛ ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنىٰ والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم وعلَّقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، وأملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار؛ كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إلىٰ مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلىٰ معبودها وإلهها الحق؛ فهي ملتفتة إلىٰ غيره ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له، فأعلىٰ أنواع الإنابة إنابة الروح بجملتها إليه؛ لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوىٰ محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإنابة؛ فإن الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه، أنابت جميع القوىٰ والجوارح، **فأناب القلب** أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار. **وأناب العقل** بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها،



وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها، **وأنابت النفس** بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت للأوامره خاضعة له وداعية فيه مؤثرة إياه علىٰ غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلىٰ مولاها ورضىٰ بقضائه وتسليمًا لحكمه، وقد قيل: إن تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس.

وأناب الجسد في الأعمال والقيام بها -فرضها وسننها- علىٰ أكمل الوجوه.

وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة، فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلىٰ الحبيب الحق الذي كل محبة سوىٰ محبته عذاب علىٰ صاحبها، وإن كانت عذبة في مباديها فإنها عذاب في عواقبها، فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بل هذه روحه منيبة أبدًا، وإن تواریٰ عنه شهود إنابتها باشتغال فهي كامنة فيها كمون النار في الزناد. وأما أصحاب الإنابات المتقدمة فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه، فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلًا علىٰ دواعي نفسه وطبعه، والله الموفق المعين، لا رب غيره ولا إله سواه. اهـ[1].

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٧٣، ١٧٤).

[توبة العبد محفوفة بين توبتين من الله]

توبة العبد إلىٰ الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه -سابقة ولاحقة- فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا، قبولًا وإثابة؛ قال الله ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين؛ فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم؛ فدل علىٰ أنهم ما تابوا حتىٰ تاب الله تعالىٰ عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرىٰ يثيبه الله بها هداية علىٰ هدايته، فإن من ثواب الهدىٰ: الهدىٰ بعده، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدىٰ ثانيًا. وعكسه في أهل الزيغ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم علىٰ زيغهم.



وهذا القدر من سر اسميه: «الأول، والآخر»، فهو المعدُّ، وهو الممد، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، ويجير من نفسه بنفسه؛ كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**»(١).

والعبد تواب، والله تواب؛ فتوبة العبد: رجوعه إلىٰ سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد. اهـ(٢).

[الفرح بالتوبة وبيان أعظم الفرح]

الفرحة التي تحصل بالتوبة فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها يزيد علىٰ لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلىٰ لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالىٰ بتوبة عبده أشد فرح يقدر، ولقد ضرب له رسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه؛ وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منه فجلس ينتظر الموت حتىٰ إذا طلع البدر رأىٰ في ضوئه راحلته، وقد تعلق زمامها بشجرة، فقال من شدة فرحه: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ**

---

(١) رواه مسلم في (الصلاة)، باب (ما يقال في الركوع والسجود)، (ح٤٨٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٢، ٣١٣).

من شدة الفرح، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته»[١].

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه؛ وهو أنه لا يصل إلىٰ ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران ويحصل علىٰ ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله؛ وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلىٰ الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًّا عنك، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض علىٰ روحه، ومنها فتح أبوب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلىٰ السماء الثانية، فتفتح ويُصَلِّي عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلىٰ السماء السابعة، فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها

---

(١) ينظر الحديث عند البخاري في (الدعوات)، (ح٦٣٠٨)، (٦٣٠٩)، وعند مسلم في (التوبة)، (ح٢٧٤٧).

علىٰ ربها ووليها وحبيبها، فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين، ثم يذهب به فيرىٰ الجنة ومَقعده فيها، وما أعد الله له ويلقي أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به، ويفرح بهم فرح الغائب يقدم علىٰ أهله فيجدهم علىٰ أحسن حال، ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر. هذا كله قبل الفرح الأكبر -يوم حشر الأجساد- بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه، وبياض وجهه، وإعطائه النور التام والناس في الظلمة، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلىٰ باب الجنة وقد أزلفت له في الموقف وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة، وقدومه علىٰ منازله وقصوره وأزواجه وسراريه، وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشىٰ هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالىٰ من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم. اهـ[(١)].

[سر فرح الله بتوبة العبد]

فاعلم أن الله ﷻ اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرَّمه وفضله، وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقُربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخَّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتىٰ ملائكته -الذين هم أهل قربه- استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه

---

(١) «الروح» (٢٩٨، ٢٩٩).

ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلَّمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار؛ فالخلق والأمر، والثواب والعقاب مداره علىٰ النوع الإنساني؛ فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله علىٰ الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه؛ إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذه عدوًّا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية علىٰ الإطلاق، وخيرة الله من العالمين؛ فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر علىٰ باله ولم يشعر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره علىٰ ما سواه، فاتخذه محبوبًا له، وأعدَّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه، قد جاهره بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له دون وليهم ومعبودهم الحق، واستقطع عباده، واتخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه علىٰ ربهم، وكانوا أعداء له مع هذا



العدو، يدعون إلىٰ سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه، ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذىٰ، ويجهدون علىٰ إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه؛ فعرَّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومآلهم، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض علىٰ خلقه النعمة، وكتب علىٰ نفسه الرحمة، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له، وأحبُّ ما إليه: أن يجود علىٰ عباده ويُوسعهم فضلًا، ويغمرهم إحسانًا وجودًا، ويتم عليهم نعمته، ويضاعف لديهم منته، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته، وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبدًا أقل من ذرة بالقياس إلىٰ جوده، فليس الجواد علىٰ الإطلاق إلا هو، وجود كل جواد فمن جوده، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرًا، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المُعْطَىٰ؟ ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه، ولله المثل الأعلىٰ؛ إذ هذا شأن الجواد من الخلق؛ فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج

واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يعطيه، ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه عن لذة المعطي، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته إلىٰ ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه، ونفسه قد طبعت علىٰ الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطىٰ كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحب إليه من الانتقام، والرحمة أحب إليه من العقوبة، والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرَّض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضَّله علىٰ غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنىٰ بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدىٰ؛ فتعرَّض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه، ووالىٰ عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام، فقد استدعىٰ من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعىٰ بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.



فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقًا شاردًا، رادًّا لكرامته، مائلًا عنه إلىٰ عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسيًا لسيده، منهمكًا في موافقة عدوه، قد استدعىٰ من سيده خلاف ما هو أهله؛ إذ عرضت له فكرة فتذكر برَّ سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لا بد له منه، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدم به عليه علىٰ أسوأ الأحوال؛ ففر إلىٰ سيده من بلد عدوه، وجدَّ في الهرب إليه حتىٰ وصل إلىٰ بابه، فوضع خده علىٰ عتبة بابه، وتوسد ثرىٰ أعتابه، متذللًا متضرعًا، خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقىٰ بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قياده وألقىٰ إليه زمامه؛ فعلم سيده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا؛ فاستدعىٰ بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنىٰ، وصفاته العليا، فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعًا واختيارًا، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود، التي هي أحب إلىٰ سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه حصل له شرود وإباق من سيده، فرأىٰ في بعض السكك بابًا قد فتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتىٰ خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكرًا، فلم يجد له مأوىٰ غير البيت الذي أخرج منه،

ولا من يئويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مُرْتجًا، فتوسَّده ووضع خده علىٰ عتبة الباب ونام، فخرجت أمُّه، فلما رأته علىٰ تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يئويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي علىٰ خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأملْ قول الأم: «**لا تحملني بمعصيتك لي علىٰ خلاف ما جُبِلت عليه من** الرحمة والشفقة».

وتأملْ قوله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**»[(١)]، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعىٰ منه صرف تلك الرحمة عنه؛ فإذا تاب إليه فقد استدعىٰ منه ما هو أهله وأولىٰ به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك علىٰ سر فرح الله بتوبة عبده الذي هو أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان. اهـ[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الأدب)، باب (رحمة الولد وتقبيله ومعانقته)، (ح٥٩٩٩)، ومسلم في (التوبة)، باب (في سعة رحمة الله)، (ح٢٧٥٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢١٧- ٢٢١).



[علامات التوبة المقبولة]

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين؛ فخوفه مستمر إلىٰ أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]؛ فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا. وهذا علىٰ قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالىٰ: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة علىٰ ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا علىٰ ما فرط حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حَقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب: إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله؛ تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا؛ كحال عبدٍ جانٍ آبق من

سيده؛ فأُخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده. فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد وما أجدىٰ عائدتها عليه! وما أعظم جَبْره بها، وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحبَّ إلىٰ سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلىٰ قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورَغِمَ لك أنفُه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبُه».

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يَجْبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلىٰ تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوىٰ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. اهـ(١).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٢، ١٩٣).



سابعًا: التفكر
[استشعار النعم]

ومن دقيق نعم الله علىٰ العبد -التي لا يكاد يُفطن لها- أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت ليعرِّفه نعمته عليه.

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت علىٰ مريض أعوده، فاذا هو يَئِنُّ، فقلت له: اذكر المطروحين علىٰ الطريق، اذكر الذين لا مأوىٰ لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك؛ فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري مَن لا مأوىٰ له ولا له من يخدمه.

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل علىٰ بعض السواحل: كم عَامَلْتَه تبارك اسمه بما يكره، فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أُحصي ذلك كثرةً، قال: فهل قصدت اليه في أمر كَربكَ فخذلكَ؟ قلت: لا واللهِ، ولكنه أحسن إليَّ وأعانني، قال: فهل سألته شيئًا فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيئًا سألته؟ ما سألته شيئًا قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني، قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء، قال: فربُّك أحقُّ وأحرىٰ أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن قديمًا وحديثًا إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده؛ إنه تبارك وتعالىٰ رضي من العباد بالحمد شكرًا.

وقال **سفيان الثوري**: ما كان الله لينعم علىٰ عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق علىٰ المنعم أن يُتمَّ النعمة علىٰ من أنعم عليه.

وقال **ابن أبي الحواري**: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله ألا يسلبنا إياه، قال: يحق علىٰ المنعم أن يتم النعمة علىٰ من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قَبِلَه...

وقال **ابن زيد**: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله ﷻ، فيقضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم.

قال: وفي بعض الكتب التي أنزلها الله تعالىٰ أنه قال: «**سُروا عبدي المؤمن، فكان لا يأتيه شيء إلا قال: الحمد لله ما شاء الله، قال: رَوِّعوا عبدي المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله، الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالىٰ: إن عبدي يحمدني حين روعته كما يحمدني حين سررته؛ أَدْخِلوا عبدي دار عزي كما يحمدني علىٰ كل حالاته**»...، والحديث الذي في «الصحيح»: «**لن يُنجي أحدًا منكم عملُه**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1]، فإن أعمال العبد لا تُوافي نعمةً من نعم الله عليه.

قال **عبد العزيز بن أبي رَوَّاد**: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، فكأنه رأىٰ ما شق عليَّ منها، فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في (الرقاق)، باب (القصد والمداومة)، (ح٦٤٦٣)، ومسلم بنحوه في (صفة القيامة والجنة والنار)، (ح٢٨١٦).

حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا علىٰ طرف ذَكَري؟ فهانت عليَّ قرحته. اهـ[١].

[نعم ربانيَّة]

يختص الله برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود علىٰ هذا؛ فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبيثون مقصودون بعذابه، ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكل مستعمل فيما هو له مهيأ وله مخلوق، وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين؛ فإنه تعالىٰ خلقهم للخيرات فهم لها عاملين، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته، فكذلك لا تضرهم الأدواء ولا السموم، بل متىٰ وسوس لهم العدو واغتالهم بشيء من كيده أو مسهم بشيء من طيفة تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وإذا واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة وانقلب في حقهم دواء وبدل حسنة بالتوبة النصوح والحسنات الماحية؛ لأنه سبحانه عرَّفهم بنفسه وبفضله، وبأن قلوبهم بيده وعصمتهم إليه؛ حيث نقض عزماتهم وقد عزموا ألا يعصوه، وأراهم عزته في قضائه، وبره وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه وافتقارهم وذلهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلىٰ

---

(١) «عدة الصابرين» (١٨٩ - ١٩١).

النجاة أبدًا، فإنهم لما أعطوا من أنفسهم العزم ألا يعصون وعقدوا عليه قلوبهم، ثم عصوه بمشيئته وقدرته؛ عرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره إياهم، وكريم حلمه عنهم وسعة مغفرته لهم برد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته، وأنه حليم ذو أناة لا يعجل، ورحيم سبقت رحمته غضبه، وأنهم متىٰ رجعوا إليه بالتوبة وجدوه غفورًا رحيمًا، حليمًا كريمًا؛ يغفر لهم السيئات ويقيلهم العثرات ويودهم بعد التوبة ويحبهم، فتضرعوا إليه حينئذ بالدعاء وتوسلوا إليه بذل العبودية وعز الربوبية، فتعرف سبحانه إليهم بحسن إجابته، وجميل عطفه وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءه، ويسرهم للتوبة والإنابة وأقبلوا بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه، ولم تمنعه معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبره لهم وإحسانه إليهم، فتاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، فلما تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه تعرف إليهم تعرفًا آخر: فعرفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبره وامتنانه وكرمه وشرعه، ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والإيضاع في طرق معاصيه، وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم، وكرمه في أن خلَّىٰ بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمته وإعانته، ثم لم يُخَلِّ بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يرجىٰ معه فلاح، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي، فاستخرج منهم داءً لو استمر معهم لأفضىٰ إلىٰ الهلاك، ثم تداركهم بروح الرجاء فقذفه في قلوبهم، وأخبر أنه عند ظنونهم به، ولو أشهدهم عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه ومقته علىٰ من عصاه فقط لأورثهم ذلك

المرض القاتل أو الداء العضال من اليأس من روحه والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم، ولكن رحمهم قبل البلاء، وجعل تلك الآثار التي توجبها معصيته من المحن والبلاء والشدائد رحمة لهم وسببًا إلىٰ علو درجاتهم ونيل الزلفىٰ والكرامة عنده، فأشهدهم بالجناية عزة الربوبية وذل العبودية، ورقاهم بآثارها إلىٰ منازل قربه ونيل كرامته؛ فهم علىٰ كل حال يربحون عليه ويتقلبون في كرمه وإحسانه، وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير له يسوقه إلىٰ كرامته وثوابه، وكذلك عطاياه الدنيوية نعم منه عليهم، فإذا استرجعها أيضًا منهم وسلبهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة كما قيل: إن الله ينعم علىٰ عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت عطايا الآخرة. والرب سبحانه قد تجلَّىٰ لقلوب المؤمنين العارفين وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه، ومُضي مشيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه، وكرمه وبره وإحسانه، وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلىٰ حيث احتملته القوىٰ البشرية، ووراءه مما لم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خلد مما لا نسبة لما عرفوه إليه. اهـ[1].

[النعم للتمحيص]

من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زيدَ في علمه زيدَ في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٣٧- ١٣٩).

حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدْره وجاهه زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يَبْتَلي بها عباده، فيسعد بها أقوام ويشقىٰ بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء؛ كالملك والسلطان والمال؛ قال تعالىٰ عن نبيه سليمان لما رأىٰ عرش بلقيس عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشَّكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوىٰ منه سبحانه؛ فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ...﴾ [الفجر: ١٥- ١٧]، أي: ليس كل من وسَّعت عليه وأكرمته ونَعَّمته يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له. اهـ[١].

(١) «الفوائد» (٢٢٥، ٢٢٦).



[النعم الثلاثة]

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته علىٰ عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حتىٰ لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيَّد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصَّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ورفقة لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه علىٰ أتمَّ الوجوه، وعرَّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكىٰ أن أعرابيًّا دخل علىٰ الرشيد فقال: أمير المؤمنين، ثَبَّت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحَقَّق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرَّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها. فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسن تقسيمه! اهـ[1].

[الملل من النعم]

من الآفات الخفية العامة: أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلىٰ ما يزعم لجهله أنه خير له منها، وربُّه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتىٰ إذا ضاق ذرعًا

---

(١) «الفوائد» (٢٤٨).

بتلك النعمة وسخطها وتبرَّم بها واستحكم مَلَله لها سلبه الله إياها، فإذا انتقل إلىٰ ما طلبه ورأىٰ التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتدَّ قلقه وندمه، وطلب العودة إلىٰ ما كان فيه، فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورشدًا أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها، مُفوِّض إلىٰ الله طالب منه حسن اختياره له.

وليس علىٰ العبد أضر من مَلَله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة. هذا وهي من أعظم نِعَم الله عليه.

فأكثرُ الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمة، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلًا وظلمًا، فكم سَعَتْ إلىٰ أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؛ فليس للنعم أعدىٰ من نفس العبد فهو مع عدوه وظهير علىٰ نفسه، فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها، فهو الذي مكَّنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتد ضرامها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتىٰ إذا فات أمر عاتب القدرا

. اهـ[١].

(١) «الفوائد» (٢٥٧ - ٢٥٩).



[سلب النعمة عند الحاجة إليها]

قال تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويبطل حسناته كان بمنزلة رجل ﴿لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فإذا كان يوم استيفاء الأعمال وإحراز الأجور، وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا علىٰ جنته. هذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف، فهو أحوج ما كان إلىٰ نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون علىٰ نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله، فحاجته إلىٰ نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم، فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا، وقد وجده محترقًا كله كالصريم، فأي حسرة أعظم من حسرته؟!

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره».

وقال مجاهد: «هذا مثل المفرط في طاعة الله حتىٰ يموت».

وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: قل يابن أخي، ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلًا لعمل، قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتىٰ أغرق أعماله كلها.

قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذا مثل قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلىٰ جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلىٰ عمله إذا انقطعت عنه الدنيا». اهـ[1].

[إحسان الله تعالى إليك]

إحسان الله إليك علىٰ مدىٰ الأنفاس: أزاح عللك، ومكَّنك من التزود إلىٰ جَنَّته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قُطاع الطريق عليك، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرَّفك الخير والشر،

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٠١، ٢٠٢).



والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسَّره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك، ويريدون منك ألا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبىٰ إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم، بل تُظاهره وتواليه دون وَليك الحق الذي هو أولىٰ بك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠] طرد إبليسَ عن سمائه، وأخرجه من جنته، وأبعده من قربه، إذ لم يَسْجد لك، وأنت في صُلْب أبيك آدم، لكرامتك عليه، فعاداه وأبعده، ثم واليت عدوه، ومِلْت إليه وصالحته، وتتظلم مع ذلك، وتشتكي الطرد والإبعاد، وتقول:

عودوني الوصال والوصفُ عَذْب ورموني بالصدِّ، والصد صعب

نعم، وكيف لا يَطْرُد من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يجعل من خاصته وأهل قُربه مَن حاله معه هكذا؛ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدره؟

أمره الله بشكره، لا لحاجته إليه، ولكن لينال به المزيد من فضله؛ فجعل كفر نعمه، والاستعانة بها علىٰ مساخطه من أكبر أسباب صرفها عنه.

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. أمره بسؤاله ليعطيه، فلم يسأله، بل أعطاه أجلَّ العطايا بلا سؤال، فلم يقبل. يشكو مَن يرحمه

إلىٰ من لا يرحمه، ويتظلم ممن لا يظلمه، ويَدَع من يعاديه ويظلمه. إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه علىٰ معاصيه، وإن سلبه ذلك ظلَّ متسخطًا علىٰ ربه وهو شاكيه، لا يصلح له علىٰ عافية، ولا علىٰ ابتلاء، العافية تُلقيه إلىٰ مساخطه، والبلاء يدفعه إلىٰ كفرانه وجحود نعمته، وشكايته إلىٰ خلقه.

دعاه إلىٰ بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه، ثم فتحه له فما عرّج عليه ولا وَلَجه، أرسل إليه رسوله يدعوه إلىٰ دار كرامته، فعصىٰ الرسول، وقال: لا أبيع ناجزًا بغائب، ونقدًا بنسيئة، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به، ويقول:

خـذْ مـا رأيـت ودعْ شـيئًا سـمعتَ بـه ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَـل

فإن وافق حَظُّه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه، لا لرضىٰ مرسله، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه، حتىٰ أعرض عنه، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته، بل قال: «متىٰ جئتني قبلتك، إن أتيتني ليلًا قبلتك، وإن أتيتني نهارًا قبلتك، وإن تقربت مني شبرًا تقربت منك ذراعًا، وإن تقربت مني ذراعًا تقربت منك باعًا، وإن مشيت إليَّ هرولت إليك، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك، ومَن أعظم مني جودًا وكرمًا؟

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم علىٰ فُرُشهم، إني والجن والإنس

في نبأ عظيم: أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي. خيري إلىٰ العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليَّ بالمعاصي، وهم أفقر شيء إلي.

من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهلُ ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم؛ فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب. من آثرني علىٰ سواي آثرته علىٰ سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل أضلَّ راحلته بأرض مهلكةٍ دوية عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتىٰ إذا أيس من حصولها نام في أصل شجرة ينتظر الموت؛ فاستيقظ فإذا هي علىٰ رأسه، قد تعلق خِطامها بالشجرة، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته**»[١].

---

(١) رواه البخاري تعليقًا بلفظ مقارب في (الدعوات)، باب (التوبة)، (ح٦٣٠٨)، ومسلم في (التوبة)، (ح٢٧٤٤)، (٢٧٤٧).

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف؛ لا فرحة محتاج إلىٰ توبة عبده، منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده إحسانًا إليه، ومحبة له وبرًّا به، لا يتكثَّر به من قلة، ولا يتعزز به من ذِلَّة، ولا ينتصر به من غَلَبة، ولا يَعُده لنائبة، ولا يستعين به في أمر؛ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]؛ فنفىٰ أن يكون له ولي من الذل، والله ولي الذين آمنوا، وهم أولياؤه. اهـ[١].

[المنة لله وحده]

ذكر ابن سعد في «الطبقات»، عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كان

إذا خطب علىٰ المنبر فخاف علىٰ نفسه العُجْب قطعه، وإذا كتب كتابًا فخاف فيه العجب مزَّقه ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي فيه مرضاة الله، مطالعًا فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منَّ عليه بذلك هو الذي منَّ عليه بالقول الفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه، لم يحضره العُجْب الذي أصله رؤية نفسه، وغيبته عن شهود مِنَّة ربه وتوفيقه وإعانته، فإذا غاب عن تلك الملاحظة وثَبَت النفس وقامت في مقام الدعوىٰ فوقع العجب، ففسد عليه القول والعمل؛ فتارة يُحال بينه وبين تمامه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٩- ٢٠٢).



ويُقطع عليه، ويكون ذلك رحمة به حتىٰ لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق. وتارة يتمُّ له، ولكن لا يكون له ثمرة، وإنْ أثمر أثمر ثمرةً ضعيفة غير محصلة للمقصود. وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويتولد له منه مفاسد شتىٰ بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وأن القول والفعل به.

ومن هذا الموضع يُصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها، أو يفسدها عليه بمنعه ثمرتها، فلا شيء أفسد للأعمال من العُجب ورؤية النفس.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا أشهده منَّته وتوفيقه وإعانته له في كل ما يقوله ويفعله فلا يعجب به، ثم أشهده تقصيره فيه، وأنه لا يرضىٰ لربه به، فيتوب إليه منه ويستغفره، ويستحي أن يطلب عليه أجرًا، وإذا لم يشهده ذلك وغيَّبه عنه، فرأىٰ نفسه في العمل، ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة.

فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدًا فيه منَّته وفضله وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه إذ لم يوفه حقه.

والجاهل يعمل العمل لحظِّه وهواه، ناظرًا فيه إلىٰ نفسه يمنُّ به علىٰ ربه راضيًا بعمله، فهذا لون وذاك لون آخر. اهـ[1].

---

(١) «الفوائد» (٢٢٢، ٢٢٣).

[مَن عرف نفسه عرف ربَّه]

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها، ولم يتجاوزه إلىٰ ما ليس له، ولم يتعد طوره، ولم يقل هذا لي، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتُذِلُّه نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرىٰ لنفسه ولا فيها خيرًا ألبتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتُحْدِث له النعم ذلًا وانكسارًا عجيبًا لا يعبر عنه، فكلما جَدَّد له نعمة ازداد له ذلًا وانكسارًا وخشوعًا ومحبة وخوفًا ورجاءً.

وهذا نتيجة علمين شريفين:

علمه بربه، وكماله، وبره وغناه، وجوده، وإحسانه، وحكمته، وأن الخير كله في يده، وهو ملكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء، وله الحمد علىٰ هذا، وهذا أكمل حمدٍ وأتَّمه. وعلمه بنفسه، ووقوفه علىٰ حدها، وقدرها، ونقصها، وظلمها، وجهلها، وأنه لا خير فيها ألبتة، لا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم، فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العدم الذي لا شيء أحقر منه ولا أنقص، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذان العلمان صيغة لها؛ لا صيغة علىٰ لسانها، علمت حينئذ أن الحمد كله لله، والأمر كله له، والخير كله في يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها، وأنها هي أولىٰ بالذم والعيب واللوم.



ومن فاته التحقيق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبطت عليه، ولم يهتد إلىٰ الصراط المستقيم الموصل له إلىٰ الله.

فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علمًا وحالًا، وانقطاعه بفواتهما.

وهذا معنىٰ قوله: مَن عرف نفسه عرف ربه؛ فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم عرف ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرها، ولم يتعدَّ بها طورها، وأثنىٰ علىٰ ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحبَّ شيء إليه، وأخوفَ شيء عنده وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبودية... والله المستعان.

ويُحكىٰ أن بعض الحكماء كتبَ علىٰ باب بيته: إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها؛ فمن كان كذلك فليدخل، وإلا فليرجع حتىٰ يكون بهذه الصفة. اهـ[١].

[سؤال العافية والشكر عليها]

الله سبحانه يحب أن يُسأل العافية، وما يسأل شيئًا أحب إليه من العافية كما في «المسند» عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﵁ قال: قام أبو بكر ﵁ علىٰ المنبر ثم قال: «سلوا الله العافية؛ فإنه لم يُعط عبدٌ بعد اليقين خيرًا من العافية»[٢].

---

(١) «الفوائد» (٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) رفعه أبو بكر ﵁ إلىٰ النبي ﷺ كما في «مسند الإمام أحمد» (١/ ٨) من رواية أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن مسعود، عن أبي بكر ﵁، عن النبي ﷺ بنحوه، ورواه أيضًا أبو هريرة عن =

وفي حديث آخر: «إن الناس لم يُعْطوا في هذه الدنيا شيئًا أفضل من العفو والعافية فسلوهما الله ﷻ»[١]، وقال لعمه العباس: **«يا عم، أكْثِرْ من الدعاء بالعافية»**[٢].

وقال في دعائه يوم الطائف: «إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي»[٣]، فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»**[٤].

وفي حديث آخر: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة»[٥].

وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضىٰ، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها، وكان عبد الأعلىٰ التيمي يقول: أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المُبْتلىٰ وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافىٰ الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يَجرُّ إلىٰ خير ما كنا من رجال البلاء؛ وإنه رُبَّ بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزىٰ في الآخرة، فما يُؤْمَن مَن أطال المقام علىٰ معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما

= أبي بكر ﵁، عن النبي ﷺ بنحوه، «المسند» (١/ ٤).

(١) رواه أحمد بنحوه في «المسند» (١/ ٧).

(٢) رواه أحمد بنحوه في «المسند» (١/ ٢٠٩)، والترمذي في (الدعوات)، (ح٣٥١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ٧٣، ١٨١)، وذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٦٨).

(٤) رواه مسلم في (الصلاة)، باب (ما يقال في الركوع والسجود)، (ح٤٨٦).

(٥) لم أجده بهذا اللفظ.



يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذي إن نَعُدَّ نِعمَه لا نحصيها، وإن ندأب له عملًا لا نجزيها، وإن نُعمَّر فيها لا نبليها.

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر فقال: «لقد سألت البلاء، فاسأل العافية»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» أنه ﷺ عاد رجلًا قد هَفَت -أي هزل- فصار مثل الفرخ، فقال ﷺ: «**هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟**»، قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة؛ فعجله لي في الدنيا! فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟!**»[(٢)]، فدعا الله له فشفاه.

وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلسًا يقول: «لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيرًا كما تنعم كثيرًا، أعطيت خيرًا كثيرًا، وصرفت شرًّا كثيرًا، فلوجهك الجليل الباقي الدايم الحمد»...

وفي «السنن» عنه ﷺ: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر؛ إلا أدىٰ شكر ذلك اليوم، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدىٰ شكر ليلته»[(٣)]...

---

(١) روا أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي بنحوه في (الدعوات)، (ح٣٥٢٧).

(٢) رواه مسلم في (الذكر والدعاء)، (ح٢٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود في (الأدب)، باب (ما يقول إذا أصبح)، (ح٥٠٧٣).

ومرَّ وهب بمُبْتَلىٰ أعمىٰ مجذوم مقعد عريان به وضح[1] وهو يقول: «الحمد لله علىٰ نعمه»، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟! فقال له المبتلىٰ: ارم ببصرك إلىٰ أهل المدينة فانظر إلىٰ كثرة أهلها، أفلا أحمدُ الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري...

وقال بكر بن عبد الله: يابن آدم، إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصي.

وقال ابن شوذب: قال عبد الله -يعني ابن مسعود رضي الله عنه-: إن لله علىٰ أهل النار مِنَّة، لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم...

وقال كعب: ما أنعم الله علىٰ عبدٍ من نعمة في الدنيا، فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الأخرىٰ، وما أنعم الله علىٰ عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها، إلا مَنَعَه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

وقال الحسن: مَن لا يرىٰ لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قَصُر علمه وحضر عذابه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما من عبدٍ يشرب الماء القُرَاح فيدخل بغير أذىٰ

---

(١) الوَضَح: البرَص.

ويخرج الأذىٰ، إلا وَجَبَ عليه الشكر»...

وكتب **بعض العلماء إلىٰ أخ له**: أمَّا بعد، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أجميل ما يسَّر أم قبيح ما ستر؟...

وذكر **ابن أبي الدنيا**: أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانًا: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قَوَّيته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مَوَّلته فلك الحمد، وأنا العزب الذي زَوَّجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا. اهـ[١].

[الحكمة في تغييب الآجال]

من حكمته سبحانه فيما منعهم من العلم؛ علم الساعة ومعرفة آجالهم، وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلىٰ نظر؛ فلو عرف الإنسان مقدار عمره؛ فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت؟ فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالآمال، وإن كان طويل العمر -وقد تحقق ذلك- فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالانهماك في

(١) «عدة الصابرين» (١٩٣- ٢٠١).

الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة! وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالىٰ ﷻ من عباده، ولا يقبله منهم، ولا تصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا علىٰ هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه؛ فلو أن عبدًا من عبيدك عمل علىٰ أن يسخطك أعوامًا ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك لم تقبل منه، ولم يفز لديك بما يفوز به مَن همُّه رضاك، وكذا سنة الله ﷻ أن العبد إذا عاين الانتقال إلىٰ الله تعالىٰ لم ينفعه توبة ولا إقلاع؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨] وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

والله تعالىٰ إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه علىٰ وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه؛ فهذا تُرجىٰ له مغفرة الله وصفحه وعفوه؛ لعلمه تعالىٰ بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرىٰ كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف، يعتلج في صدره شهوة النفس والذنب وكراهة الإيمان له، فهو يُجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات.

فأما من بنىٰ أمره علىٰ ألا يقف عن ذنب، ولا يقدم خوفًا، ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذا ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها؛ فإنه من معاصيه وقبائحه علىٰ نقد عاجل يتقاضاه سلفًا

وتعجيلًا، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلىٰ الله علىٰ دين مؤجل إلىٰ انقضاء الأجل.

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبًا؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلىٰ مخالفة الطبع والنفس -والاستمرار علىٰ ذلك- شديد علىٰ النفس، صعب عليها، أثقل من الجبال، ولا سيما إذا انضاف إلىٰ ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان؛ فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدًا بنسيئة، ولا عاجلًا بآجل، كما قال بعض هؤلاء وقد سئل: أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدًا؟ فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن ربع درهم من أول أمس!

فحرام علىٰ هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله.

فإذا بلغ العبد حد الكِبَر، وضعفت بصيرته، ووهنت قواه، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيِّه، وضعفًا في إيمانه، وصارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها؛ فإن كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقىٰ للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي، وكلما صدر منه واحد منها أثر أثرًا زائدًا علىٰ أثر ما قبله فيقوىٰ الأثران، وهلم جرًّا، فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة علىٰ هذه الحال، فينتقل إلىٰ الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه، لم يتطهر للقدوم علىٰ الله، فما ظنه بربه؟! ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقبلت توبته، ومحيت سيئاته، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون.

ولا شيء أشهىٰ لمن انتقل إلىٰ الله علىٰ هذه الحال من التوبة، ولكن فرط في أداء الدين حتىٰ نفذ المال، ولو أدَّاه وقت الإمكان لقبله ربه، وسيعلم المسرف

والمفرط أي ديان أدان! وأي غريم بتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات، فإن فنيت فيحمل السيئات. فبان أن من حكمة الله ونعمه علىٰ عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم، ومبلغ أعمارهم، فلا يزال الكيس يترقب الموت -وقد وضعه بين عينيه- فينكف عما يضرُّه في معاده، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم. اهـ[1].

[نعمة السمع والبصر والبيان]

تأمَّلْ حالَ من عُدِم البصر وما يناله من الخلل في أموره؛ فإنه لا يعرف موضع قدمه، ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه، ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله، هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره؛ فلا يشعر بحفرة يهوي فيها، ولا بحيوان يقصده -كالسبع- فيتحرز منه، ولا بعدو يهوي نحوه ليقتله، ولا يتمكن من هرب إن طُلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذىٰ، ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته؛ فإنه بمنزلة لحم علىٰ وضم، ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلىٰ بصيرته، فهو أقوىٰ الناس بصيرة وحدسًا، وجمع عليه همَّه، فقلبه مجموع عليه غير مشتت؛ ليهنأ له العيش وتتم مصلحته، ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف. هذا حُكم من وُلد أعمىٰ.

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٤٩- ٢٥١).



العافية إلىٰ البلية؛ فالمحنة عليه شديدة؛ لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره، فهذا له حكم آخر.

وكذلك من عُدِمَ السمع؛ فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية، وتعظم المؤنة علىٰ الناس في خطابه، ويتبرمون به، ولا يسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم؛ فهو بينهم شاهد كغائب، وحي كميت، وقريب كبعيد.

وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلىٰ الكمال وأقل اختلالًا لأموره: الضرير أو الأطرش؟... والذي يليق بهذا الموضع أن يقال: عادم البصر أشدهما ضررًا، وأسلمهما دينًا، وأحمدهما عاقبة، وعادم السمع أقلهما ضررًا في دنياه وأجهلهما بدينه، وأسوأ عاقبة؛ فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح، وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر، ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره في دينه أكثر، وضرر الأعمىٰ في دنياه أكثر.

ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش، وكان فيهم جماعة أضراء، وقلَّ أن يبتلي الله أولياءه بالطرش، ويبتلي كثيرًا منهم بالعمىٰ.

فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة؛ فمضرة الطرش في الدين، ومضرة العمىٰ في الدنيا، والمعافىٰ من عافاه الله منهما ومتَّعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه... وإن عدم الإنسان بيان اللسان وعدم خاصة الإنسان -وهي النطق- واشتدت المؤنة به وعليه، وعظمت حسرته، وطال تأسفه علىٰ رد الجواب ورجع الخطاب، فهو

كالمقعد الذي يرىٰ ما هو محتاج اليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله.

فكم لله علىٰ عبده من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوىٰ والمنافع التي فيه، فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها! ولو فقد شيئًا منها لتمنىٰ أنه له بالدنيا وما عليها، فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه، وهو عار من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبىٰ المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]. اهـ[١].

[نعمة البيان الخطي]

التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعم الله علىٰ عباده؛ إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين.

ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن، وتخبَّطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل علىٰ الناس في دينهم ودنياهم؛ لما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظًا للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم، والتعليم به، وإن كان

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٠٦- ٢٠٩).

مما يتخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله؛ فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علَّمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

هذا، ومن أعطاه الذهن الذي يعي به؟ واللسان الذي يترجم به؟ والبنان الذي يخط به؟

ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات؟ ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه؟ ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؟ فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم!

فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته علىٰ القرطاس وهو جماد، فيتولد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب، والنظم والنثر، وجوابات المسائل، فمن الذي أجرىٰ فلك المعاني علىٰ قلبك؟ ورسمها في ذهنك؟

ثم أجرىٰ العبارات الدالة عليها علىٰ لسانك؟ ثم حرك بها بنانك حتىٰ صارت نقشًا عجيبًا معناه أعجب من صورته؟ فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وتُرسله إلىٰ الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم علىٰ لسانك ويقوم مقام رسولك. اهـ[١].

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠).

[اللّه تعالى يطعم المرضى ويسقيهم]

في قوله ﷺ [عن المرضىٰ]: «فإن الله يطعمهم ويسقيهم»[1] معنىٰ لطيف لا يعرفه إلا من له عناية بأحكام القلوب والأرواح، وتأثيرها في طبيعة البدن، وانفعال الطبيعة عنها، كما تنفعل هي كثيرًا عن الطبيعة، ونحن نشير إليه إشارة فنقول: النفس إذا حصل لها ما يشغَلُها من محبوب أو مكروه أو مخوف، اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب، فلا تُحِسُّ بجوع ولا عطش، بل ولا حر ولا برد، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم، فلا تُحِس به، وما مِن أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئًا منه، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها وورد عليها، لم تُحِس بألم الجوع، فإن كان الوارد مفرِّحًا قوي التفريح، قام لها مقامَ الغذاء، فشبعت به وانتعشت قواها وتضاعفَت، وجرت الدمويةُ في الجسد حتىٰ تظهر في سطحه، فيُشْرِق وجهه وتظهر دمويته؛ فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب، فينبعث في العروق فتمتلئ به، فلا تطلب الأعضاء حظها من الغذاء المعتاد؛ لاشتغالها بما هو أحب إليها وإلىٰ الطبيعة منه، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب آثرته علىٰ ما هو دونه.

وإن كان الوارد مؤلمًا أو محزنًا أو مخوفًا، اشتغلت بمحاربته ومقاومته ومدافعته عن طلب الغذاء، فهي في حال حربها في شغل عن طلب الطعام والشراب. فإن ظفرت في هذا الحرب انتعشت قواها وأخلفت عليها نظيرَ ما فاتها من قوة الطعام

---

(١) رواه الترمذي في (الطب)، (ح٢٠٤٠)، وقال: «حسن غريب». وابن ماجه في (الطب)، (ح٣٤٤٤).



والشراب، وإن كانت مغلوبة مقهورة، انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك، وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سِجالًا، فالقوة تظهر تارةً وتختفي أخرىٰ، وبالجملة فالحرب بينهما علىٰ مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين، والنصر للغالب، والمغلوب إما قتيل، وإما جريح، وإما أسير.

فالمريض: له مدد من الله تعالىٰ يُغذيه به زائدًا علىٰ ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وانطراحه بين يدي ربه ﷻ، فيحصل له من ذلك ما يُوجب له قربًا من ربه؛ فإن العبد أقربُ ما يكون من ربه إذا انكسر قلبُه، ورحمة ربه عندئذ قريبة منه، فإن كان وليًّا له حصل له من الأغذية القلبية ما تقوىٰ به قوىٰ طبيعته، وتنتعش به قواه أعظم من قوتها، وانتعاشها بالأغذية البدنية، وكلما قوي إيمانه وحبه لربه وأنسه به وفرحه به، وقوي يقينه بربه، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه، وجد في نفسه من هذه القوة ما لا يُعبَّر عنه، ولا يُدركه وصف طبيب، ولا يناله علمه.

ومن غلظ طبعُه، وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به، فلينظر حالَ كثير من عُشَّاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحُب ما يعشقونه من صورة، أو جاه، أو مال، أو علم، وقد شاهد الناس من هذا عجائب في أنفسهم وفي غيرهم.

وقد ثبت في «الصحيح»، عن النبي ﷺ أنه كان يُواصِلُ في الصيام الأيام ذوات العدد، وينهىٰ أصحابه عن الوصال ويقول: «**لست كهيئتكم؛ إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**»[١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في عدة مواضع؛ منها كتاب (التمني)، (ح٧٢٤١)، ومسلم بنحوه -أيضًا- في (الصيام)، (ح١١٠٤).

ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذي يأكله الإنسان بفمه، وإلا لم يكن مواصلًا ولم يتحقق الفرق، بل لم يكن صائمًا؛ فإنه قال: «**أظل يطعمني ربي ويسقيني**».

وأيضًا فإنه فرَّق بينه وبينهم في نفس الوصال، وأنه يَقدر منه علىٰ ما لا يقدرون عليه، فلو كان يأكل ويشرب بفمه لم يقل: لست كهيئتكم، وإنما فهم هذا من الحديث من قل نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب، وتأثيره في القوة وإنعاشها، واغتذائها به فوق تأثير الغذاء الجسماني، والله الموفق. اهـ[1].

[حال الملائكة مع الناس]

الملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلىٰ آخر أمره لهم وله شأن آخر؛ فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلىٰ طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها علىٰ خالقه وفاطره.

وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المُثبِّتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوىٰ قلبه ويزداد شكرًا، وهم الذين

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٩٢- ٩٤).



يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه.

فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته، ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالىٰ في منامه، وعند موته، ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويُثَبِّتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر، قد أطت بهم السماء، وحقَّ لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم، أو راكع أو ساجد، ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف مَلَك، لا يعودون إليه آخر ما عليه. اهـ[١].

[للنفس أربع دور]

لهذه الأنفس أربع [دور]، كل دارمنها أعظم من التي قبلها:

الدار الأولىٰ: في بطن الأم؛ وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

والدار الثانية: هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة: دار البرزخ؛ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم؛ بل نسبتها

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٠٢ - ٥٠٣).

إليها كنسبة هذه الدار إلىٰ الأولىٰ.

والدار الرابعة: دار القرار؛ وهي الجنة أو النار فلا دار بعدها.

والله ينقلها في هذه الدور طبقًا بعد طبق حتىٰ يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرىٰ، فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها، الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها، كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها، فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر، وما خالفه هو الباطل، وبالله التوفيق. اهـ[1].

[حكمة الله في المسخ]

تأمل حكمته تعالىٰ في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم؛ فإنه لما مسخت قلوبهم وصارت علىٰ قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم علىٰ صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة.

---

(١) «الروح» (١٤٣).



واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير؛ كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوات وأخلاقها وأعمالها!

ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم؛ كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية؟

فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولًا وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا! فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوهم فلست من المتوسمين.

واقرأ نسخة الخنازير من صور أشبهاهم -ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ- فإن هذه النسخة ظاهرة علىٰ وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفىٰ بحسب خنزيرية القلب وخبثه؛ فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه فيُبادر إليه.

فتأملْ مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة، كيف تجده منطبقًا عليهم؟ فإنهم عمدوا إلىٰ أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرءوا منهم، ثم والوا كلَّ عدو لهم من النصارىٰ واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان علىٰ حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خيرٌ منهم.

فأي شبه ومناسبة أولىٰ بهذا الضرب من الخنازير؟! فإن لم تقرأ هذه

النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين!

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا، فأكثر من أن تذكر هاهنا. اهـ[١].

[شواهد السائرين إلى الله تعالى]

أول شواهد السائر إلىٰ الله والدار الآخرة: أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرىٰ أهلها وعُشاقها صرعىٰ حولها؛ قد بدَّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرَّ الشراب، أضحكتهم قليلًا، وأبكتهم طويلًا، سقتهم كؤوس سمها، بعد كؤوس خمرها؛ فسكروا بحبها، وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحط الرجال، ومنتهىٰ السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بمَ ترجع؟**»[٢].

وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها، وبُعْد قَعْرها، وشدة

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب (فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ح (٢٨٥٨).



حرها، وعظيم عذاب أهلها؛ فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُود الوجوه، زُرْق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فُتِّحت في وجوههم أبوابها؛ فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٣]، فأراهم شاهد الإيمان، وهم إليها يُدفعون، وأتىٰ النداء من قبل رب العالمين: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٤]، ثم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور: ١٤- ١٦]، فيراهم شاهد الإيمان، وهم في الحميم علىٰ وجوههم يُسْحبون، وفي النار كالحطب يُسْجَرون: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدة العطش: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإذا شربوه قَطَّع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم؛ شرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي، واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلىٰ حسب قوة هذا الشاهد يكون بُعدَه من المعاصي والمخالفات؛ فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلبُ لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فضلًا عما وصفه الله لعباده علىٰ لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل بأعلىٰ أنواع اللذة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها؛ تربتها المسك، وحَصْباؤها الدُّر، وبناؤها لَبِن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلىٰ من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب علىٰ ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفُرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غَوْل ولا هم عنها يُنْزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون؛ فهم علىٰ الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحْبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلىٰ هذا الشاهد: شاهد يوم المزيد، والنظر إلىٰ وجه الرب ﷻ، وسماع كلامه منه بلا واسطة؛ كما قال النبي ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الرب تعالىٰ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا**

أهل الجنة، سلام عليكم -ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]- **ثم يتوارىٰ عنهم، وتبقىٰ رحمته وبركته عليهم في ديارهم»**[(١)].

فإذا انضم هذا الشاهد إلىٰ الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلىٰ ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا وفوق ذلك شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها؛ وهو شاهد جلال الرب تعالىٰ، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا علىٰ عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسلًا رسله، ومنزلًا كتبه، يرضىٰ ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، ويقيل إذا استقيل، أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء، فلو كانت قوىٰ الخلائق كلهم علىٰ واحد منهم، ثم كانوا كلهم علىٰ تلك القوة، ثم نسبت تلك القوىٰ إلىٰ قوة البعوضة بالنسبة إلىٰ قوة الأسد، ولو قدر جمال الخلق كلهم علىٰ واحد منهم، ثم كانوا كلهم بذلك الجمال، ثم نسب إلىٰ جمال الرب تعالىٰ لكان دون سراج ضعيف بالنسبة إلىٰ عين الشمس، ولو كان علم الأولين والآخرين علىٰ رجل منهم، ثم كان كل الخلق علىٰ تلك الصفة، ثم نسب إلىٰ علم الرب تعالىٰ لكان

---

(١) رواه ابن ماجه في (المقدمة)، باب (فيما أنكرت الجهمية)، (ح١٨٤).

ذلك بالنسبة إلىٰ علم الربِّ؛ كنَقْرة عصفور في بحر، وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره، وسائر نعوت كماله؛ فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تُغْلِطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، سواء عنده من أسرَّ القول ومن جهر به؛ فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرىٰ نِياط عروقها ومجاري القوت في أعضائها، يضع السماوات علىٰ إصبع من أصابع يده، والأرض علىٰ إصبع، والجبال علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء علىٰ إصبع، ويقبض سماواته بإحدىٰ يديه، والأرضين باليد الأخرىٰ، فالسماوات السبع في كفِّه كخردلة في كف العبد، ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم قاموا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله ﷻ، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهد كلها، ومن هذا شاهده فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلىٰ الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد والناس في واد. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠١- ٢٠٥).



[هداية الله للحيوان]

الهدهد من أهدىٰ الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض؛ حيث لا يراه غيره، ومن هدايته: ما حكاه الله سبحانه عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان عليه السلام وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بَدَرَه بالعُذر قبل أن ينذره سليمان عليه السلام.

قال إياس: والديك الشاب يأخذ الحبة فيؤثرها الدجاجة، حتىٰ يلقيها من فيه، والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة... وهداية الحيوانات إلىٰ مصالح معاشها كالبحر، حدِّثْ عنه ولا حرج، ومن عجيب هدايتها أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلىٰ ماء رقيق، فنزل فيه قليلًا قليلًا، حتىٰ ترتفع البراغيث إلىٰ الصوفة، فيلقيها في الماء ويخرج، ومن عجيب أمره: أن ذئبًا أكل أولاده، وكان للذئب أولاد، وهناك زبية[1] فعمد الثعلب وألقىٰ نفسه فيها، وحفر فيها سردابًا يخرج منه، ثم عمد إلىٰ أولاد الذئب فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه وهو يتبعه، فألقىٰ نفسه في الزبية، ثم خرج من السرداب فألقىٰ الذئب نفسه وراءه فلم يجده، ولم يطق الخروج فقتله أهل الناحية...

ومن عجيب أمر القرد، ما ذكره البخاري في صحيحه، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا وقردة زنيا، فاجتمع عليهما القرود

---

(١) الزبية: الحفرة.

فرجموهما حتىٰ ماتا»، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم.

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي ﷺ: «**أن رجلًا بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها فقالت: إنا لم نخلق لهذا، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم! فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر**»، وما هما ثم، قال: وبينا رجل يرعىٰ غنمًا له، إذ عدا الذئب علىٰ شاة منها فاستنقذها منه، فقال الذئب: هذه استنقذتها مني؟ فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم! فقال رسول الله ﷺ: «**إني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر**»، وما هما ثَمَّ[1].

ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان أنَّ الرجل يسير به ويأتي به إلىٰ منزله من البعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل، فإذا خُلي جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به، والصوت الذي يحث به علىٰ السير...

وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمىٰ بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتتداوله منه الطير فلا يظهر حركة ولا نفسًا، فلا تشك أنه ميت، حتىٰ إذا نقرته بمنقارها وثب عليها فضمها ضمة الموت. اهـ[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في (المناقب)، (ح٣٦٦٣، ومسلم بنحوه في (فضائل الصحابة)، (ح٢٣٨٨)، ورواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) «شفاء العليل» (١/ ٢٤١- ٢٥١).

[من علَّم الحيوان هذا؟]

كثير من العقلاء يتعلم من الحيوان البهيم أمورًا تنفعه في معاشه وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس؛ قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر علىٰ تشبيههم بالأنعام حتىٰ جعلهم أضلَّ سبيلًا منها.

فمن هدىٰ الأنثىٰ من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلىٰ مكان حتىٰ يشتد.

وقال ابن الأعرابي: «قيل لشيخ من قريش: مَن علَّمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: عَلَّمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتىٰ تعطي الوجهين جميعًا نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض علىٰ البيض إذا استمر علىٰ جانب واحد».

وقيل لآخر: «مَن علَّمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتىٰ تظفر بها؟ قال: من علَّم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط، ثم تصعد ثم تسقط مرارًا عديدة، حتىٰ تستمر صاعدة».

وقيل لآخر: «من علَّمك البكور في حوائجك أول النهار لا تُخل به؟ قال:

مَن علم الطير تغدو كل بكرة في طلب أقواتها علىٰ قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض».

وقيل لآخر: «مَن علَّمك السكون والتحفظ والتماوت، حتىٰ تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد علىٰ فريسته؟ فقال: الذي علَّم السنور أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا تمور ولا تختلج كأنها ميتة، حتىٰ إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد».

وقيل لآخر: «مَن علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم الشكوىٰ؟ قال: من علَّم أبا أيوب[1] صبره علىٰ الأثقال والأحمال الثقيلة، والمشي بها علىٰ ظهره من بلد إلىٰ بلد، مادًّا عنقه مستسلمًا صابرًا علىٰ الجوع والعطش والتعب، وغلظة الجمَّال وضربه، فالثقل والكل علىٰ ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه، ولا معول له غير الصبر».

وقيل لآخر: «من علَّمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علَّم الديك يصادف الحبة في الأرض -وهو محتاج إليها- فلا يأكلها بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثًا، حتىٰ تجيء الواحدة منهن فتلتقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحب الكثير فَرَّقه هاهنا وهاهنا، وإن لم يكن هناك دجاج؛ لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرىٰ من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام».

---

(١) كنية الحمار.

وقيل لآخر: «من علَّمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علَّم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر، ومن علم الأسد إذا مشىٰ وخاف أن يُقتفىٰ أثره ويُطلب، عفا أثر مشيته بذنبه، ومَن علَّمه أن يأتي إلىٰ شِبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه فيتحرك؛ لأن اللبؤة تضعه خَورًا كالميت، فلا تزال تحرسه حتىٰ يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومَن أَلْهَم كرام الأسود وأشرافها ألا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع...

ومن علَّم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي علىٰ ظهره، ويختلس نفسه إلىٰ داخل بدنه حتىٰ ينتفخ، فيظن الطير أنه ميتة فيقع عليه، فيثب علىٰ من انقضىٰ عمره منها؟

ومن علَّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلىٰ صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه علىٰ جرحه كالمرهم؟

ومن علَّم الدب إذا أصابه كَلْم أن يأتي إلىٰ نبت قد عرفه، وجهله صاحب الحشائش، فيتداوىٰ به فيبرأ؟

ومن علَّم الأنثىٰ من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلىٰ الماء فتلد فيه؛ لأنها -دون الحيوانات- لا تلد إلا قائمة؛ لأن أوصالها علىٰ خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه علىٰ الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي إلىٰ ماء وسط فتضعه فيه، فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم؟

ومن علَّم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر؟

ومن علَّم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثىٰ؛ فيَقصد الذكر مع علمه بأن عَدْوَه أشد وأبعد وثبة، ويدع الأنثىٰ علىٰ نقصان عدوها؛ لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطًا أو شوطين حقن ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه فيدركه الكلب، وأما الأنثىٰ فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج فيدوم عَدْوُها؟

ومَن علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف، فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها، علمًا منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق؟

ومن علَّم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقىٰ عصفور بجوارها حتىٰ يجيء، فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمَّة وحركة حتىٰ يطير معهم؟...

ومن علَّم العنكبوت نسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، ويجعل في أعلاها خيطًا، ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة نزل إليها فاصطادها؟...

ومن علَّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي، حيث يرتفع عن مجرىٰ السيل، ليسلم من مدق الحافر، ومجرىٰ الماء ويعمقه، ثم يتخذ في زواياه أبوابًا

عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزًا رقيقًا، فإذا أحسَّ بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة أو شجرة، علامة له علىٰ البيت إذا ضل عنه؟

ومَن علَّم الفهد إذا سمن أن يتوارىٰ لثقل الحركة عليه، حتىٰ يذهب ذلك السمن ثم يظهر؟

ومن علَّم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارىٰ؛ لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح، وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو؟

وهذا باب واسع جدًّا، ويكفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩]. اهـ[١].

[أمة النمل]

تأملْ هذه النملة الضعيفة وما أُعطيته من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادِّخاره وحفظه ودفع الآفة عنه؛ فإنك ترىٰ في ذلك عبراً وآيات، فترىٰ جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له، فإذا ظفرت به أخذت طرقًا من أسرابها إليه وشرعت في نقله، فتراها رفقتين: رفقة حاملة تحمله إلىٰ بيوتها سربًا ذاهبًا،

(١) «شفاء العليل» (١/ ٢٥٢- ٢٥٧).

ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تُخالط تلك في طريقها، بل هما كالخيطين، بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم في طريق، فإذا ثقل عليها حمل الشيء من ذلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت علىٰ حمله، بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه، فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلىٰ بيتها وخلَّوا بينها وبينه، وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه علىٰ باب البيت.

ولقد أخبرني بعض الصادقين أنه شاهد منهن يومًا عجبًا، قال: رأيت نملة جاءت إلىٰ شق جرادة فزاولته، فلم تطق حمله من الأرض، فذهبت غير بعيد، ثم جاءت معها بجماعة من النمل، قال: فرفعت ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلىٰ مكانه دارت حوله ودرن معها، فلم يجدن شيئًا فرجعن، فوضعته، ثم جاءت فصادفتْه فزاولته فلم تطق رفعه من الأرض، فذهبت غير بعيد، ثم جاءت بهن، فرفعته، فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئًا، فذهبن، فوضعته، فعادت فجاءت بهن، فرفعته، فدرن حول المكان، فلما لم يجدن شيئًا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها، ثم تحاملن عليها فقطعنها عضوًا عضوًا وأنا أنظر!!

ومن عجيب أمر الفطنة فيها: إذا نقلت الحب إلىٰ مساكنها كسرته لئلا ينبت؛ فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعًا، فإذا أصابه ندىٰ أو بلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلىٰ بيوتها، ولهذا ترىٰ في بعض الأحيان حبًّا كثيرًا علىٰ أبواب مساكنها مكسرًا، ثم تعود عن قريب فلا ترىٰ منه واحدة.

ومن **فطنتها**: أنها لا تتخذ قريتها إلا علىٰ نشز من الأرض؛ لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها، فلا ترىٰ قرية نمل في بطن وادٍ ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه.

ويكفي من فطنتها ما نص الله ﷻ في كتابه من قولها لجماعة النمل -وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل: ١٨]، فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة: النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار.

فاشتملت نصيحتها مع الاختصار علىٰ هذه الأنواع العشرة.

ولذلك أعجب سليمان قولها، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها.

ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، ثم أحرق قرية النمل، فأوحىٰ الله إليه: من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبِّح؟! فهلَّا نملة واحدة؟!**». اهـ[(١)][(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في (بدء الخلق)، (ح٣٣١٩، ومسلم بنحوه في (السلام)، (ح٢٢٤١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٥٠- ١٥٢).

[هداية الله للنمل]

هذه النمل من أهدىٰ الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء؛ فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعر حتىٰ تصل إلىٰ بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلىٰ ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس، فخرجت به فنشرته علىٰ أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذىٰ منها نملة علىٰ ما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل: ١٨]، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما بَيَّنه من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول؛ وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك.



وهذا من أعجب الهداية! وتأمل كيف عظَّم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧]، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، فأخبر بأنهم بأجمعهم مَرُّوا علىٰ ذلك الوادي، ودلَّ علىٰ أن ذلك الوادي كان معروفًا بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر عمَّا دل علىٰ شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها؛ حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: لا يحطمنكم سليمان وجنوده، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرّفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون؛ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل؛ حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكًا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روىٰ الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن قتل النمل، والنحلة، والهدهد، والصُّرد»[(١)](٢).

وفي «الصحيح»، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحىٰ الله إليه: أَمِنْ أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟! فهلَّا نملة واحدة؟!»**[(٣)].

---

(١) الصرد: نوع من الطيور.

(٢) رواه أبو داود في (الأدب)، (ح٥٢٦٧)، وأحمد في «المسند» (١/ ١٣٢).

(٣) سبق تخريجه (ص٤٢٣).

وذكر هشام بن حسان: أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند بيوتهن فجلس عليه، ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو لنحرقنَّ عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن.

وروىٰ عوف بن أبي جميلة، عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسىٰ الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتىٰ إن للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته علىٰ عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، من حديث أبي هريرة ﷺ يرفعه قال: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلىٰ السماء تدعو مستلقية علىٰ ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم**».

ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في «التهذيب» وغيره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي قال: «خرج سليمان بن داود ليستسقي، فرأىٰ نملة مستلقية علىٰ ظهرها، رافعة قوائمها إلىٰ السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنىٰ عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»[1].

ولقد حدثني من أثق به: أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٦٢)، (ح٢٩٤٨٧)، (٧/ ٧١)، (ح٣٤٢٧٣).



فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها؛ قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مرارًا، فلما كان في المرة الأخرىٰ استدارالنمل حلقة، ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوًا عضوًا، قال شيخنا - وقد حكيت له هذه الحكاية- فقال: «هذه النمل فطرها الله سبحانه علىٰ قبح الكذب وعقوبة الكذاب».

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل.

ويُذكر أن سليمان بن داود صلوات الله وسلامه عليه لما رأىٰ حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء، استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد فيها حبة ونصف حبة فقال: أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات؟! فقالت: نعم ولقد صدقتك، ولكن لما رأيتك مشغولًا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت علىٰ نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها: أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء؛ علمًا منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي علىٰ ضعفها شديدة القوىٰ؛ فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلىٰ بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا

أخذت عضو جرادة يابسًا فأدنيته إلىٰ أنفك؛ لم تشم له رائحة، فإذا وضعته علىٰ الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه فاحتملته، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصنف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتىٰ أقبلت بسرعة إليه؟! فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلىٰ موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلىٰ جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا حتىٰ يتساعدوا علىٰ حمله ونقله، وهي تأتي إلىٰ السنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا تركتها، فلها أولًا صدق الشم، وبُعْد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة علىٰ محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل؛ إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صاحباتها.

ومن عجيب أمرها: أن الرجل إذا أراد أن يحترز من الذَّرِّ لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرًا ويملؤه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذَّرُّ يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ويمشي علىٰ السقف، إلىٰ أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه! وجرَّبنا نحن ذلك.



وأحمىٰ صانع مرة طوقًا بالنار، ورماه علىٰ الأرض ليبرد، واتفق أن أسفل الطوق نمل، فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان فيه! كان ذلك مركزًا له، وهو أبعد مكان من المحيط. اهـ(١).

[هداية الله النحل]

أمر النحل في هدايتها من أعجب العجب؛ وذلك أن لها أميرًا ومدبرًا وهو اليعسوب، وهو أكبر جسمًا من جميع النحل، وأحسن لونًا وشكلًا، وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثًا، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه يدخل بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك؛ وذلك أن الذكر منها لا يعمل شيئًا ولا يكتسب، ثم تجتمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلىٰ المراعي من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصد الطرق وأقربها، فيجتني منها كفايتها، فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلىٰ الخلايا وقف علىٰ بابها ولم يدع ذكرًا ولا نحلة غريبة تدخلها.

فإذا تكامل دخولها دخل بعدها، وقد أخذت النحل مقاعدها وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار، ثم تقتسم النحل فرقًا؛ فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة، ومنها

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ٢٣٦- ٢٤١).

فرقة تهيئ الشمع وتصفيه، والشمع هو ثفل العسل وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل به عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها.

وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله علىٰ متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتىٰ لا تفسد عليهن بقية العمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها، وأول ما تبني في الخلية مقعد الملك وبيته، فتبني له بيتًا مربعًا يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل تشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئًا يشبه الحوض، يصب فيه من العسل أصفىٰ ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض، يكون ذلك طعامًا للملك وخواصه، ثم يأخذن في بناء البيوت علىٰ خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبنىٰ بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع؛ فكأنها قرأت كتاب إقليدس، حتىٰ عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسَّعة، والشكل المسدس -دون سائر الأشكال- إذا انضمت بعض أشكاله إلىٰ بعض صارت شكلًا مستديرًا كاستدارة الرحىٰ، ولا يبقىٰ فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا حتىٰ يصير طبقًا واحدًا محكمًا، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم، الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلىٰ أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما: ألا تكون زواياها ضيقة حتىٰ لا يبقىٰ الموضع الضيق معطلًا.



الثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلىٰ بعض امتلأت العرصة منها، ولا يبقىٰ شيء منها ضائعًا، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط؛ فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها، إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقىٰ فيما بينها فروج خالية ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين.

فهداها سبحانه علىٰ بناء بيوتها علىٰ هذا الشكل من غير مسطر ولا آلة ولا مثال يحتذىٰ عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر علىٰ بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكثيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها علىٰ قوتها، وتأتيها ذللًا لا تستعصي عليها ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المرعىٰ وألطفه، وأن تعود إلىٰ بيوتها الخالية فتصب فيها شرابًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس؛ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصًا تسيح سهلًا وجبلًا، فأكلت من الحلاوات المرتفعة علىٰ رءوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطانًا، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جَنَتْه، فتعيده حلاوة ونضجًا، ثم تمجه في البيوت، حتىٰ إذا امتلأت ختمتها وسدت رءوسها بالشمع المصفَّىٰ، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلىٰ مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتًا، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولىٰ.

فإذا برد الهواء وأخلف المرعىٰ[١]، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة، وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلىٰ بيوتها، وإذا كان وقت رجوعها وقف علىٰ باب الخلية بوَّاب منها ومعه أعوان، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها، فإن وجد منها رائحة منكرة، أو رأىٰ بها لطخة من قذر منعها من الدخول، وعزلها ناحية إلىٰ أن يدخل الجميع، فيرجع إلىٰ المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع علىٰ شيء منتن أو نجس قدَّه نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية؛ هذا دأب البوَّاب كل عشية.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا إذا اشتهىٰ التنزه، فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلىٰ مكانه، ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذىٰ من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقىٰ الخلية خالية، فإذا رأىٰ صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلىٰ مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل فيعرفه باجتماع النحل إليه؛ فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتىٰ تصير عليه عنقودًا، وهو إذا خرج غضبًا جلس علىٰ مكان

---

(١) أي: فسد وذهب نباته.



مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل وانضمت إليه، حتىٰ تصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحًا أو قصبة طويلة، ويشد علىٰ رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلىٰ محل الملك يكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب، فيحركه وقد أدنىٰ إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلىٰ أن يرضىٰ الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع علىٰ الضغث وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلىٰ الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده.

ولا يقع النحل علىٰ جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة، ولا تدين بطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسَّالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية؛ صيانة للخلية عن جيفته، ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب؛ فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها، والعسَّالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حولتها وألجأتها إلىٰ أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل فلا تقدر علىٰ الطيران، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلىٰ القتلىٰ فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا في الأحايين، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشبان، وإذا عزم علىٰ الخروج ظلَّ قبل ذلك بيوم أو بيومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها، فيخرج ويخرجن معه علىٰ ترتيب ونظام قد دبره

معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يطلبن الملك، فيجعل كل واحد منهم علىٰ طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملك منها ملكًا آخر؛ لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها.

وإذا رأىٰ صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية، وخاف من تفرق النحل بسببهم، احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحدًا، ويحبس الباقي عنده في إناء، ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتىٰ إذا حدث بالملك المنصوب حَدَثٌ من مرض أو موت، أو كان مفسدًا فقتلته النحل أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدًا وجعله مكانه؛ لئلا يبقىٰ النحل بلا ملك؛ فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزهًا ومعه الأمراء والجنود، ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ، وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالىٰ قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها، والنحل من أنظف الحيوان وأنقاه؛ ولذلك لا تلقي زبلها إلا وهي تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار، وأقل لسعًا وأجود عسلًا، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه، وقد خُصَّت من وحي الرب تعالىٰ وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام، كان أكثر الحيوان أعداء، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في



خلقه، وهو العزيز الحكيم. اهـ[١].

[الجراد والتسليط]

الجراد من جنود الله؛ ضعيف الخلقة، عجيب التركيب، فيه خلق سبع حيوانات، فإذا رايت عساكره قد أقبلت أبصرت جندًا لا مرد له ولا يحصىٰ منه عدد ولا عدة، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك، فانظر كيف ينساب علىٰ الأرض كالسيل فيغشىٰ السهل والجبل، والبدو والحضر حتىٰ يستر نور الشمس بكثرته، ويسد وجه السماء بأجنحته، ويبلغ من الجو إلىٰ حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه.

فسل المُعطِّل: من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانًا رام أخذه؛ بلية علىٰ العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة، فلا يقدرون بأجمعهم علىٰ دفعه، بل ينظرون اليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق، ويذر الأرض قفرًا منها وهم لا يستطيعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها؟

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له علىٰ القوي فينتقم به منه، ويُنْزِل به ما كان يُحذِّره منه حتىٰ لا يستطيع لذلك مردًّا ولا صرفًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ

(١) «شفاء العليل» (١/ ٢٣٢- ٢٣٦).

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥، ٦].

فواحسرتاه علىٰ استقامة مع الله وايثار لمرضاته في كل حال يُمكِّن به الضعيف المستضعف حتىٰ يرىٰ من استضعفه أنه أولىٰ بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسئول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من رده، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

ويحكىٰ أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه علىٰ أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلًا فذهب بالغنم فجعل يعجب، فأتي في منامه فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟! إنما هي تلك القطرات التي كنت تُشيب بها اللبن، اجتمعت وصارت سيلًا.

فقسْ علىٰ هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك؛ تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

وتأملْ الحكمة في حبس الله الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جُوزوا علىٰ منع ما للمساكين قِبَلَهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمُنِعْتُم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قِبلَكم.



وتأملْ حكمة الله تعالىٰ في صرفه الهدىٰ والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده؛ صدًّا بصد ومنعًا بمنع.

وتأمل حكمته تعالىٰ في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليهم، كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها عليهم بالربا؛ جُوزوا إتلافًا بإتلاف، فقَلَّ أن ترىٰ مرابيًا إلا وآخرته الىٰ محق وقلة وحاجة.

وتأمل حكمته تعالىٰ في تسليط العدو علىٰ العباد إذا جار قويهم علىٰ ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالىٰ منذ قامت الدنيا إلىٰ أن تطوىٰ الأرض ويعيدها كما بدأها.

وتأملْ حكمته تعالىٰ في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم؛ فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذتْ منهم الملوك ما لا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة؛ فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم.

وليس في الحكمة الإلهية أن يولي علىٰ الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الاول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شِيبتَ لهم الولاة، فحكمة الله تأبىٰ أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا علىٰ قدرنا، وولاة من قبلنا علىٰ قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها. اهـ(١).

[حديث الذباب]

قال ﷺ: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامْقُلوه -أي فاغمسوه- فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء، فليغمسه كله»(٢).

وقد تكلم علىٰ هذا الحديث بعض من لا خلاق له، وقال: كيف يكون هذا؟ وكيف يجتمع الداء والشفاء في جناحي الذبابة؟ وكيف تعلم ذلك من نفسها حتىٰ تقدم جناح الداء، وتؤخر جناح الشفاء، وما أربها إلىٰ ذلك؟

قلت: وهذا سؤال جاهل، أو متجاهل، وإن الذي يجد نفسه ونفوس عام الحيوان قد جُمع فيها بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وهي أشياء متضادة

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٧٥ - ١٧٨).
(٢) رواه البخاري بنحوه في (الطب)، (ح٥٧٨٢، وأبو داود بلفظه في (الأطعمة)، (ح٣٨٤٤).

إذا تلاقت تفاسدت، ثم يرىٰ الله سبحانه قد أَلَّف بينها وقهرها علىٰ الاجتماع، وجعل منها قوىٰ الحيوان التي بها بقاؤها وصلاحها، لجدير ألا ينكر اجتماع الداء والشفاء في جزئين من حيوان واحد، وأن الذي ألهم النحلة أن تتخذ البيت العجيب الصنعة، وأن تَعْسِل فيه، وألهم الذرة أن تكتسب قوتها وتدخره لأوان حاجتها إليه، هو الذي خلق الذبابة، وجعل الهداية إلىٰ أن تقدِّم جناحًا وتؤخر جناحًا، لما أراد من الابتلاء الذي هو مَدْرجة التعبد، والامتحان الذي هو مضمار التكليف، وفي كل شيء عبرة وحكمة، وما يَذَّكر إلا أولو الألباب. اهـ[١].

[كثرةُ البهائم والوحوش]

تأمل خَلَّة عجيبة جُعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب؛ علىٰ كثرتها لا يرىٰ منها شيء، وليس شيئًا قليلًا فتخفىٰ لقلتها، بل قد قيل: إنها أكثر من الناس، واعتبر ذلك بما تراه في هذه الصحاري من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب الهوام علىٰ اختلافها، وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد ترىٰ منها شيئًا ميتًا؛ لا في كناسه، ولا في أوكاره، ولا في مساقطه، ولا في مراعيه وطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه؛ إلا ما عدا عليه عادٍ؛ إما افترسه سبع، أو رماه صائد، أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن إحراز جسمه وإخفاء جيفته؛ فدل ذلك علىٰ أنها إذا أحست بالموت ولم تُغْلَب علىٰ نفسها كمنت حيث لا يُوصل

---

(١) «مختصر سنن أبي داود» (٥/ ٣٤١، ٣٤٢).

الىٰ أجسامها، وقبرتْ جيفها قبل نزول البين بها، ولولا ذلك لامتلأت الصحاري بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها، فعاد ضرر ذلك بالناس، وكان سبيلًا إلىٰ وقوع الوباء.

وقد دلَّ علىٰ هذا قوله تعالىٰ في قصة ابني آدم: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١].

وأما ما جُعل عيشه بين الناس -كالأنعام والدواب- فلقدرة الإنسان علىٰ نقله، واحتياله في دفع أذيته منع مما جعل في الوحوش كالسباع.

فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به؛ كيف جعل طبعًا في البهائم وكيف تعلموه من الطير.

وتأمل الحكمة في إرسال الله تعالىٰ لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه، وغربته هو من رحمة الله تعالىٰ، وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم، واستيحاشهم منه، وهو من الطيور التي تنفر منها الإنس ومن نعيقها وتستوحش بها، فأرسل إليه مثل هذا الطائر حتىٰ صار كالمعلم له والأستاذ، وصار بمنزلة المتعلم والمستدل.

ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها؛ فقد قال النبي ﷺ: «**إذا بعثتم إليَّ بريدًا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه**»[1]، وكان

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٣٦٧)، (ح٧٧٤٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» =

يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها، واسم الرسول إذا جاء إليه، ولما جاءهم سهيل بن عمرو يوم الحديبية قال: «**قد سَهُل لكم من أمركم**»(١)، ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال: «**لم يزل معنىٰ اسمه فيه وفي ذرِّيته**»(٢)، ولما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله، فأخبره أنه جمرة بن شهاب، وأن داره بالحرقة، وأن مسكنه منها ذات لظىٰ، قال له: أدركْ بيتك فقد احترق! فكان كما قال. اهـ(٣).

[تذليل الأرض للإنسان]

قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولًا منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة علىٰ من أراد ذلك منها.

وأخبر سبحانه أنه جعلها مهادًا، وفراشًا، وبساطًا، وقرارًا، وكفاتًا.

وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرىٰ فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها.

= (٦/ ٤٧٠)، (ح٣٣٠٠٨).

(١) رواه البخاري في (الشروط)، (ح٢٧٣٤).

(٢) أخرجه البخاري بنحوه في (الأدب)، باب (اسم الحزن)، (ح٦١٩٠).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٣٩ - ١٤١).

ومن بركتها: أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها.

ومن بركتها: أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان.

ومن بركتها: أنها تحمل الأذىٰ علىٰ ظهرها، وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها؛ فتواريٰ منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها: أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها، وتضمه، وتئويه، وتخرج له طعامه وشرابه، فهي أحمل شيء للأذىٰ، وأعوده بالنفع؛ فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذىٰ وأقرب إلىٰ الخير.

والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول الذي كيفما يُقاد ينقاد.

وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولًا؛ فالماشي عليها يطأ علىٰ مناكبها وهو أعلىٰ شيء فيها، ولهذا فُسِّرت المناكب بالجبل كمناكب الإنسان وهي أعاليه، قالوا: وذلك تنبيه علىٰ أن المشي في سهولها أيسر، وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه. والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي...

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها؛ فذللها لهم، ووطَّأها، وفتق فيها السُّبل والطرق التي يمشون فيها، وأودعها رزقهم؛ فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن. ثم نبَّه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ ، علىٰ أنَّا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا

مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطنًا ومستقرًّا، وإنما دخلناه لنتزود منه إلىٰ دار القرار؛ فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة علىٰ ربوبيته، ووحدانيته، وقدرته، وحكمته، ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلىٰ الدنيا واتخاذها وطنًا ومستقرًّا، بل نسرع فيها السير إلىٰ داره وجنته.

فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده، والتذكير بنعمه، والحث علىٰ السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم، وإليه النشور. اهـ[١].

[تأملات عجيبة في الجبال]

تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي قد يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الارض لا حاجة إليها! وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا؟! قال: «**اللهمَّ نعم**»[٢].

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقىٰ في قللها[٣] حاضنًا لشراب

---

(١) «الفوائد» (٣٦- ٣٩).

(٢) أخرجه مسلم بنحوه في (الإيمان)، (ح١٢).

(٣) القلل: رءوس الجبال.

الناس إلىٰ حين نفاذه، وجعل فيها ليذوب أولًا فأولًا، فتجيء منه السيول الغزيرة، وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والربىٰ ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل.

فلولا الجبال لسقط الثلج علىٰ وجه الأرض فانحل جملة وساح دفعة فعُدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته.

ومن منافعها: ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي هي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضًا أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها: ما ينحت من أحجارها للأبنية علىٰ اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها.

ومن منافعها: ما يوجد فيها من المعادن علىٰ اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد، وأضعاف ذلك من أنواع المعادن... وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها ﷻ.

ومن منافعها أيضًا: أنها تَرُدُّ الرياح العاصفة وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ما تحتها؛ ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها أيضًا: أنها تَرُدُّ عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها لأخربت السيول في مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.



ومن منافعها: أنها أعلام يستدل بها في الطرقات؛ فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلىٰ الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٢] فالجواري: هي السفن؛ قالت الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنَّه علم في رأسه نار

فسُمي الجبل علمًا؛ من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا: ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها: أنها تكون حصونًا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

ومن منافعها: ما ذكره الله تعالىٰ في كتابه أنه جعلها للأرض أوتادًا تُثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعْظِم بها من منفعة وحكمة!

ولقد دعانا الله -سبحانه- في كتابه إلىٰ النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠]، فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد علىٰ قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته، هذا مع أنها تُسبح بحمده، وتخشع له، وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها -علىٰ شدتها وعظم خلقها- من الأمانة إذ عرضها

عليها وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ كليمه ونجيه.

ومنها الجبل الذي تجلىٰ له ربه فساخ وتدكدك.

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه أليه، وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورًا علىٰ بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر، وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدانُ عرفات، فلله كم به من ذنب مغفور، وعثرة مقالة، وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية، وكربة مفروجة، وبلية مرفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة!

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فج عميق وقوفًا لربهم، مستكينين لعظمته، خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رءوسهم، يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة.

فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه، حتىٰ أكرمه الله برسالته وهو في غاره؛ فهو الجبل الذي فاض منه النور علىٰ أقطار العالم، فإنه

ليفخر علىٰ الجبال، وحق له ذلك.

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالًا هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوي إليه كلما ذكرتها وتهفو نحوها، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبة منه، فأحبه وحببه إلىٰ ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم.

هذا؛ وإنها لتعلم أن لها موعدًا ويومًا تُنْسف فيها نسفًا وتصير كالعهْن من هوله وعظمه؛ فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

وكانت أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا سافرت فصعدت علىٰ جبلٍ تقول لمن معها: أسْمِعِ الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله.

فيا عجبًا من مضغة لحم أقسىٰ من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلىٰ عليها، ويذكر الرب تبارك وتعالىٰ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها؛ إذ لم تلن علىٰ كلامه وذكره وزواجره ومواعظه.

فمن لم يُلِن لله في هذه الدار قلبه، ولم يُنب إليه، ولم يُذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلًا، فإن أمامه الملين الأعظم، وسيرد إلىٰ عالم الغيب والشهادة فيرىٰ ويعلم. اهـ(١).

[عجائب السحاب والمطر]

من آياته: السحاب المسخر بين السماء والأرض، كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسفًا؟! ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلىٰ بعض، ثم تلقحه الريح - وهي التي سماها سبحانه لواقح- ثم يسوقه علىٰ متونها إلىٰ الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوىٰ عليها إهراق مائه عليها، فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتىٰ إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة علىٰ ظهور الرياح...

وكان الحسن إذا رأىٰ السحاب قال: في هذا واللهِ رزقكم؛ ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم...

وبالجملة؛ فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدرة فيه، وكيف يخلقه الله متىٰ شاء وإذا شاء، وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، إلىٰ أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله ويُنْزِله منه مقطعًا بالقطرات، كل قطرة بقدر

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٤- ٨٩).



مخصوص اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء علىٰ الأرض رشًّا، ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرىٰ، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمتزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتىٰ تصيب الأرض قطرة قطرة، قد عُيِّنت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلىٰ غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم علىٰ أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه.

فتأملْ كيف يسوقه -سبحانه- رزقًا للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه علىٰ شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثم كيف أودعه في الأرض، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات؛ فهذا النبات يغذي، وهذا يصلح الغذاء، وهذا ينفذه، وهذا يضعف، وهذا سم قاتل، وهذا شفاء من السم، وهذا يمرض، وهذا دواء من المرض، وهذا يبرد، وهذا يسخن... إلىٰ غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها. اهـ[١].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٥- ٣٧).

[تعاقب الليل والنهار]

من تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر؛ فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفلَّ كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره، فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته.

فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله.

فكيف كان الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟

وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه، وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟

وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟

ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع علم حاجتهم إلىٰ الهدوء لراحة أبدانهم وجموم حواسهم.

فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا، ولا قَرُّوا، ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءً ومعاشًا.



ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان.

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع علىٰ العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه؛ فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم.

وصار النور والظلمة -علىٰ تضادهما- متعاونين متضافرين علىٰ مصلحة هذا العالم، واشتدت الضرورة إلىٰ تغيير ذلك وإزالته بضده. اهـ(١).

ثامنًا: الصبر

[فضل الصبر]

إن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجندًا لا يُهْزم، وحصنًا حصينًا لا يُهدم ولا يُثْلم، فهو والنصر أخوان شقيقان؛ فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظَّفَر كمحل الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفيُّ الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمة الباطنة والظاهرة.

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (١/ ٣٠٩- ٣١١).

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين؛ فقال تعالىٰ -وبقوله اهتدىٰ المهتدون-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وأخبر أن الصبر خير لأهله -مؤكدًا باليمين- فقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

وأخبر أن مع الصبر والتقوىٰ لا يضر كيد العدو، ولو كان ذا تسليط؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه أوصلاه إلىٰ محل العز والتمكين؛ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وعلق الفلاح بالصبر والتقوىٰ، فعقل ذلك عنه المؤمنون؛ فقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وأوصىٰ عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ نوائب الدنيا والدين؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]. وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظىٰ به إلا الصابرون؛ فقال تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١١١].

وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره انما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون؛ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

والصبر آخيَّة(١) المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها؛ فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله علىٰ حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخيرُ عيشٍ أدركه السعداء بصبرهم وترقوا إلىٰ أعلىٰ المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلىٰ جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. اهـ(٢).

---

(١) الآخية: عود في الحائط أو يدفن طرفه في الأرض ويبرز طرفه الآخر؛ كالحلقة تشد فيها الدابة بحبل لئلا تشرد، والمقصود هنا: أن الصبر هو الذي يُبقي المؤمن علىٰ إيمانه كما تحفظ الآخية الدابة من الشرود.

(٢) «عدة الصابرين» (١١ - ١٣).

[الصبر في القرآن]

الصبر مذكور في القرآن علىٰ ستة عشر نوعًا:

الأول: الأمر به؛ نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده؛ كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]؛ فإن إبطالها ترك الصبر علىٰ إتمامها. وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء علىٰ أهله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧] الآية، وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم؛ وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم



وتأييدهم، ليست معية عامة -وهي معية العلم والإحاطة- كقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩، الأنفال: ٦٦].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه؛ كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرىٰ لأهل الصبر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ومنه قول النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**»(١).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالىٰ بأن أهل الصبر هم أهل العزائم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد، وهو جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المشهور: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك ...**» ١/ ٣٠٧.

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلقَّىٰ الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر؛ كقوله تعالىٰ لموسىٰ: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥]، وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٩]، وقوله في سورة الشورىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٢، ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة؛ سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].



السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، والتقوىٰ والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة. اهـ[١].

[الأسباب المعينة على الصبر]

[لما كان] الصبر مُصارعةَ باعث العقل والدين باعثَ الهوىٰ والنفس، وكل متضارعين أراد أن يتغلب أحدهما علىٰ الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر... فأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالىٰ أن يُعصىٰ وهو يرىٰ ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك ألبتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه، فيترك معصيته محبة له؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته، وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان؛ فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالىٰ ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلًا إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلىٰ ربه، فمَلَك ينزل بهذا، وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام؛ فإن الرب تعالىٰ إذا تمادىٰ العبد في

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٩- ١٦١).

معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلًا عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات؛ وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلًا وشرعًا وعرفًا، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلًا وعرفًا، ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنىٰ مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقىٰ تبعتها؟ تذهب الشهوة وتبقىٰ الشقوة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١).

قال بعض الصحابة: يُنزع منه الإيمان حتىٰ يبقىٰ علىٰ رأسه مثل الظلة؛ فإن تاب رجع إليه.

وقال بعض التابعين: ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه، ولهذا روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: **«الزناة في التنور عراة»**(٢)؛ لأنهم تعروا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنورًا ظاهرًا يُحمىٰ عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر؛ فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين، وأحلىٰ موقعًا وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها؛ كتاب (الحدود)، (ح٦٧٧٢)، ومسلم في (الإيمان)، (ح٥٧).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في (التعبير)، (ح٧٠٤٧، وهو جزء من حديث طويل.



الذي أزال داء الجسد وأعاده إلىٰ صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله، ونهىٰ نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولىٰ بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعيَّة؛ وهو نوعان: معيَّة عامة، ومعيَّة خاصة، فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفىٰ عليه حاله، وقد تقدم هذا، والمقصود هنا المعية الخاصة؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضىٰ وطره ونال شهوته علىٰ التمام من أول عمره إلىٰ آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟! إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة والمعاجلة؛ وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل، فيأخذه الله علىٰ غرة، فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلا من جرَّبها.

العاشر: مشهد البلاء والعافية؛ فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم.

الحادي عشر: أن يُعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوىٰ ومقاومته علىٰ التدريج قليلًا قليلًا، حتىٰ يدرك لذة الظفر فتقوىٰ حينئذ همته؛ فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوىٰ التي تصدر عنها تلك الأعمال؛ ولذلك تجد قوىٰ الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد؛ بخلاف البزاز والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين، وقوي فيه باعث الشهوة، ومتىٰ عوَّد نفسه مخالفة الهوىٰ غلبه متىٰ أراد.

الثاني عشر: كف الباطن عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يئويها ويساكنها؛ فإنها تصير أماني، وهي رءوس أموال المفاليس، ومتىٰ ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوىٰ فتصير همومًا، ثم تقوىٰ فتصير إرادات، ثم تقوىٰ فتصير عزمًا يقترن به المراد، فدَفْعُ الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلىٰ موافقة الهوىٰ، وليس المراد ألا يكون له هوىٰ، بل المراد أن يصرف هواه إلىٰ ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالىٰ؛ فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله، فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولا بدَّ.

فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوىٰ، والعمل إن لم يكن لله كان للرياء والنفاق، والمال إن لم ينفق في طاعة الله أُنْفِق في طاعة الشيطان والهوىٰ،



والجاه إن لم يستعمله صاحبه في مرضاة الله، استعمله في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملته في معصيته، فمن عوَّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومَن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله. وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق علىٰ المنفق لله من الإنفاق لغيره، وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صَرْف الفكر إلىٰ عجائب آيات الله التي نَدَبَ عباده إلىٰ التفكر فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولىٰ ذلك علىٰ قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه ألا يزال محاضرًا للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلىٰ محاضرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن، والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها؛ فلا يرضىٰ لنفسه أن يتزود منها إلىٰ دار بقائه وخلوده أخسَّ ما فيها وأقله نفعًا إلا ساقط الهمة، دنيء المروءة، ميت القلب؛ فإن حسرته تشتدُّ إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلىٰ زادٍ يعذب به ويناله بسببه غاية الألم؟! بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له، كان ذلك حسرة عليه وغبنًا.

السادس عشر: تَعَرُّضه إلىٰ مَن القلوب بين أصبعيه، وأَزِمَّة الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه علىٰ الدوام؛ فلعله أن يصادف أوقات النفحات؛ كما في الأثر المعروف: «**إنَّ لله في أيام دهره نفحات، فتعرَّضوا لنفحاته، واسألوا الله أن**

يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[١]، ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه، فمن أُعطي منشور الدعاء أُعطي الإجابة؛ فإنه لو لم يُرِد إجابته لما ألهمه الدعاء؛ كما قيل:

لو لم تُرد نيل ما أرجو وأطلبه ... من جود كفك ما عودتني الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال؛ فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله، كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حَرَمَه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها علىٰ أكمل حال؛ كما قيل: «يا آدم، لا تجزع من قولي لك: واخْرُج منها؛ فلك خلقتها وسأعيدك إليها».

فالرب تعالىٰ ينعم علىٰ عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحبه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلًا، إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أن يعلم العبدُ بأنَّ فيه جاذبين متضادين، ومحنته بين الجاذبين: جاذب يجذبه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلىٰ أسفل سافلين، فكلما انقاد مع الجاذب الأعلىٰ صعد درجة، حتىٰ ينتهي إلىٰ حيث يليق به من المحل الأعلىٰ، وكلما انقاد إلىٰ الجاذب الأسفل، نزل درجة حتىٰ ينتهي إلىٰ موضعه من سجين.

---

(١) أخرجه الطبراني بنحوه في «المعجم الكبير» (١/ ٢٥)، (ح٧٢٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١١١)، (ح٣٤٥٩٤).

ومتىٰ أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلىٰ أو الأسفل، فلينظر أين روحه في هذا العالم؛ فإنها إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلىٰ الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا؛ فهو أولىٰ بها، فالمرء مع من أحبَّ طبعًا وعقلًا وجزءًا، وكلُّ مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلىٰ أهله بالطبع، وكل امرئ يصبو إلىٰ ما يناسبه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلىٰ أعلىٰ، والنفوس السافلة إلىٰ أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أنَّ تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع؛ فمتىٰ لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلًا قابلًا ينزل فيه، وإن فرَّغه حتىٰ أصابه غيث الرحمة ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعًا كاملًا، بل ربما غلب الدغل علىٰ الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذي يُصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع، ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبد قلبه وفرَّغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديرًا بحصول المغل.

وكما يقوىٰ الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوىٰ الرجاء لإصابة نفحات الرحمن ﷻ في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع؛ كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة؛ فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله

تعالىٰ مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلىٰ مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوىٰ من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد علىٰ الغائب الحسن، وبظلمه يُؤْثِر ما يحكم به هذا ويقتضيه علىٰ ما يحكم به الآخر ويقتضيه.

ولو فرَّغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأىٰ العجائب؛ فإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذي في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع اليه الفضل من كل صوب، فتأمل حال نهر عظيم يسقي كل أرض يمر عليها، فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدية سكر وسد كثيف، فصاحبها يشكو الجدب، والنهر إلىٰ جانب أرضه. اهـ[1].

[الصبر على فعل الطاعات]

يحتاج العبد هاهنا إلىٰ الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشُّروع فيها بتصحيح النية والإخلاص، وتجنُّب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم علىٰ توفية المأمورية حقها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل؛ فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر علىٰ استصحاب ذكر النية، وعلىٰ حضور القلب بين يدي المعبود ألا ينساه في أمره؛ فليس الشأن في فعل المأمور، بل الشأن كل الشأن ألا ينسىٰ

(١) «عدة الصابرين» (٧٣- ٧٩).



الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحبًا لذكره في أمره؛ فهذه عبادة العبيد المخلصين لله، فهو محتاج إلىٰ الصبر علىٰ توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسُننها، وإلىٰ الصبر علىٰ استصحاب ذكر المعبود فيها، ولا يشتغل عنه بعبادته؛ فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحال الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل؛ وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها، والتكبر والتعظم بها؛ فإن هذا أضر عليه من كثيرٍ من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلىٰ ديوان العلانية؛ فإن العبد يعمل العمل سرًّا بينه وبين الله سبحانه، فيكتب في ديوان السر؛ فإن تحدث به نقل إلىٰ ديوان العلانيه، فلا يظن أن بساط الصبر انطوىٰ بالفراغ من العمل. اهـ(١).

---

(١) «عدة الصابرين» (٨٦- ٨٨).

[صبر عزيز]

الصبر عن معاصي اللسان والفَرْج من أصعب أنواع الصبر؛ لشدة الداعي إليهما وسهولتهما؛ فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان؛ كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء علىٰ النفس تعريضًا وتصريحًا، وحكاية كلام الناس والطعن علىٰ من يبغضه، ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي، وتيسر حركة اللسان، فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «**أمسك عليك لسانك**»، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**وهل يكبُّ الناس في النار علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!**»(١).

ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد؛ فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلىٰ وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خَصَّ أهلَ الصلاح والعلم بالله والدين والقول علىٰ الله ما لا يعلم.

وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام، والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، لا يبالي بارتكاب الحرام؛ كما يحكىٰ أن رجلًا خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواقعتها قال: يا هذه! غطي وجهك؛ فإن النظر إلىٰ وجه الأجنبية حرام!

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في (الإيمان)، باب (ما جاء في حرمة الصلاة)، (ح٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في (الفتن)، (ح٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).



وقد سأل رجل عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن دم البعوض، فقال: انظروا إلىٰ هؤلاء! يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ!

واتفق لي قريب من هذه الحكاية: كنتُ في حال الإحرام، فأتاني قوم من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة علىٰ الأموال يسألوني عن قتل المحرم القمل، فقلت: يا عجبًا لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ويسألون عن قتل القملة في الإحرام. اهـ[1].

[صبر الكرام وصبر اللئام]

كل أحدٍ لا بد أن يصبر علىٰ بعض ما يكره، إما اختيارًا وإما اضطرارًا؛ فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يحمد عليه، ويذم علىٰ الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يَرُد الجزع عليه فائتًا، ولم ينتزع عنه مكروهًا، وأن المقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُقدَّر لا حيلة في تحصيله، فالجزع ضرره أقرب من نفعه.

قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر»...

فإذا كان آخر الأمر الصبر، والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره.

---

(١) «عدة الصابرين» (٩٢، ٩٣).

وقال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوَّ البهائم».

فالكريم ينظر إلىٰ المصيبة، فإن رأىٰ الجزع يردها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنَّه يجعل المصيبة مصيبتين.

وأما اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا؛ فإنه يحوم حول ساحة الجزع، فلا يراها تجدي عليه شيئًا، فيصبر صبر الموثق للضرب، وأيضًا فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان؛ فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم، وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم؛ فيصبر علىٰ البذل في طاعة الشيطان أتم صبر، ولا يصبر علىٰ البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر علىٰ تحمل المشاق لهوىٰ نفسه في مرضاة عدوه، ولا يصبر علىٰ أدنىٰ المشاق في مرضاة ربه، ويصبر علىٰ ما يقال في عرضه في المعصية، ولا يصبر علىٰ ما يقال في عرضه إذا أوذي في الله، بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يُتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوىٰ نفسه ومرضاته، صابرًا علىٰ ما يقال فيه، وكذلك يصبر علىٰ التبذل بنفسه وجاهه في هوىٰ نفسه ومراده، ولا يصبر علىٰ التبذل لله في مرضاته وطاعته؛ فهو أصبر شيء علىٰ التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس، وأعجز شيء عن الصبر علىٰ ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريمًا عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نُودي بهم يوم القيامة علىٰ رءوس الأشهاد ليعلم أهل الجمع من أولىٰ بالكرم اليوم: أين المتقون؟. اهـ[1].

---

(١) «عدة الصابرين» (٦٨، ٦٩).



تاسعًا: أعمال قلبية أخرى
[حاجة العبد لمعرفة أسماء الله وصفاته]

فإن الله -جل ثناؤه وتقدست أسماؤه- إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبه علىٰ محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلىٰ، وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقَّاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالىٰ تَعرَّف به إليه علىٰ لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بها فرحه، وعظم بها غناؤه، وقويت بها معرفته، واطمأنت إليها نفسه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلىٰ شيء أعظم منها إلىٰ معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلفىٰ عنده، ولا سبيل إلىٰ هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله يُنْزِل العبد من نفسه حيث يُنْزِله العبد من نفسه؛ فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا، وعنها نافرًا ومنفرًا، فالله له أشد

بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أكبر مقتًا، حتىٰ تعود القلوب إلىٰ قلبين:

قلب ذكرُ الأسماء والصفات قوتُه وحياته ونعيمه وقرة عينه، لو فارقه ذكرها طرفة عين، ومحبتها لحظات لاستغاث: يا مقلب القلوب، ثبتْ قلبي علىٰ دينك، فلسان حاله يقول:

يُـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم وتـــأبىٰ الطبـــاع علـــىٰ الناقـــل

ويقول:

وإذا تقاضـــيت الفـــؤاد تناســـيًا ألفيـــت أحشـــائي بـــذاك شـــحاحا

ويقول:

إذا مرضـــنا تـــداينا بـــذكركم ونتـــرك الـــذكر أحيانًـــا فننـــتكس

ومن المحال: أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته، نافر من سماعها، معرض بكليته عنها، زاعم أن السلامة في ذلك، كلا والله، إن هو إلا الجهالة والخذلان والإعراض عن العزيز الرحيم؛ فليس القلب الصحيح قط إلىٰ شيء أشوق منه إلىٰ معرفة ربه تعالىٰ وصفاته، وأفعاله وأسمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك، وكفىٰ بالعبد عمىٰ وخذلانًا أن يضرب علىٰ قلبه سرادق الإعراض عها والنفرة والتنفير، والاشتغال بما لو كان حقًّا لم ينفع إلا بعد معرفة الله والإيمان به وبصفاته وأسمائه.

والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود، وقد قمش



شبهًا من الكلام الباطل، وارتوىٰ من ماء آجن غير طائل، تعج منه آيات الصفات وأحاديثها إلىٰ الله عجيجًا، وتضج منه إلىٰ منزله ضجيجًا مما يسومها تحريفًا وتعطيلًا، ويئول معانيها تحريفًا وتبديلًا، قد أعد لدفعها أنواعًا من العدد، وهيأ لردها ضروبًا من القوانين، وإذا دُعي إلىٰ تحكيمها أبىٰ واستكبر. اهـ(١).

[لوازم معرفة أسماء الله وصفاته]

علم العبد بتفرد الرب تعالىٰ بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة؛ يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعِلمُه بسمعه تعالىٰ وبصره وعلمه، وأنه لا يخفىٰ عليه مثقال ذرة في السماوات والأرض، وأنه يعلم السر وأخفىٰ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضىٰ الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتنابَ المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

---

(١) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» (١٦ - ١٨).

فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم، ولا تشينه معصيتهم.

وتأمل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[1]، ذكر هذا عقب قوله: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»؛ فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالىٰ بهم في غفران زلاتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم، ليس لجلب منفعة منهم، ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافئه بنفع مثله، أو ليدفع عنه ضررًا؛ فالرب تعالىٰ لم يحسن إلىٰ عباده ليكافئوه ولا ليدفعوا عنه ضررًا، فقال: «**لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني**»؛ إني لستُ إذا هَديتُ مستهديكم، وأطعمتُ مستطعمكم، وكسوتُ مستكسيكم، وأرويت مستسقيكم، وكفيت مستكفيكم، وغفرتُ لمستغفركم بالذي أطلب منكم أن تنفعوني، أو تدفعوا عني ضررًا، فإنكم لن تبلغوا ذلك وأنا الغني الحميد، كيف والخلق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بإقداره وتيسيره وخلقه، فكيف بما لا يقدرون عليه؟ فكيف يبلغون نفع الغني الصمد الذي يمتنع في حقه أن يستجلب من غيره نفعًا أو يستدفع منه ضررًا، بل ذلك مستحيل في حقه؟!

ثم ذكر بعد هذا قوله: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو أن أولكم

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في (البر والصلة والآداب)، باب (تحريم الظلم)، (ح٢٥٧٧).



وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»؛ فبين سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات، وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم، ولا استدفاع ضررهم؛ كأمر السيد عبده، والوالد ولده، والإمام رعيته، بما ينفع الآمر والمأمور، ونهيهم عما يضر الناهي والمنهي، فبين تعالىٰ أنه المنزه عن لحوق نفعهم وضرهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم، وبما يأمرهم به.

ولهذا لما ذكر الأصلين بعد هذا، وأن تقواهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم، لا يزيد في ملكه شيئًا ولا ينقصه، وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيهم إلىٰ ما عنده بلا نسبة، فتضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات، وغفران الزلات، وتفريج الكربات لاستجلاب منفعة، ولا لاستدفاع مضرة، وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئًا، ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئًا، وأنه الغني الحميد.

ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده، ولا تشينه معاصيهم، ولكن له من الحكم البوالغ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التام، وحمده وحكمته، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصىٰ، بحسب قواهم وطاقتهم، لا بحسب ما ينبغي له، فإنه أعظم وأجل من أن يقدر خلقه عليه، ولكنه سبحانه يرضىٰ من عباده ما تسمح به طبائعهم وقواهم، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم، ولا أنفع للعبد منه. اهـ[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٥١٠- ٥١٣).

[من آثار الإيمان بصفات الله]

القرآن كلام الله، وقد تجلىٰ الله فيه لعباده بصفاته؛ فتارة يتجلىٰ في جلباب الهيبة والعظمة والجلال؛ فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلىٰ في صفات الجمال والكمال -وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال علىٰ كمال الذات- فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله؛ فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبىٰ قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يُــراد مــن القلــب نسـيانكم وتــأبىٰ الطبــاع علــىٰ الناقــل

فتبقىٰ المحبة له طبعًا لا تكلفًا..

وإذا تجلىٰ بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلىٰ ربه وحادي الرجاء يحدو ركابَ سيره. وكلما قوي الرجاءُ جدَّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المَغَل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلىٰ بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو



واللعب والحرص علىٰ المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها؛ فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلىٰ بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها وذكْرِها، وتَذَكُّرها، والتصديق بالخبر والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلىٰ بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة الحياء، فيستحي ربه أن يراه علىٰ ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه؛ فتبقىٰ حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوىٰ.

وإذا تجلىٰ بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسَوْق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به وبكل ما يُجريه علىٰ عبده ويقيمه مما يرضىٰ به هو سبحانه. والتوكل معنىٰ يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده، وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلىٰ بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب

والجوارح له؛ فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته. اهـ[(١)].

[منزلة المراقبة]

من منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]: منزلة «المراقبة».

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٢)].

«**المراقبة**»: دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى علىٰ ظاهره وباطنه؛ فاستدامته لهذا العلم واليقين هي «المراقبة»، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، مطلع علىٰ عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس وكل طرفة عين. والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف

(١) «الفوائد» (١٠٥ - ١٠٧).

(٢) رواه البخاري في (الإيمان) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، (ح٥٠)، ورواه مسلم في (الإيمان) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (ح٨، ٩).



بحال المريدين؟ وكيف بحال العارفين؟

قال الجريري رَحِمَهُ اللَّهُ: من لم يُحكِّم بينه وبين الله تعالىٰ التقوىٰ والمراقبة لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة.

وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متىٰ يهشُّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا.

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: من تحقق في المراقبة خاف علىٰ فوات حظِّه من ربِّه لا غير.

وقال ذو النون رَحِمَهُ اللَّهُ: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقيل: الرجاء يحرك إلىٰ الطاعة، والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلىٰ طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة.

وقال الجريري رَحِمَهُ اللَّهُ: أمرنا هذا مبني علىٰ فصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله، وأن يكون العلم علىٰ ظاهرك قائمًا.

وقال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ اللَّهُ: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري رحمهما الله: إذا جلست للناس فكنْ واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون علىٰ أن مراقبة الله تعالىٰ في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر؛ فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

و«المراقبة» هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير»، فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها؛ حصلت له المراقبة، والله أعلم. اهـ[1].

[محاسبة النفس قبل العمل]

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضىٰ، وإن كان لغيره تأخر».

وشرح هذا بعضهم، فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهمَّ به العبد، وقف أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا وقف وقفة أخرىٰ ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة، ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عَزَّ وَجَلَّ وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٧٢- ٧٤).

وإن أفضىٰ به إلىٰ مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالىٰ، حتىٰ يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرىٰ، ونظر: هل هو معان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلىٰ ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتىٰ صار له شوكة وأنصار، وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

فهذه أربع مقامات يحتاج إلىٰ محاسبة نفسه عليها قبل الفعل؛ فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكن فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه علىٰ ذلك تبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه. اهـ[1].

[محاسبة النفس بعد العمل]

محاسبة النفس بعد العمل، و[هي][2] ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها علىٰ طاعة قصرت فيها من حق الله تعالىٰ؛ فلم توقعها علىٰ الوجه الذي ينبغي.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٩٠).

(٢) في الأصل: «هو» بدلًا من «هي»؛ لأن الضمير هناك يعود علىٰ كلمة: «النوع الثاني»، فلما حُذف ذلك هنا عاد الضمير علىٰ كلمة «محاسبة النفس».

وحق الله تعالىٰ في الطاعة ستة أمور تقدمت، وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله. فيحاسب نفسه: هل وفَّىٰ هذه المقامات حقها؟ وهل أتىٰ بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه علىٰ كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه علىٰ أمر مباح أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به. اهـ[1].

[اتهام النفس]

في محاسبة النفس عدة مصالح: منها: الاطلاع علىٰ عيوبها، ومن لم يطلع علىٰ عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع علىٰ عيبها مقتها في ذات الله تعالىٰ.

وقد روىٰ الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلىٰ نفسه؛ فيكون لها أشد مقتًا».

وقال مطرف بن عبد الله: «لو لا ما أعلم من نفسي لقليت الناس».

وقال مطرف في دعائه بعرفة: «اللهمَّ لا ترد الناس لأجلي».

وقال بكر بن عبد الله المزني: «لما نظرت إلىٰ أهل عرفات ظننت أنهم قد

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٩١).

غفر لهم، لولا أني كنت فيهم».

وقال **أيوب السختياني**: «إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل».

ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة، فقال له حماد: «يا أبا عبد الله، أليس قد أمنت مما كنت تخافه؟ وتقدم علىٰ من ترجوه، وهو أرحم الراحمين، فقال: يا أبا سلمة، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله، إني لأرجو لك ذلك».

وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطي، قال: أخبرني حماد بن جعفر بن زيد: أن أباه أخبره قال: «خرجنا في غزاة إلىٰ كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة، فصلوا ثم اضطجع، فقلت: لأرمقن عمله، فالتمس غفلة الناس، حتىٰ إذا قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبًا منا، فدخلت علىٰ أثره، فتوضأ، ثم قام يصلي، وجاء أسد حتىٰ دنا منه، فصعدت في شجرة، فتراه التفت أو عدَّه جروًا! فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، ثم قال: أيها السبع، اطلب الرزق من مكان آخر. فولىٰ وإن له لزئيرًا، أقول: تصدع الجبال منه، قال: فما زال كذلك يصلي حتىٰ كان عند الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يصغر يجترئ أن يسألك الجنة، قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات علىٰ الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عالم».

وقال **يونس بن عبيد**: «إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير؛ ما أعلم أن

في نفسي منها واحدة».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إلي».

وذكر ابن أبي الدنيا عن الخلد بن أيوب، قال: «كان راهب في بني إسرائيل في صومعة منذ ستين سنة، فأُتي في منامه، فقيل له: إن فلانًا الإسكاف خير منك - ليلة بعد ليلة - فأتىٰ الإسكافي، فسأله عن عمله، فقال: إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار، ففضل علىٰ الراهب بازرائه علىٰ نفسه».

وذُكِرَ داود الطائي عند بعض الأمراء، فأثنوا عليه، فقال: «لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبدًا».

وقال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلىٰ مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

فالنفس داعية إلىٰ المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلىٰ كل قبيح، متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج منها، والتخلص من رقها؛ فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالىٰ، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتًا لها.

قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا بقية بن صهبان الهنائي، قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ



سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] فقالت: يا بني، هؤلاء في الجنة؛ أما السابق بالخيرات فمن مضىٰ علىٰ عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتىٰ لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم؛ فجعلت نفسها معنا.

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالىٰ في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل.

ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار، قال: «إن قومًا من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد، فجاء شاب حتىٰ قام علىٰ باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا؛ يزري علىٰ نفسه، فأوحىٰ الله ﷻ إلىٰ نبيهم: أن فلانًا صديق». اهـ[1].

[آثار اليقظة وموجباتها]

اليقظة هي أول مفاتيح الخير؛ فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالًا منه؛ فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالىٰ ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سِنَة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلىٰ نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل

(١) «إغاثة اللهفان» (٩٣- ٩٦).

إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين، فمتىٰ انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن أو همة [عالية][1] أثارَها معول الفكر في المحل القابل، فضرب بمعول فكره وكبَّر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة فقال:

أَلَا يـا نفـس ويحـك سـاعديني ... بسـعي منـك في ظُلَـم الليـالي

لعلـك في القيامـة أن تفـوزي ... بطيـب العـيش في تلـك العلالـي

فأثارت تلك الفكرة نورًا رأىٰ في ضوئه ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلىٰ دخول دار القرار، ورأىٰ سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء علىٰ ساق عزمه قائلًا: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها مستدركًا بها ما فات، محييًا بها ما أمات، مستقبلًا بها ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات.

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفُور نعمة ربه عليه من حين استقر في الرحم إلىٰ وقته، وهو يتقلب فيها ظاهرًا وباطنًا ليلًا ونهارًا، ويقظة ومنامًا، سرًّا وعلانية، فلو اجتهد في إحصاء أنواعها لما قدر، ويكفي أن أدناها نعمة النفس ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة، فما ظنك بغيرها؟ ثم يرىٰ في ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها، عاجز عن أداء حقها، وإن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها، فيتيقن حينئذ أنه لا

---

(١) في الأصل: «عليه»، والسياق يناسبه ما أثبته.



مطمع له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.

ثم يرىٰ في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلىٰ جنب عظمة الرب تعالىٰ، وما يستحقه بجلال وجهه وعظيم سلطانه؛ هذا لو كانت أعماله منه، فكيف وهي مجرد فضل الله ومنته وإحسانه؟ حيث يسرها له وأعانه عليها، وهيأها له، وشاءها منه وكونها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذ لا يرىٰ أعماله منه، وأن الله سبحانه لن يقبل عملًا يراه صاحبه من نفسه حتىٰ يرىٰ عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته، وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلًا منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة، فيرىٰ ربه ووليه ومعبوده أهلًا لكل خير، ويرىٰ نفسه أهلًا لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة، وهو الذي يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين.

ثم تبرق له في نور تلك اليقظة بارقة أخرىٰ يرىٰ في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلىٰ شهود نعم الله عليه وأياديه لديه، رأىٰ أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يُبْق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه، فيطمئن قلبه، وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه، وسار إلىٰ الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله، قائلا: «**أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»، فلا يرىٰ لنفسه حسنة ولا يراها أهلًا لخير، فيوجب له أمرين عظيمين:

أحدهما: استكثار ما منَّ الله عليه.

والثاني: استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت.

ثم تبرق له بارقة أخرىٰ يرىٰ في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلىٰ ربه؛ فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سِنَة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره، وعلىٰ حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس في دار سريعة الزوال، وعلىٰ نفسه أن يُملِّك رقها لمعشوق أو فكر في منتهىٰ حُسنه ورأىٰ آخره بعينٍ بصيرة لأنف لها من محبته.

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلىٰ الله والدار الآخرة. اهـ[1].

[النفس اللوامة وأحوالها]

النفس اللوامة -وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢]- اختلف فيها؛ فقالت طائفة: هي التي لا تثبت علىٰ حال واحدة -أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد- فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي

---

(١) «الروح» (٢٦٧- ٢٦٩).

من أعظم آيات الله؛ فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة -فضلًا عن اليوم والشهر والعام والعمر- ألوانًا متلونة، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتلطف وتكثف، وتنيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضىٰ وتغضب، وتطيع، وتتقي وتفجر، إلىٰ أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها، فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة، فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة.

قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا؛ يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولىٰ. ونحو هذا من الكلام.

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان؛ بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه علىٰ ذنب، بل يلومها وتلومه علىٰ فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين؛ فإن كل أحد يلوم نفسه برًّا كان أو فاجرًا، فالسعيد يلومها علىٰ ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا علىٰ فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرىٰ: هذا اللوم يوم القيامة؛ فإن كل أحد يلوم نفسه: إن كان مسيئًا علىٰ إساءته، وإن كان محسنًا علىٰ تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها؛ فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة، ولكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة؛ وهي النفس الجاهلة

الظالمة التي يلومها الله وملائكته، ولوامة غير ملومة؛ وهي التي لا تزال تلوم صاحبها علىٰ تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة. وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته؛ فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله.

وأمَّا من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله ﷻ. اهـ[1].

[النفس المطمئنة]

تسمىٰ مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلىٰ ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه؛ فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلىٰ لقائه عن الشوق إلىٰ ما سواه؛ فالطمأنينة إلىٰ الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه علىٰ قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه، حتىٰ كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به، فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة؛ تجذب روحه إلىٰ الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلىٰ خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره -وهو كلامه الذي أنزله علىٰ رسوله- كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم

---

(١) «الروح» (٢٦٩، ٢٧٠).



بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتىٰ بشيء سوىٰ الله تعالىٰ وذكره ألبتة، وأمَّا ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز، قضىٰ الله ﷻ قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلىٰ شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان. بل لو اطمأن العبد إلىٰ علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلىٰ سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلىٰ سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلىٰ خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له، وفرح القلب به؛ فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلىٰ عبده علىٰ لسان رسوله، فلا يزل القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتىٰ يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالىٰ وصفاته وتوحيده وعلوه علىٰ عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال علىٰ القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله، حتىٰ كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلىٰ خلافهم، وقال: إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئنًّا بالإيمان وحده وجميع أهل

الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئًا.

فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوىٰ كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له؛ فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليه بناؤه.

ثم يطمئن إلىٰ خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ، وما بعدها من أحوال القيامة، حتىٰ كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا؛ هذه حقيقة اليقين الذي وصف به ﷻ أهل الإيمان حيث قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ٤] فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتىٰ يطمئن القلب إلىٰ ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلىٰ الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب؛ فهذا هو المؤمن حقًّا باليوم الآخر؛ كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمنًا حقًّا، فقال رسول الله: «**إن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**»، قال: عَزَفتْ نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وإلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبدٌ نوَّر اللهُ قلبَه**». اهـ[1][2].

[الخشوع]

قال الله تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٦٦)، (ح٣٣٦٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٧٠)، (ح٣٠٤٢٥).

(٢) «الروح» (٢٦٣، ٢٦٤).

اللهُ بهذه الآية إلا أربع سنين»(١)، وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم علىٰ رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن»(٢)، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

و«**الخشوع**» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

و«**الخشوع**»: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه. وقيل: «الخشوع»: الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل: «الخشوع»: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون علىٰ أن «الخشوع» محله القلب، وثمرته علىٰ الجوارح، وهي تظهره. ورأىٰ النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع**

---

(١) أخرجه مسلم في (التفسير)، باب (قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾)، ح (٣٠٢٧).

(٢) ذكرها ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قلب هذا لخشعتْ جوارحه»(١)، وقال النبي ﷺ: **«التقوىٰ هاهنا»** وأشار إلىٰ صدره ثلاث مرات(٢)، وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأىٰ بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا، وأشار إلىٰ صدره، لا هاهنا، وأشار إلىٰ منكبيه.

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو حذيفة يقول: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترىٰ الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع». ورأىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك؛ ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب».

ورأت عائشة رضي الله عنها شبابًا يمشون ويتماتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا مشىٰ أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا».

وقال الفضيل بن عياض: كان يُكره أن يُرِي الرجلُ من الخشوع أكثر مما في قلبه.

وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة

---

(١) عزاه الألباني في «إرواء الغليل» إلىٰ السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية الحكيم الترمذي، وقال الألباني في «الإرواء»: «إنه موضوع» (٣٧٣).

(٢) هو جزء من حديث طويل أوله: **«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا ...»**، رواه مسلم في (البر والصلة)، باب (تحريم ظلم المسلم...)، (ح٢٥٦٤).

فلا ترىٰ فيهم خاشعًا».

وقال **سهل**: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان. اهـ[١].

[درجات الخشوع]

قال الهروي رَحِمَهُ اللهُ: «وهو علىٰ ثلاث درجات: الدرجة الأولىٰ: التذلل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتِّضاع لنظر الحق».

التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول، والانقياد والامتثال، ومواطأة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف، والافتقار إلىٰ الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

وأما الاستسلام للحكم: فيجوز أن يريد به: الحكم الديني الشرعي؛ فيكون معناه: عدم معارضته برأي أو شهوة، ويجوز أن يريد به: الاستسلام للحكم القدري؛ وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض.

والحق: أن «الخشوع» هو الاستسلام للحكمين؛ وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه.

وأما الاتِّضاع لنظر الحق: فهو اتِّضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه علىٰ تفاصيل ما في القلب والجوارح، **وهذا أحد التأويلين** في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣، ٤).

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠]، وهو مقام الرب علىٰ عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضارًا له كان أشد خشوعًا، وإنما يفارق القلب إذا غَفَل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه.

والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه...

قال: «الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس والعمل، ورؤية فضل كل ذي فضل عليك، وتنسم نسيم الفناء».

يريد: انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك؛ فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محال، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما من الكبر، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوىٰ النفساني، وعدم إيقاع العمل علىٰ الوجه الذي ترضاه لربك، وغير ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأمَّا رؤية فضل كل ذي فضل عليك: فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها، ولا ترىٰ أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها؛ فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسىٰ فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: العارف لا



يرىٰ له علىٰ أحد حقًّا، ولا يشهد له علىٰ غيره فضلًا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

وأما تنسم نسيم الفناء: فلما كان الفناء عنده غاية، جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقته، وعبر عنها بالنسيم للطف موقعه من الروح، وشدة تشبثها به. ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلىٰ الفناء، فاضله ومفضوله.

قال: «الدرجة الثالثة: حفظ الحرمة عند المكاشفة، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل».

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة: فهو ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال، الذي تقتضيه المكاشفة؛ فإن المكاشفة توجب بسطًا، ويخاف منه شطح إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة.

وأمَّا تصفية الوقت من مراءاة الخلق: فلا يريد به أن يصفي وقته عن الرياء؛ فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدرًا وأعلىٰ من ذلك.

وإنما المراد: أنه يُخفي أحواله عن الخلق جهده؛ كخشوعه وذله وانكساره؛ لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله، وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله، فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعدُ الإسلام حتىٰ يدَّعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- من ذلك

أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدّي[1] وابن المكدي	وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: واللهِ إني إلىٰ الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلىٰ ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلىٰ رب البريات	أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس لي دفع المضرات
وليس لي دونه مولىٰ يُدَبِّرني	ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	إلىٰ الشفيع كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا	ولا شريك أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له كي يستعين به	كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا	كما الغنىٰ أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي

---

(١) قال في اللسان: وأكدىٰ الرجل: قلَّ خيره، وقيل: المكدي من الرجال الذي لا يثوب له مال، ولا ينمي (٥/ ٣٨٣٩).



فمـن بغـىٰ مطلبًـا مـن غيـر خالقـه | فهو الجهول الظلوم المشرك العـاتي
والحمـد لله مِـلء الكـون أجمعـه | ما كان منه، وما من بعد [قد] يـاتي
ثـم الصلاة علىٰ المختار من مضر | محمـد المصـطفىٰ أزكـىٰ البريـات

وأمَّا تجريد رؤية الفضل: فهو ألا يرىٰ الفضل والإحسان إلا من الله؛ فهو المانُّ به بلا سبب منك، ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة، ولا وسيلة سبقت منك توسلتَ بها إلىٰ إحسانه.

والتجريد: هو تخليص شهود الفضل لوليه، حتىٰ لا ينسبه إلىٰ غيره، وإلا فهو في نفسه مجرد عن النسبة إلىٰ سواه، وإنما الشأن في تجريده في الشهود؛ ليطابق الشهود الحق في الأمر نفسه، والله أعلم. اهـ(١).

[عبادات عظيمة القدر]

لله سبحانه علىٰ عبده أمرٌ أمره به، وقضاء يقضيه عليه، ونعمةٌ ينعم بها عليه، فلا ينفك من هذه الثلاثة. والقضاء نوعان: إما مصائب، وإما معائب، وله عليه عبودية في هذه المراتب كلها، فأحبُّ الخلق إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها، فهذا أقرب الخلق إليه، وأبعدهم منه مَن جهل عبوديته في هذه المراتب، فعطلها علمًا وعملًا.

فعبوديته في الأمر امتثاله إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ، وفي النهي اجتنابه خوفًا منه وإجلالًا ومحبة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٥ - ٨).

وعبوديته في قضاء المصائب الصبر عليها، ثم الرضا بها -وهو أعلىٰ منه- ثم الشكر عليها، وهو أعلىٰ من الرضا. وهذا إنما يتأتىٰ منه إذا تمكن حبه من قلبه عَلِمَ حسن اختياره له، وبره به ولطفه به، وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة.

وعبوديته في قضاء المعايب المبادرة إلىٰ التوبة منها والتنصل، والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار، عالمًا بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرها سواه، وأنها إن استمرت أبعدته من ربه وطردته من بابه؛ فيراها من الضر الذي لا يكشفه غيره، حتىٰ إنه ليراها أعظم من ضر البدن؛ فهو عائذ برضاه من سخطه، وبعفوه من عقوبته، وبه منه مستجير، وملتجئ منه إليه، يعلم أنه إذا تخلىٰ عنه وخلَّىٰ بينه وبين نفسه فعنده أمثالها وشر منها، وأنه لا سبيل له إلىٰ الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانته، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد؛ فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتي بمرضاة سيده بدون إذنه ومشيئته وإعانته، فهو ملتجئ إليه متضرع ذليل مسكين، مُلْقٍ نفسه بين يديه، طريح بابه، مستخذٍ له، أذل شيء وأكسره له، وأفقره وأحوجه إليه، وأرغبه فيه، وأحبه له، بدنُه متصرف في أشغاله، وقلبُه ساجد بين يديه، يعلم يقينًا أنه لا خير فيه، ولا له، ولا به، ولا منه، وأن الخير كله لله وفي يديه وبه ومنه؛ فهو وليُّ نعمته ومبتدئه بها من غير استحقاق، ومُجْريها عليه مع تَمَقُّته إليه بإعراضه وغفلته ومعصيته.

فحظه سبحانه الحمد والشكر والثناء، وحظ العبد الذم والنقص والعيب، قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء، وولي العبد الملامة والنقائص والعيوب؛ فالحمد كله له، والخير كله في يديه، والفضل كله له، والثناء كله له، والمنة كلها

له؛ فمنه الإحسان، ومن العبد الإساءة، ومنه التودد إلىٰ العبد بنعمه، ومن العبد التبغض إليه بمعاصيه، ومنه النصح لعبده، ومن العبد الغش له في معاملته.

وأمَّا عبودية النعم: فمعرفتها والاعتراف بها أولًا، ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلىٰ سواه، وإن كان سببًا من الأسباب فهو مسببه ومقيمه؛ فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه، ومحبته عليها، وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد؛ فلا تزيده النعم إلا انكسارًا وذلًا وتواضعًا ومحبة للمنعم. وكلما جدَّد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلًا، وكلما أحدث له قبضًا أحدث له رضًىٰ، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له توبة وانكسارًا واعتذارًا. فهذا هو العبد الكيس، والعاجز بمعزل عن ذلك، وبالله التوفيق. اهـ[1].

[الحزن]

اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان، ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط ولا أثنىٰ عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثوابًا، بل نهىٰ عنه في غير موضع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ

---

(١) «الفوائد» (١٦٥، ١٦٦).

وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فالحزن: هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فحمده علىٰ أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها.

وفي «الصحيح»، عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**»(١)، فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان: فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد علىٰ القلب، فإن كان علىٰ ما مضىٰ فهو الحزن، وإن كان علىٰ ما يستقبل فهو الهم، فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم. والعجز والكسل قرينان؛ فإنَّ تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل، والجبن والبخل قرينان؛ فإن الإحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النعم ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال، وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان؛ فإن القهر والغلبة الحاصلة للعبد إمَّا منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره.

---

(١) أخرجه البخاري في (الجهاد والسير)، (ح٢٨٩٣).

والمقصود: أنَّ النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه؛ وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلىٰ الشيطان من حزن المؤمن؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المجادلة: ١٠]، فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلىٰ العبد بها بغير اختياره؛ كالمرض والألم ونحوهما، وأما أن يكون عبادة مأمورًا بتحصيلها وطلبها فلا.

ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليات. ولكن يُحْمَد في الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته؛ فإن المؤمن إما أن يحزن علىٰ تفريطه وتقصيره في خدمة ربه وعبوديته، وإما أن يحزن علىٰ تورُّطه في مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته. وهذا يدل علىٰ صحة الإيمان في قلبه وعلىٰ حياته؛ حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه، ولو كان قلبه ميتًا لم يحس بذلك ولم يحزن ولم يتألم، فما لجرحٍ بميت إيلام، وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوىٰ، ولكن الحزن لا يجدي عليه؛ فإنه يضعفه كما تقدم، بل الذي ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر، ويبذل جهده، وهذا نظير من انقطع عن رفقته في السفر، فجلس في الطريق حزينًا كئيبًا يشهد انقطاعه ويحدث نفسه باللحاق بالقوم، فكلما فتر وحزن حدَّث نفسه باللحاق برفقته، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم، ويزول عنها وحشة الانقطاع. فهكذا السالك إلىٰ منازل الأبرار، وديار المقربين.

وأخص من هذا الحزن حزنه علىٰ قطع الوقت بالتفرقة المضعفة للقلب عن تمام سيره وجده في سلوكه؛ فإن التفرقة من أعظم البلاء علىٰ السالك، ولا

سيما في ابتداء أمره، فالأول حزن علىٰ التفريط في الأعمال، وهذا حزن علىٰ نقص حاله مع الله وتفرقة قلبه، وكيف صار وقته ظرفًا لتفرقة حاله، واشتغال قلبه بغير معبوده.

وأخص من هذا الحزن حزنه علىٰ جزء من أجزاء قلبه كيف هو خال عن محبة الله؟ وعلىٰ جزء من أجزاء بدنه كيف هو منصرف في غير محاب الله؟ فهذا حزن الخاصة، ويدخل في هذا حزنهم علىٰ كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج.

فهذه المراتب من الحزن لا بد منها في الطريق، ولكن الكيس لا يدعها تملكه وتقعده، بل يجعل عوض فكرته فيها فكرته فيما يدفعها به؛ فإن المكروه إذا ورد علىٰ النفس، فإن كانت صغيرة اشتغلت بفكرها فيه وفي حصوله عن الفكرة في الأسباب التي يدفعها به فأورثها الحزن، وإن كانت نفسًا كبيرة شريفة لم تفكر فيه، بل تصرف فكرها إلىٰ ما ينفعها، فإن علمت منه مخرجًا فكرت في طريق ذلك المخرج وأسبابه، وإن علمت أنه لا مخرج منه، فكرت في عبودية الله فيه، وكان ذلك عوضًا لها من الحزن، فعلىٰ كل حال لا فائدة لها في الحزن أصلًا، والله أعلم.

وقال بعض العارفين: ليست الخاصة من الحزن في شيء.

[وقول أبي العباس][(١)]: «معرفة الله جلا نورها كل ظلمة، وكشف سرورها

---

(١) في الأصل: «وقوله» بدلًا مما أثبته، والضمير يعود علىٰ أبي العباس حيث سبق ذكره في الأصل في أول الكلام عن الحزن، ولما لم يرد ذكره في بداية الكلام هنا صرحت باسم صاحب الكلام وجعلته بين معكوفين حتىٰ لا يتشتت الذهن في معرفة مرجع الضمير.



كل غمة» كلام في غاية الحسن؛ فإن من عرف الله أحبه ولا بد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب؛ فإنه لا حزن مع الله أبدًا، ولهذا قال [تعالىٰ] حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن؟ وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلىٰ أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به: من حبيب، أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك؛ يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتىٰ يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونضارتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقَّاهم الله نضرةً وسرورًا.

فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فهذا هو العلم الذي شمر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم:

تلك المكارم لا قعبانِ من لبن ... شِيبا بماء فعادًا بعد أبوالا

. اهـ[(١)].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٧٨- ٢٨١).

[أسباب شرح الصدر]

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلىٰ حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدىٰ والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان؛ فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

ومنها: العلم؛ فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعه حتىٰ يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس؛ فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ، وهو العلم النافع؛ فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا.

ومنها: الإنابة إلىٰ الله ﷻ، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم

بعبادته؛ فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتىٰ إنه ليقول أحيانًا: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذًا في عيش طيب.

وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حِسٌّ به، وكلما كانت المحبة أقوىٰ وأشد كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن؛ فرؤيتهم قذىٰ عينه، ومخالطتهم حمىٰ روحه.

ومن **أعظم أسباب ضيق الصدر**: الإعراض عن الله تعالىٰ، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذِكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقىٰ منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا؛ فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها؛ وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوىٰ الميل والإرادة والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء؛ وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن **أسباب شرح الصدر**: دوامُ ذكره علىٰ كل حال، وفي كل موطن؛ فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسان إلىٰ الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه، والنفع

بالبدن، وأنواع الإحسان؛ فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا.

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلًا للبخيل والمتصدق: «كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد، كلما همَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت، حتىٰ يجر ثيابه ويُعفي أثره، وكلما همَّ البخيلُ بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها، لم تتسع عليه»[1]، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة؛ فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا؛ لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرَّم علىٰ كل جبان، كما هو محرَّم علىٰ كل بخيل، وعلىٰ كل مُعْرِض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالىٰ وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره. وإن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا. فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض؛ فإن العوارض تزول بزوال أسبابها،

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الجهاد والسير)، (ح٢٩١٧، ومسلم في (الزكاة)، (ح١٠٢١).

وإنما المعول علىٰ الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه؛ فهي الميزان، والله المستعان.

ومنها **-بل من أعظمها-**: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البُرء؛ فإن الإنسان إذا أتىٰ الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران علىٰ قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

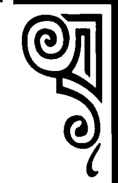
ومنها: ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا وهمومًا في القلب: تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصر قلبه، ولا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهمٍ، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾﴾ ، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالىٰ. اهـ[(١)].

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٣ - ٢٧).







الباب الثالث: الآداب

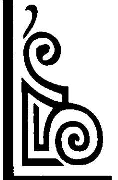
وفيه:

الفصل الأول: الأخلاق.

الفصل الثاني: الإيثار.

الفصل الثالث: الأخوة.

الفصل الرابع: متفرقات.










الفصل الأول: الأخلاق

[حُسْن الخُلق]

في الترمذي عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثاون والمتشدقون والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(١).

قال الترمذي: حديث حسن. والثرثار: هو الكثير الكلام بتكلف، والمتشدق: المتطاول علىٰ الناس بكلامه، الذي يتكلم بملء فيه تفاصحًا وتفخمًا وتعظيمًا لكلامه، والمتفيهق: أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه تكثرًا وارتفاعًا وإظهارًا لفضله علىٰ غيره، قال الترمذي: قال عبد الله بن المبارك: «حُسن الخُلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذىٰ».

وقال غيره: «حسن الخلق قسمان:

أحدهما: مع الله ﷻ؛ وهو أن يعلم أن كل ما يكون منك يوجب عذرًا، وكل ما يأتي من الله يوجب شكرًا، فلا تزال شاكرًا له، معتذرًا إليه، سائرًا إليه بين

---

(١) رواه الترمذي في (البر والصلة)، باب (ما جاء في معالي الأخلاق)، (ح٢٠١٨، وقال: «حسن غريب».

مطالعه منَّته، وشهود عيب نفسك وأعمالك.

والقسم الثاني: حسن الخلق مع الناس؛ وجماعه أمران: بذل المعروف قولًا وفعلًا، وكف الأذىٰ قولًا وفعلًا.

وهذا إنما يقوم علىٰ أركان خمسة: العلم، والجود، والصبر، وطيب العود، وصحة الإسلام.

أما العلم: فلأنه يعرف معالي الأخلاق وسفاسفها، فيمكنه أن يتصف بهذا ويتحلَّىٰ به، ويترك هذا ويتخلىٰ عنه.

وأما الجود: فسماحة نفسه وبذلها، وانقيادها لذلك إذا أراده منها.

وأما الصبر: فلأنه إن لم يصبر علىٰ احتمال ذلك والقيام بأعبائها لم يتهيأ له.

وأما طيب العود: فأن يكون الله تعالىٰ خلقه علىٰ طبيعة منقادة سهلة القياد، وسريعة الاستجابة لداعي الخيرات.

والطبائع ثلاثة: طبيعة حجرية صلبة قاسية، لا تلين ولا تنقاد، وطبيعة مائية هوائية سريعة الانقياد، مستجيبة لكل داع؛ كالغصن أي نسيم مَرَّ يعصفه، وهاتان منحرفتان: الأولىٰ لا تقبل، والثانية لا تحفظ، وطبيعة قد جمعت اللين والصلابة والصفاء؛ فهي تقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، وتدرك حقائها الأمور بصفائها، فهذه الطبيعة الكاملة التي ينشأ عنها كل خلق صحيح.

وأمَّا صحة الإسلام: فهو جماع ذلك، والمصحح لكل خلق حسن؛ فإنه بحسب قوة إيمانه وتصديقه بالجزاء وحسن موعود الله وثوابه يسهل عليه تحمل

ذلك، ويلذ له الاتصاف به، والله الموفق المعين. اهـ[١].

[أركان حسن الخلق]

وحسن الخلق يقوم علىٰ أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله علىٰ الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذىٰ، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله علىٰ اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله علىٰ الحياء؛ وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله علىٰ عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلىٰ البذل والندىٰ، الذي هو شجاعة النفس وقوتها علىٰ إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله علىٰ كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش؛ كما قال النبي ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب**»[٢]، وهو حقيقة الشجاعة، وهي مَلكة يقتدر بها العبد علىٰ قهر خصمه.

والعدل: يحمله علىٰ اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمله علىٰ خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك

---

(١) «مختصر سنن أبي داود» (٧/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (الأدب)، (ح٦١١٤)، ورواه مسلم في (البر والصلة)، (ح٢٦٠٩).

والإسراف والتبذير، وعلىٰ خلق الحياء الذي هو توسط بين الذل والقِحَة، وعلىٰ خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلىٰ خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة. اهـ[1].

[تغيير الأخلاق]

فصل نافع جدًّا عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويسيره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها؛ فإن أصعب ما علىٰ الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طُبعت النفوس عليها، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها، واستولىٰ علىٰ مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلىٰ علاجها وإزالتها، ويكون سيره أقوىٰ وأجل وأسرع من سير العامل علىٰ إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلًا نضربه، مطابقًا لما نريده؛ وهو: نهر جار في صَببِه ومُنْحَدرِه، ومُنْتَهٍ إلىٰ تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتىٰ يُخرِّب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم؛ فانقسموا ثلاث فرق:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٢، ٣١٣).

فرقة صرفت قواها وقوىٰ أعمالها إلىٰ سكره وحبسه وإيقافه؛ فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر؛ فإنه يوشك أن يجتمع ثم يَحْمل علىٰ السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئًا، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع، فرامت قطعه من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشد الإباء، فهم دائمًا في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأي الفرقتين، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلىٰ العمران، فصرفوه إلىٰ موضع ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضررون به، فصرفوه إلىٰ أرض قابلة للنبات، وسقوها به، فأنبتت أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هي أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان - بل وسائر الحيوان- علىٰ طبيعة محمولة علىٰ قوتين: غضبية، وشهوانية، وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كل حيوان؛ فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلىٰ نفسه، وبقوة

الغضب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والغيرة، فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأىٰ غيره مستبدًّا به أورثه الحسد، فإن ظفر به أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح، وإن اشتد حرصه وشهوته علىٰ الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم، ومنه يتولد: الكبر والفخر والخيلاء؛ فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب، وتزوج أحدهما بصاحبه.

فإذا تبين هذا فالنهر مثال هاتين القوتين، وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها إلىٰ دور القلب وعمرانه وحواصله، يخربها ويتلفها ولا بد، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حَنْظل وضَريع وشوك وزَقُّوم، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأمَّا النفوس الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يئول إليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق:

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه، فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالىٰ، وما طبع عليه الجِبِلَّة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة؛ فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمي الوطيس، وصارت الحرب دولًا وسِجالًا، وهؤلاء صرفوا قواهم إلىٰ مجاهدة النفس علىٰ إزالة تلك الصفات.



وفرقة أعرضوا عنها، وشغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها علىٰ مجراها، لكن لم يمكِّنوا نهرها من إفساد عمرانهم؛ بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لا بدَّ أن يصل إليه، فإذا وصل وصل إلىٰ بناء محكم فلم يهدمه، بل أخذ عنه يمينًا وشمالًا، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام البناء، وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفًا من هدم البناء.

وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عن هذه المسألة، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها، فقال لي في جملة كلامه: النفس مثل الباطوس -وهو جب القذر- كلما نبشته ظهر وخرج؛ ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعلْ، ولا تشتغل بنبشه؛ فإنك لن تصل إلىٰ قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل علىٰ تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط؛ ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض علىٰ سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنىٰ علىٰ قائله.

إذا تبين هذا فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سُدًىٰ ولا

عبثًا، وأنها بمنزلة ماء يُسقىٰ به الورد، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صِوان وأصداف لجواهر منطوية عليها، وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر؛ فرأوا أن الكبر نهر يسقىٰ به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان، ويسقىٰ به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو عليهم، وهذه درة في صدفته؛ فصرفوا مجراه إلىٰ هذا الغراس، واستخرجوا هذه الدرة من صدفته، وأبقوه علىٰ حاله في نفوسهم، ولكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع، وقد رأىٰ النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفين، فقال: «**إنها لمِشْية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع**»(١).

فانظرْ كيف خلَّىٰ مجرىٰ هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر -وأظنه في «المسند»-: «إن من الخيلاء ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله؛ فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة»(٢).

فانظرْ كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلًا؟. اهـ(٣).

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، برقم (٦٥٠٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «وفيه مَن لم أعرفه» (٦/ ١٠٩).

(٢) رواه أبو داود في (الجهاد)، باب (في الخيلاء في الحرب)، (ح٢٦٥٩)، ورواه النسائي في (الزكاة)، باب (الاختيال في الصدقة)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي»، برقم (٢٣٩٨)، وأما معنىٰ الخيلاء في الصدقة؛ فقال في «النهاية»: «أمَّا الصدقة فأن تَهزه أريحية السخاء، فيعطي طيبة بها نفسه، فلا يستكثر كثيرًا، ولا يعطي فيها شيئًا إلا وهو مستقل».

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٦- ٣١٩).



[حدود الأخلاق]

للأخلاق حدٌّ متىٰ جاوزته صارت عدوانًا، ومتىٰ قصَّرت عنه كان نقصًا ومهانة.

فللغضب حَدٌّ؛ وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله، فإذا جاوز حدَّه تعدىٰ صاحبُه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحرص حدٌّ؛ وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتىٰ نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتىٰ زاد عليه كان شَرَهًا ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه. وللحسد حدٌّ؛ وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفةُ أن يتقدم عليه نظيرُه، فمتىٰ تعدىٰ ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنىٰ معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص علىٰ إيذائه، ومتىٰ نقص عن ذلك كان دناءة وضَعف همَّة وصِغر نفس.

قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس**»[1]، فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود؛ لا حسد مهانة يتمنىٰ به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حدٌّ؛ وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل، والاستعانة بقضائها علىٰ ذلك، فمتىٰ زادت علىٰ ذلك صارت نهمة وشبقًا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتىٰ نَقَصت عنه ولم يكن فراغًا في

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٧).

طلب الكمال والفضل كانت ضعفًا وعجزًا ومهانة.

وللراحة حد؛ وهو إجمام النفس والقوىٰ المدركة والفَّعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها علىٰ ذلك بحيث لا يُضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتىٰ زاد علىٰ ذلك صار توانيًا وكسلًا وإضاعة، وفاتَ به أكثر مصالح العبد، ومتىٰ نقص عنه صار مُضرًّا بالقوىٰ موهنًا لها، وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ.

والجود له حد بين طرفين، فمتىٰ جاوز حده صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتىٰ نقص عنه كان بخلًا وتقتيرًا.

وللشجاعة حدٌّ متىٰ جاوزته صارت تهورًا، ومتىٰ نقصت عنه صارت جبنًا وخورًا، وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام، كما قال معاوية لعمرو بن العاص ﵁: أعياني أن أعرف أشُجاعًا أنت أم جبانًا؛ تقدم حتىٰ أقول من أشجع الناس، وتجبن حتىٰ أقول من أجبن الناس، فقال:

شجاع إذا أمكنتني فرصة ... فإنْ لم تكن لي فرصة فجبان

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنًّا سيئًا بالبريء، وإن قصَّرت عنه كانت تغافلًا ومبادئ دياثة. وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلًا ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلىٰ الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كِبرًا وخلقًا مذمومًا، وإن قصر عنه انحرف إلىٰ الذل والمهانة.



وضابط هذا كله العدل؛ وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به؛ فإنه متىٰ خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية: كالنوم، والسهر، والأكل، والشرب، والجماع، والحركة، والرياضة، والخلوة، والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلًا، وإن انحرفت إلىٰ أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلمُ الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتىٰ لا يُدخل فيها ما ليس منها، ولا يُخْرِج منها ما هو داخل فيها؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلًا... وبالله التوفيق. اهـ[١].

[الخلق الوسط]

وكل خلق محمود مكتنفٌ بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان؛ كالجود الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متىٰ انحرفت عن «التوسط» انحرفت إلىٰ أحد الخلقين الذميمين ولا

---

(١) «الفوائد» (٢٠٤ - ٢٠٧).

بد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت: إما إلىٰ كبر وعلو، وإما إلىٰ ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت إما إلىٰ قِحَة وجرأة، وإما إلىٰ عجز وخَوَر ومهانة، بحيث يطمع في نفسه عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له علىٰ ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت إما إلىٰ جزع وهلع وجشع وتسخط، وإمَّا إلىٰ غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع، كما قال بعضهم:

تبكـي علينـا ولا نبكـي علـىٰ أحـد ... فـنحن أغلـظ أكبـادًا مـن الإبـل

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت إمَّا إلىٰ الطيش والنزق والحدة والخفة، وإما إلىٰ الذل والمهانة والحقارة؛ ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كـل حلـم أتـىٰ بغيـر اقتـدار ... حجـة لاجـئ إليهـا اللئـام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت إمَّا إلىٰ عجلة وطيش وعنف، وإما إلىٰ تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت إما إلىٰ كبرٍ، وإما إلىٰ ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت إمَّا إلىٰ تهور وإقدام غير محمود، وإما إلىٰ جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغبطة» انحرفت إمَّا

إلىٰ حسد، وإما إلىٰ مهانة، وعجز وذل، ورضىٰ بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت إمَّا إلىٰ حرص وكَلَب، وإما إلىٰ خِسَّة ومهانة وإضاعة. وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت إما إلىٰ قسوة، وإما إلىٰ ضعف قلب وجبن نفس؛ كمن لا يقدم علىٰ ذبح شاة، ولا إقامة حد، ولا تأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله علىٰ ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثًا وستين بدنة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود، ورجم بالحجارة حتىٰ مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله علىٰ الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطي البِشر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه؛ وفي صفة نبينا ﷺ «من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه عِشْرة[1] أحبَّه»، والله أعلم. اهـ[2].

❀♦❀

(١) هو جزء من حديث صفة النبي ﷺ الذي رواه عليٌّ رضي الله عنه، وقد رواه الترمذي في (المناقب)، باب (ما جاء في وصف عليٍّ رضي الله عنه للنبي ﷺ)، وقال: «هذا حديث حسن غريب، ليس إسناده بمتصل»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٤٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٤- ٣١٦).



الفصل الثاني: الإيثار

[الإيثار]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضد الشح؛ فإن المؤْثِر علىٰ نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص علىٰ ما ليس بيده؛ فإذا حصل بيده شيء شحَّ عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «**إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»[(١)].

فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

---

(١) رواه أبو داود في (الزكاة)، باب (في الشح)، (ح١٦٩٨)، وصححه الحاكم (١/ ١١، ٤١٥) وقال: «حديث صحيح»، ووافقة الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، رقم (١٤٨٧).

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلىٰ مراتبه؛ فإن المراتب ثلاثة:

إحداها: ألا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه؛ فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبْقِي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطىٰ؛ فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه؛ وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «**إنكم ستلقون بعدي أثَرة، فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض**»[1]، والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فوصفهم بأعلىٰ مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفًا.

وكان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتىٰ إنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزىٰ الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلٍّ. فما أمسىٰ حتىٰ كُسرت عتبة بابه؛ لكثرة مَن عاده.

وقالوا له يومًا: هل رأيت أسخىٰ منك؟ قال: نعم؛ نزلنا بالبادية علىٰ امرأة، فحضر زوجها فقالت: إنه نزل بك ضيفان؛ فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا

---

(١) رواه البخاري في (فضائل أصحاب النبي ﷺ)، (ح٣٧٩٢)، ومسلم في (الإمارة)، (ح١٨٤٥).

اليسير. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر، وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا، فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتأْخُذنَّه أو لأُطاعننكم برمحي، فأخذناه وانصرف.

فتأملْ سر التقدير؛ حيث قدر الحكيم الخبير -سبحانه- استئثار الناس علىٰ الأنصار بالدنيا -وهم أهل الإيثار- ليجازيهم علىٰ إيثارهم إخوانهم في الدنيا علىٰ نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن علىٰ الناس؛ فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك -مع كونك من أهل الإيثار- فاعلمْ أنه لخير يراد بك، والله ﷻ أعلم. اهـ[١].

[إيثار الخَلق]

والدين كله والمعاملة في الإيثار؛ فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به علىٰ نفسك، حتىٰ أن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر؛ إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاء وكرمًا. وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده علىٰ غيره من غير احتياج منه سبحانه؛ فإنه الغني الحميد، وفي

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٥- ٢٩٧).

الدعاء المرفوع: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارض عنا**»(١). وقيل: من آثر الله علىٰ غيره آثره الله علىٰ غيره. والفرق بين الإيثار والأثرة أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به علىٰ الغير، وفي الحديث: «بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا»(٢).

فإذا عرف هذا، فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم علىٰ نفسك بما لا يضيع عليك وقتًا، ولا يفسد عليك حالًا، ولا يهضم لك دينًا، ولا يسد عليك طريقًا، ولا يمنع لك واردًا. فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك، فإيثار نفسك عليهم أولىٰ؛ فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدًا كائنًا من كان. وهذا في غاية الصعوبة علىٰ السالك، والأول أسهل منه؛ فإن الإيثار المحمود الذي أثنىٰ الله علىٰ فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]، فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا، لا الأوقات المصروفة في الطاعات؛ فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس علىٰ الأرض عيانًا مفلسًا، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل علىٰ هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر

---

(١) رواه الترمذي في (تفسير القرآن)، باب (ومن سورة المؤمنون)، (ح٣١٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (الفتن)، (ح٧٠٦٥)، ومسلم في (الإمارة)، (ح١٧٠٩).



والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال النبي ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة**»(١)، والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلًّا للإيثار، بل محلًّا للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات.

والسر فيه -والله أعلم- أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤْثِر والمؤْثَر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق علىٰ العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم، وإن قدِّر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع -بحيث إذا فعله واحد فات علىٰ غيره- فإن في العزم والنية الجازمة علىٰ فعله من الثواب ما لفاعله، كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله.

أيضًا فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساوٍ له، وإما أزيد، وإما دونه. فمتىٰ أتىٰ بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه،

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الأذان)، (ح٦١٥)، ومسلم في (الصلاة)، (ح٤٣٧، ٤٣٩).

فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضًا فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلىٰ الله، وابتغاء الوسيلة إليه، والمنافسة في محابه، والإيثار بهذا التقرب يدل علىٰ رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه، وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختص به أحدهما فات الآخر، فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبرًا علىٰ الإيثار به ما لم يخرم عليه دينًا، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقًا عزم علىٰ سلوكه إلىٰ ربه، أو شوش عليه قلبه، بحيث يجعله متعلقًا بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته، فإذا ترجحت مصلحة الإيثار، بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة -وليس للمؤثر نظيرها- تعين عليه الإيثار، فإن كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من آثر حياة غيره علىٰ حياته وضرورته علىٰ ضرورته، فقد استولىٰ علىٰ أمد الكرم والسخاء وجاوز أقصاه وضرب فيه بأوفر الحظ. اهـ[1].

[كيف تكسب خلق الإيثار؟]

إن قيل: ما الذي يُسهِّل علىٰ النفس الإيثار، فإن النفس مجبولة علىٰ الأثرة لا علىٰ الإيثار؟ قيل: يسهله أمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها؛ فإن من أفضل أخلاق الرجل

(١) «طريق الهجرتين» (٢٩٨- ٣٠٠).



وأشرفها وأعلاها: الإيثار، وقد جبل الله القلوب علىٰ تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها علىٰ بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله. والأخلاق ثلاثة: خلق (الإيثار)، وهو خلق الفضل، وخلق (القسمة والتسوية)، وهو خلق العدل، وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلىٰ أذاه والتسلط عليه؛ ولكنها لا تنقاد إليها انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلىٰ أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره، وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم؛ لما في طاعة المستأثر من المشقة والكره.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم علىٰ بعض؛ فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جدًّا، بل لا بد من مجاوزته إلىٰ الفضل، أو التقصير عنه إلىٰ الظلم؛ فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره، ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرَّب هذا عرفه، ومن لم يجربه فليستقر أحوال العالم، والموفق مَن وفقه اللهُ سبحانه وتعالى. اهـ[1].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٣٠٠، ٣٠١).

[ضوابط في الإيثار]

قال الهروي: «وهو علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: أن تؤثر الخلق علىٰ نفسك فيما لا يَخْرِم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا».

يعني: أن تقدمهم علىٰ نفسك في مصالحهم؛ مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتَعْرَىٰ، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلىٰ ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، ومثل أن تؤثرهم بمالك وتَقْعُد كَلًّا مضطرًّا، مستشرفًا للناس أو سائلًا، وكذلك إيثارهم بكل ما يحرمه علىٰ المؤثر دينُه؛ فإنه سَفَه وعجز، يُذَمُّ المؤثر به عند الله وعند الناس.

وأما قوله: «ولا يقطع عليك طريقًا»، أي: لا يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلىٰ الله تعالىٰ؛ مثل أن تؤثر جليسك علىٰ ذكرك، وتوجهك وجمعيتك علىٰ الله؛ فتكون قد آثرته علىٰ الله، وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار؛ فيكون مَثَلك كمثل مسافر سائر علىٰ الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتىٰ فاته الرفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإيثارهم عليه عين الغبن، وما أكثر المؤثرين علىٰ الله تعالىٰ غيره! وما أقل المؤثرين الله علىٰ غيره!

وكذلك الإيثار بما يفسد علىٰ المؤثر وقته قبيح أيضًا؛ مثل أن يؤثر بوقته ويتفرق قلبه في طلب خلفه، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه علىٰ الله، فيتفرق



قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره، فهذا أيضًا إيثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم -التي لا تتعين عليك- علىٰ الفكر النافع، واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تخفىٰ؛ بل ذلك حال الخلق، والغالب عليهم.

وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله، فلا تؤثر به أحدًا؛ فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان علىٰ الله وأنت لا تعلم.

وتأملْ أحوال أكثر الخلق في إيثارهم علىٰ الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم، وأي جهالة وسفه فوق هذا؟!

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب وقالوا: إنه مكروه أو مُحرَّم؛ كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه عليه، فيفوز به دونه.

وتكلموا في إيثار عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بدفنه عند رسول الله ﷺ في حجرتها، وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عمله بموته وبقربه؛ فلا يتصور في حقه الإيثار بالقرب بعد الموت؛ إذ لا تقرب في حق الميت، وإنما هذا إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولىٰ به منها، فالإيثار به قربة إلىٰ الله عز وجل للمؤثر، والله أعلم. اهـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).



الفصل الثالث: الأخوة

[مواساة المؤمنين]

المواساة للمؤمن أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم.

وعلىٰ قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضَعُفَ الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قَوِيَ قويتْ. وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له.

ودخلوا علىٰ بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض، فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم، وليس لي ما أواسيهم به، فأحببت أن أواسيهم في بردهم. اهـ[١].

[الفتوة]

منزلة «الفتوة» **حقيقتها**: هي منزلة الإحسان إلىٰ الناس، وكف الأذىٰ عنهم، واحتمال أذاهم؛ فهي استعمال حسن الخلق معهم؛ فهي في الحقيقة

(١) «الفوائد» (٢٤٦).

نتيجة حسن الخلق واستعماله، والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة، فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلىٰ غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلق بغيره.

و«**الفتوة**»: إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخَلْق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق، ومنزلة الفتوة، ومنزلة المروءة، وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة»، بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر ﵁، عن النبي ﷺ: «**إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال**»(١)...

وأقدم من علمته تكلم في «الفتوة» جعفر بن محمد، ثم الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وسهل بن عبد الله، والجنيد، ثم الطائفة.

فيذكر أن جعفر بن محمد سئل عن الفتوة، فقال للسائل: ما تقول أنت؟ فقال: إن أُعطيتُ شكرت، وإن مُنِعت صبرت، فقال: الكلاب عندنا كذلك. فقال السائل: يابن رسول الله، فما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أُعطينا آثرنا، وإن مُنِعنا شكرنا.

---

(١) رواه بنحوه أحمد (٢/ ٣١٨)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وصححه، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٤٥).



وقال **الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: الفتوة: الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -في رواية ابنه عبد الله عنه- وقد سئل عن الفتوة، فقال: تَرْكُ ما تهوىٰ لما تخشىٰ.

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة كلامًا فيها سواه.

وسئل الجنيد عن الفتوة، فقال: لا تنافر فقيرًا، ولا تعارض غنيًّا.

وقال **الحارث المحاسبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: الفتوة أن تُنْصِف ولا تَنْتَصِف.

وقال **عمر بن عثمان المكي** رَحِمَهُ اللَّهُ: الفتوة حُسْن الخُلق.

وقال **محمد بن علي الترمذي** رَحِمَهُ اللَّهُ: الفتوة أن تكون خصمًا لربك علىٰ نفسك.

وقيل: الفتوة ألا ترىٰ لنفسك فضلًا علىٰ غيرك.

وقال **الدقاق** رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الخُلُق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ؛ فإن كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي؛ وهو يقول: «**أُمتي أُمتي**».

وقيل: الفتوة: كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالىٰ؛ وهو نَفْسك، فإن الله حكىٰ عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه جعل الأصنام جذاذًا، فكسر الأصنام له؛ فالفتىٰ مَن كسر صنمًا واحدًا في الله.

وقيل: الفتوة ألا تكون خصمًا لأحد؛ يعني: في حظ نفسك. وأمَّا في حق الله، فالفتوة: أن تكون خصمًا لكل أحد، ولو كان الحبيب المصافيا...

وقيل: ألا تحتجب ممن قصدك. وقيل: ألا تهرب إذا أقبل العافي. يعني: طالب المعروف. وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة. وقيل: ألا تدخر ولا تعتذر.

وقيل: تزوج رجل بامرأة، فلما دخلت عليه رأىٰ بها الجدري فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميتُ. فبعد عشرين سنة ماتتْ ولم تعلم أنه بصير! فقيل له في ذلك فقال: كرهتُ أن يحزنها رؤيتي لما بها، فقيل له: سبقت الفتيان.

وقيل: ليس من الفتوة أن تربح علىٰ صديقك.

واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء علىٰ أيديهم، فانقبض واحد منهم وقال: ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء علىٰ أيدي الرجال، فقال آخر منهم: أنا منذ سنين أدخل إلىٰ هذه الدار ولم أعلم أن امرأة تصب الماء علىٰ أيدينا أو رجلًا.

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتىٰ، فقال الرجل: يا غلام، قدم السفرة؛ فلم يقدم، فقالها ثانيًا وثالثًا فلم يقدم، فنظر بعضهم إلىٰ بعضٍ وقالوا: ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصىٰ عليه في تقديم السفرة كل هذا. فقال الرجل: لم أبطأت بالسفرة؟ فقال الغلام: كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلىٰ الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد، فلبثتُ حتىٰ دب النمل، فقالوا: يا غلام، مثلك يخدم الفتيان!

ومن الفتوة التي لا تُلْحَق: ما يذكر أن رجلًا نام من الحاج في المدينة، ففقد هميانًا فيه ألف دينار، فقام فزعًا، فوجد جعفر بن محمد فعلق به، وقال: أخذت



همياني، فقال: أي شيء كان فيه؟ قال: ألف دينار، فأدخله داره ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجاء إلىٰ جعفر معتذرًا بالمال، فأبىٰ أن يقبله منه وقال: شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبدًا، فقال الرجل للناس: من هذا؟ فقالوا: هذا جعفر بن محمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. اهـ(١).

[من درجات الفتوة]

قال الهروي رَحِمَهُ اللهُ: «وهي علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: ترك الخصومة، والتغافل عن الزلة، ونسيان الأذية».

هذه الدرجة من باب الترك والتخلي؛ وهي ألا يخاصم أحدًا، فلا ينصب نفسه خصمًا لأحد غيرها، فهي خصمه.

وهذه المنزلة -أيضًا- ثلاث درجات: لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومة بقلبه، ولا يخطرها علىٰ باله. هذا في حق نفسه.

وأمَّا في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله وفي الله، ويحاكم إلىٰ الله؛ كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**وبكَ خاصمت، وإليكَ حاكمت**»(٢)، وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ.

وأمَّا «التغافل عن الزلة»: فهو أنه إذا رأىٰ من أحدٍ زلة يوجب عليه الشرع

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٧- ٣٥٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في (التهجد)، (ح١١٢٠)، ومسلم في (صلاة المسافرين)، (ح٧٦٩).

أخذه بها: أظهر أنه لم يرها؛ لئلا يعرض صاحبها للوحشة، ويريحه من تحمل العذر. **وفتوة التغافل**: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

قال أبو علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة؛ فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك. فأوهمها أنه أصم؛ فسُرَّت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت؛ فلُقِّب بحاتم الأصم، وهذا التغافل هو نصف الفتوة.

وأمَّا «**نسيان الأذية**»: فهو بأن تنسىٰ أذية من نالك بأذىٰ ليصفو قلبك له، ولا تستوحش منه.

قلت: وهنا نسيان آخر أيضًا؛ وهو من الفتوة، وهو نسيان إحسانك إلىٰ من أحسنت إليه، حتىٰ كأنه لم يصدر منك، وهذا النسيان أكمل من الأول، وفيه قيل:

ينسىٰ صنائعه، والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

قال الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدرجة الثانية: أن تُقَرِّب من يقصيك، وتكرم من يؤذيك، وتعتذر إلىٰ من يجني عليك؛ سماحة لا كظمًا، ومودة لا مصابرة».

هذه الدرجة أعلىٰ مما قبلها وأصعب؛ فإن الأولىٰ تتضمن ترك المقابلة والتغافل، وهذه تتضمن الإحسان إلىٰ من أساء إليك، ومعاملته بضد ما عاملك به؛ فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين، فخطتُك: الإحسان، وخطته: الإساءة. وفي مثلها قال القائل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم ... وتُذنبون فنأتيكم ونعتذر

ومن أراد فَهْم هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلىٰ سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو علىٰ أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذىٰ له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلىٰ بيت أهله فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلىٰ مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام؛ فسروا به ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه. وهذا مفهوم.

وأمَّا «الاعتذار إلىٰ من يجني عليك» فإنه غير مفهوم في بادي الرأي؛ إذ لم يصدر منك جناية توجب اعتذارًا، وغايتك: أنك لا تؤاخذه، فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذة.

ومعنىٰ هذا: أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه، والجاني خليقٌ بالعذر.

والذي يُشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقمْ الله منك علىٰ يده- كنت في الحقيقة أولىٰ بالاعتذار.

وقوله: «سماحة لا كظمًا، ومودة لا مصابرة» يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطيبة نفس، وانشراح صدر؛ لا عن كظم وضيق ومصابرة؛ فإن ذلك دليل علىٰ أن هذا ليس في خلقك، وإنما هو تكلف يوشك أن يزول، ويظهر حكم الخلق صريحًا فتفتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور علىٰ جسر المصابرة والكظم، فإذا تمكن فيه أفضىٰ به إلىٰ هذه المنزلة بعون الله، والله أعلم. اهـ[1].

[المروءة]

«**المروءة**»: فَعولة من لفظ المرء، كالفتوة من الفتىٰ، والإنسانية من الإنسان؛ ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم، والشيطان الرجيم؛ فإن في النفس ثلاثة دواعٍ متجاذبة: داع يدعوها إلىٰ الإتصاف بأخلاق الشيطان من: الكِبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذىٰ، والفساد، والغش. وداعٍ يدعوها إلىٰ أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

وداعٍ يدعوها إلىٰ أخلاق الملَك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٠- ٣٥٣).

فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة الداعي الثالث. وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة، والفتوة: كلها في عصيان الداعيين، وإجابة الداعي الثالث؛ كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولًا بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق ابن آدم وركَّب فيه العقل والشهوة؛ فمَن غلب عقلُه شهوته التحق بالملائكة، ومَن غلبت شهوتُه عقلَه التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حدِّ المروءة: إنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدها: هي استعمال ما يُجمِّل العبد ويزينه، وترك ما يُدَنِّسه ويشينه.

وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح.

وحقيقة «**المروءة**»: تجنب الدنايا والرذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه، ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولةٍ ويسرٍ.

ومروءة الخُلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلًا وعرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه. فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والمماراة، والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك، وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحدٍ منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير، وهي علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: مروءة المرء مع نفسه؛ وهي أن يحملها قسرًا علىٰ ما يُجَمِّل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية. فمن أراد شيئًا في سره وخلوته: ملكه في جهره وعلانيته، فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشأ بصوت مزعج ما وجد إلىٰ خلافه سبيلًا، ولا يُخرج الريح بصوت وهو يقدر علىٰ خلافه، ولا يَجْشع وَيَنهَم عند أكله وحده.

وبالجملة: فلا يفعل خاليًا ما يستحيي من فعله في الملأ، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل، ولا يكون إلا في الخلوة؛ كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق: بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناسَ مرآة لنفسه؛ فكل ما كرهه ونفر عنه من قول أو فعل أو خُلق، فليجتنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسيئ الخلق وحسنه، وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها؛

كما رُئي عند بعض الأكابر مملوك سيئ الخلق، فظٌّ غليظ، لا يناسبه، فسُئل عن ذلك فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين النفس علىٰ مصاحبته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه؛ بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان؛ فإنه قد اشتراها منك، وأنت ساع في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن. وليس من المروءة: تسليمه علىٰ ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملًا، ورؤيته شهود مِنَّته في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولي له، لا أنت. فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلىٰ عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وإصلاحك. اهـ(١).

[آداب الضيافة]

قوله تعالىٰ عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] متضمن وجوهًا من المدح، وآداب الضيافة، وإكرام الضيف:

منها: قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، والروغان: الذهاب في سرعة واختفاء، وهو

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٧- ٣٦٠).

يتضمن المبادرة إلىٰ إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل، يتبارد علىٰ ضيفه، ثم يبرز بمرأىٰ منه، ويحل صُرة النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأىٰ منه، ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظة ﴿راغ﴾ تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ مدح آخر؛ لما فيه من الإشعار بأن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلىٰ غير أهله؛ إذ نُزُل الضيف حاصل عندهم.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦﴾ **يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:**

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه؛ ليتخيروا من أطايب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزولٍ، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين؛ فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ متضمن لمدح وأدب آخر؛ وهو إحضار الطعام إلىٰ بين أيدي الضيف؛ بخلاف من يهيئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه؛ فيورده عليه.

وقوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ فيه مدح وأدب آخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ ، وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف، بخلاف

من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو ذلك. اهـ[١].

[الاجتماع بالإخوان وآفاته]

الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع علىٰ مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛ فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم علىٰ التعاون علىٰ أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تزين بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح: إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طلب لقاحه طابت ثمرته.

وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك. اهـ[٢].

---

(١) «الرسالة التبوكية» (٢١٢- ٢١٤).

(٢) «الفوائد» (٨٠).

[كثرة الخلطة]

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتىٰ يَسْوَدَّ، يوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًّا وغمًّا، وضعفًا، وحملًا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقىٰ منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلَّت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان علىٰ أبي طالب -عند الوفاة- أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتىٰ حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون علىٰ نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخالط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذا شأن كل مشتركين في غرض؛ يتوادون ما داموا متساعدين علىٰ حصوله؛ فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أُخذوا وعوقبوا، فكل متساعِدَين علىٰ باطل، متوادَّين عليه لا بدَّ أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير؛ كالجمعة، والجماعة، والأعياد، والحج، وتعلم العلم، والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذرَ الحذرَ أن يوافقهم، وليصبر علىٰ أذاهم؛ فإنهم لا بدَّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر؛ ولكن أذىٰ يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذُلٌّ وبغضٌ له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر علىٰ أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلًا، وإن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلىٰ الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُل قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين،

وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقىٰ به إلىٰ الملأ الأعلىٰ، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه علىٰ النفوس، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه؛ فبين العبد وبينه أن يَصْدُق الله تبارك وتعالىٰ، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه علىٰ بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين علىٰ هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها[(١)]، ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله ﷻ، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالىٰ، والله تعالىٰ أعلم. اهـ[(٢)].

❀♦❀

(١) ويعني بها مفسدات القلب: التمني والتعلق بغير الله وكثرة النوم وكثرة الأكل، وقد ورد ذكرها في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب (من ص ١٤٩-١٥٤).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٤، ٤٤٥).



الفصل الرابع: متفرقات

[من صفات المؤمن]

هو في واد والناس في واد؛ خاضع متواضع سليم القلب، سلس القياد للحق، سريع القلب إلىٰ ذكر الله، بريء من الدعاوىٰ، لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهد في كل ما سوىٰ الله، راغب في كل ما يقرب إلىٰ الله، قريب من الناس أبعد شيء منهم، يأنس بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، متفرد في طريق طلبه... لا يفرح بموجود ولا يأسف علىٰ مفقود، مَن جالسه قرَّت عينه به، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه، قد حمل كله ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته وسبَّل لهم عِرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز، لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه، وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال، لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضًا ولا مدحة، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرىٰ له علىٰ أحد حقًّا، ولا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، مقبل علىٰ شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه. اهـ[١].

[الحياء]

تأملْ هذا الخُلُق الذي خُصَّ به الإنسان دون جميع الحيوان؛ وهو خُلق

---

(١) «طريق الهجرتين» (٥١).

الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها، وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء. ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تُؤدَّ أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرىٰ الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة.

وكثيرٌ من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا؛ فإن الباعث علىٰ هذه الأفعال إما ديني -وهو رجاء عاقبتها الحميدة- وإما دنيوي عادي؛ وهو حياء فاعلها من الخلق؛ فقد تبين أنه لولا الحياء إمَّا من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها.

وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»، قالوا: وما حق الحياء؟ قال: **«أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وتذكر المقابر والبلىٰ»**[1]. وقال ﷺ: **«إذا لم تستح فاصنعْ ما شئت»**[2].

وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦].

وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنىٰ: أنك إذا أردت أن تفعل فعلًا فانظر قبل فعله؛ فإن كان مما يستحيىٰ فيه من الله ومن الناس فلا تفعله، وإن كان مما لا يستحيىٰ منه فافعله؛ فإنه ليس بقبيحٍ. وعندي أن هذا الكلام صورته

---

(١) رواه بنحوه الترمذي في (صفة القيامة)، (ح٢٤٥٨)، وأحمد (١/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء)، (ح٣٤٨٤).

صورة الطلب، ومعناه معنىٰ الخبر، وهو في قوة قولهم: «مَن لا يستحي صنع ما يشتهي»؛ فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد، وإنما هو في معنىٰ الخبر، والمعنىٰ: أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء، فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء. اهـ(١).

[أقسام الحياء العشرة]

قُسم «**الحياء**» **علىٰ عشرة أوجه**: حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما فرَّ هاربًا في الجنة؛ قال الله تعالىٰ: «**أفرارًا مني يا آدم؟ قال: لا يا رب؛ بل حياء منك**».

وحياء **التقصير**: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء **الإجلال**: هو حياء المعرفة. وعلىٰ حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء **الكرم**: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلىٰ وليمة زينب، وطوَّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيىٰ أن يقول لهم: انصرفوا(٢).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٣٦- ٢٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (تفسير سورة الأحزاب)، باب (قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾، (ح٥١٦٨)، ومسلم في (النكاح)، (ح١٤٢٨).

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المَذْي؛ لمكان ابنته منه[١].

وحياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه؛ احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها. وفي أثر إسرائيلي: «إن موسىٰ عليه السلام قال: يا رب، إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك هي يا رب. فقال الله تعالىٰ: سَلْني حتىٰ ملح عجينتك، وعلف شاتك».

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسئوله.

وأمَّا حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه؛ حتىٰ إنه إذا خطر علىٰ قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة. ومنه قولهم: «جمال رائع»، وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس. ولا ريب أن للمحبة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن؛ فأين من يقهر قلبك وروحك إلىٰ من يقهر بدنك؟ ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق، وقهر المحبوب لهم، وذلهم له، فإذا فاجأ المحبوب محبه ورآه بغتة: أحس القلب بهجوم سلطانه عليه، فاعتراه روعة وخوف.

وسألنا يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- عن هذه المسألة؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الغسل)، (ح٢٦٩)، ومسلم في (الحيض)، (ح٣٠٣).



فذكرت أنا هذا الجواب، فتبسم ولم يقل شيئًا.

وأمَّا الحياء الذي يعتريه منه، وإن كان قادرًا عليه -كأمته وزوجته- فسببه -والله أعلم- أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه، فتولد منها الحياء. وأما حصول ذلك له في غيبة المحبوب فظاهر؛ لاستيلائه علىٰ قلبه، فوهمه يغالطه عليه ويكابره، حتىٰ كأنه معه.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلىٰ وأجل منها؛ فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذلٍ أو عطاء وإحسان؛ فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة، وهذا له سببان:

أحدهما هذا، **والثاني**: استحياؤه من الآخذ، حتىٰ كأنه هو الآخذ السائل، حتىٰ إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل في حياء التلوم؛ لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون؛ فيجد نفسه مستحيًا من نفسه، حتىٰ كأن له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرىٰ. وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيىٰ من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر. اهـ[(١)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٧- ٢٧٠).

[الورع]

«الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام علىٰ قلبه وحاله، ويؤثر كل منهما في الآخر؛ ولهذا نهي عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع؛ لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتىٰ إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]، فهذا يعم الترك لما لا يعنىٰ من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات. وفي الترمذي مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، كُنْ ورعًا تكن أعبد الناس**»[2].

---

(١) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (١١)، (ح٢٣١٧، ٢٣١٨)، وابن ماجه في (الفتن)، (ح٣٩٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، برقم (٣٢١١).

(٢) رواه ابن ماجه في (الزهد)، باب (الورع والتقوىٰ)، (ح٤٢١٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، برقم (٣٣٩٨).

قال الشبلي: الورع أن يتورع عن كل ما سوىٰ الله. وقال إسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

وقال **أبو سليمان الداراني**: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا...

وقال **يونس بن عبيد**: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال **سفيان الثوري**: ما رأيت أسهل من الورع: ما حاك في نفسك فاتركه.

وقال **سهل**: الحلال هو الذي لا يعصىٰ الله فيه، والصافي منه الذي لا ينسىٰ الله فيه. وسأل الحسن غلامًا فقال له: ما مِلاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فعجب الحسنُ منه.

وقال **الحسن**: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقال **أبو هريرة** رضي الله عنه: جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد.

وقال **بعض السلف**: لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع ما لا بأس به؛ حذرًا مما به بأس.

وقال **بعض الصحابة**: كنا ندع سبعين بابًا من الحلال؛ مخافة أن نقع في باب من الحرام. اهـ[١].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٩- ٣١).

[مراتب الجود]

«**الجود**» عشر مراتب:

إحداها: الجود بالنفس؛ وهو أعلىٰ مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة؛ وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده علىٰ امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه؛ فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره، كما قيل:

مُتَيَّم بالنَّدىٰ، لو قال سائله: ... هب لي جميع كَرَىٰ عينيك، لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله؛ وهو من أعلىٰ مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به علىٰ مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: ألا ينفع به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: «نعم» أو «لا»، مقتصرًا عليها.



ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في ذلك أمرًا عجيبًا:

كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بين الناس، فمَن أحب الوقوف عليها رأىٰ ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر علىٰ مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها؛ بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر، فقال: «**هو الطهور ماؤه، الحِلُّ** ميتته»[(١)]، فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم علىٰ علته وحكمته؛ كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر، فقال: «**أينقص الرطب إذا جفَّ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فلا إذن**»[(٢)]، ولم يكن يخفىٰ عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم علىٰ علة الحكم.

وهذا كثير جدًّا في أجوبته ﷺ؛ مثل قوله: «**إن بعتَ من أخيك ثمرة**

---

(١) رواه أبو داود في (الطهارة)، باب (الوضوء بماء البحر)، (ح٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، برقم (٧٦).

(٢) رواه أبو داود بنحوه في (البيوع)، باب (في التمر بالتمر)، (ح٣٣٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٨٧١).

فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا. بمَ يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟!»، وفي لفظٍ: «**أرأيت إن منع الله الثمرة: بمَ يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟!**»[1]، فصرح بالعلة التي حرم لأجلها إلزامه بالثمن؛ وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه -يعني شيخ الإسلام ابن تيمية- يعيبونه بذلك ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر -مثلًا- فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند، وأي حاجة بالسائل إلىٰ ذلك؟!

ولعمر الله ليس ذلك بعيب؛ وإنما العيب: الجهل والكبر؛ وهذا موضع المثل المشهور: «لقبوه بحامض وهو خل مثل مَن لم يصل إلىٰ العنقود».

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه؛ كالشفاعة والمشي مع الرجل إلىٰ ذي سلطان ونحوه؛ وذلك زكاة الجاه المطالَبُ بها العبد، كما أن التعليم وبَذْل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن علىٰ اختلاف أنواعه؛ كما قال ﷺ: «**يصبح علىٰ كل سُلامَىٰ من أحدكم صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلىٰ الصلاة صدقة، ويميط الأذىٰ عن الطريق صدقة**»، متفق عليه[2].

---

(١) رواه مسلم بنحوه في (المساقاة)، باب (وضع الجوائح)، (ح١٥٥٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها؛ كتاب (الجهاد والسير)، (ح٢٩٨٩، ومسلم في صلاة المسافرين...)، (ح٧٢٠).



السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَم -من الصحابة رضي الله عنهم- كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعِرضي؛ فمَن شتمني أو قذفني فهو في حِل»، فقال النبي ﷺ: «**مَن يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟**»(١).

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخَلْق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود؛ فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفتوة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه، ومقام الفضل، وندب إليه، ومقام الظلم، وحرَّمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة؛ وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو؛ وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم؛ وهو أثقل ما يوضع في الميزان؛

---

(١) رواه أبو داود في (الأدب)، باب (ما جاء في الرجل يحل الرجل قد اغتابه)، (ح٤٨٨٧)، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود»، برقم (١٠٤٢).

قال النبي ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقىٰ أخاك ووجهك منبسط إليه**»(١)، وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بماله، ويمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم؛ فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه؛ وهذا الذي قال عبد الله ابن المبارك: «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به علىٰ الناس، فجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم، وما في أيديهم؛ تَفْضُل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان. اهـ(٢).

[أقوال وأحوال السلف في التواضع]

سُئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع ألا ترىٰ لنفسك قيمة؛ فمن رأىٰ لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. وهذا مذهب الفضيل وغيره.

---

(١) رواه مسلم في (البر والصلة والآداب)، (ح٢٦٢٦).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٧- ٣٠١).



وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال أبو يزيد البسطامي: هو ألا يرىٰ لنفسه مقامًا ولا حالًا، ولا يرىٰ في الخلق شرًّا منه.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والعزُّ في التواضع؛ فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعز في التقوىٰ، والحرية في القناعة...

وقال عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ عاتقه قِربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها.

وولي أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمارة مرة، فكان يحمل حُزْمة الحطب علىٰ ظهره ويقول: طَرِّقوا للأمير.

وركب زيد بن ثابت مرة، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه، فقال: مَهْ يابن عم رسول الله! فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا، فقال: أرني يدكَ. فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أُمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقسم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حللًا، فبعث إلىٰ معاذ حُلَّة مثمنة، فباعها واشترىٰ بثمنها ستة أعبد وأعتقهم، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها، فعاتبه معاذ، فقال عمر: لأنك بعت الأولىٰ، فقال معاذ: وما

عليك؟ ادفعْ لي نصيبي، وقد حلفت لأضربن بها رأسك، فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك، وقد يرفق الشاب بالشيخ.

ومر الحسنُ علىٰ صبيان معهم كِسرُ خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلىٰ منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم؛ لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه عَيَّر بلالًا رضي الله عنه بسواده، ثم ندم، فألقىٰ بنفسه فحلف: لا رفعت رأسي حتىٰ يطأ بلال خدِّي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتىٰ فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة. قَوَّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه -وهو يخطب- باثني عشر درهمًا. وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

ورأىٰ محمد بن واسع ابنًا له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم شريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك -لا كثر الله في المسلمين مثله- أنا، وأنت تمشي هذه المشية؟

وقال حمدون القصار: التواضع ألا ترىٰ لأحدٍ إلىٰ نفسك حاجة؛ لا في الدين ولا في الدنيا...

وقال بعضهم: رأيت في الطواف رجلًا بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة علىٰ جسر بغداد يسأل شيئًا. فتعجبت منه، فقال لي: إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه.

وبلغ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ابنًا له اشترىٰ خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فَصًّا بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فَصَّه حديدًا صينيًّا، واكتب عليه: رحم اللهُ امرءًا عرف قدر نفسه. اهـ[1].

[الشجاعة والجبن]

فصل في مدح القوة والشجاعة، وذم العجز والجبن:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالىٰ في حق المؤمنين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال فيهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ [النساء: ١٠٤] أي: لا تضعفوا. وقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي «الصحيحين»، عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرصْ علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»[2].

وكان ﷺ يتعوَّذ بالله من الجُبْن. والجُبن خلق مذموم عند جميع الخلق، وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله، وأهل الشجاعة والجود هم أهل حسن

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) رواه مسلم في (القدر)، باب (في الأمر بالقوة...)، (ح٢٦٦٤)، ولم أجده عند البخاري.

الظن بالله، والشجاعة حصن للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه علىٰ نفسه؛ فهو جند وسلاح يعطيه عدوه ليحاربه به.

وقالت العرب: الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة.

وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنهم أنَّ جبنهم ينجيهم من القتل والموت، فقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]...

واعتُبر ذلك في معارك الحروب بأن مَن يُقتل مدبرًا أكثر ممن يُقتل مقبلًا.

وفي وصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد رضي الله عنهما: احرصْ علىٰ الموت توهَب لك الحياة.

وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: حضرت كذا وكذا زحفًا في الجاهلية والإسلام، وما في جسدي موضع إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف، وهأنذا أموت علىٰ فراشي، فلا نامت أعين الجبناء.

ولا ريب عند كل عاقل أن استقبال الموت إذا جاءك خير من استدباره... وكانوا يفتخرون بالموت علىٰ غير فراش. ولما بلغ عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قتل أخيه مصعب قال: إن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وعمه، وإنا والله لا نموت حتف أنفنا، لكن حتفنا بالرماح وتحت ظلال السيوف...

ولو لم يكن في الشجاعة إلا أن الشجاع يَرِد صيتُه واسمه عنه أدنىٰ الخلق، ويمنعهم من الإقدام عليه، لكفىٰ بها شرفًا وفضلًا...



قال عمرو بن معدي كرب: الفزعات ثلاثة: فمن كانت فزعته في رجليه، فذلك الذي لا تقله رجلاه، ومن كانت فزعته في رأسه، فذاك الذي يفر عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه، فذاك الذي لا يقاتل.

والجبن والشجاعة غرائز وأخلاق؛ فالجبان يفر عن عرسه، والشجاع يقاتل عمَّن لا يعرفه، كما قال الشاعر:

يفـــرُّ جبــان القـــوم عـــن أمِّ نفســـه ويحمي شجاع القوم مَن لا يناسبه

والشجاع ضد البخيل؛ لأن البخيل يضنُّ بماله، والشجاع يجود بنفسه. اهـ[1].

[أصول مهمة في تربية الأبناء]

مما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناءُ بأمر خُلُقه؛ فإنه ينشأ علىٰ ما عوَّده المربي في صغره: من حردٍ[2]، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز، فضحته ولا بدَّ يومًا ما؛ ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم؛ وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها، وكذلك يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل، والغناء، وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء؛ فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعزَّ علىٰ وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلىٰ استجداد طبيعة ثانية،

---

(١) «الفروسية» (٣١٤- ٣٢٠).

(٢) الحرد: هو الغضب. القاموس المحيط، مادة (ح ر د).

والخروج عن حكم الطبيعة عَسِرٌ جدًّا.

وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب؛ فإنه متىٰ اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ، لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا أعطاه إياه علىٰ يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع؛ فإنه متىٰ سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة، وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة، والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل؛ فإن الكسل والبطالة عواقب سوء، ومغبَّة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة: إما في الدنيا، وإما في العقبىٰ، وإما فيهما؛ فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا، والسعادة في العقبىٰ لا يوصل إليها إلا علىٰ جسر من التعب؛ قال يحيىٰ بن أبي كثير: لا يُنال العلم براحة الجسم.

ويعوده الانتباه آخر الليل؛ فإنه وقت قسم الغنائم، وتفريق الجوائز، فمستقل، ومستكثر، ومحروم، فمتىٰ اعتاد ذلك صغيرًا سهل عليه كبيرًا.

ويجنبه فضول الطعام، والكلام، والمنام، ومخالطة الأنام؛ فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوِّت علىٰ العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب؛ فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فسادًا يعز عليه بعده صلاحه، وكم ممَّن أشقىٰ ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه، وإعانته له علىٰ شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوَّت عليه حظه

في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشىٰ فساده، أو كلامه له، أو الأخذ في يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتىٰ سهل عليه ذلك فقد استسهل الدياثة، و«**لا يدخل الجنة ديوث**»(١).

فما أفسد الأبناء مثل تغفل الآباء وإهمالهم، واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمد العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون؛ فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرَّضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها، وإعراضهم عمَّا أوجب الله عليهم من العلم النافع، والعمل الصالح؛ حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

ويجنبه لبس الحرير؛ فإنه مفسد له، ومخنث لطبيعته، كما يخنثه اللواط، وشرب الخمر والسرقة والكذب، وقد قال النبي ﷺ: «**يحرم الحرير والذهب علىٰ ذكور أمتي، وأحل لإناثهم**»(٢)، والصبي وإن لم يكن مكلفًا، فوليه مكلف لا يحل له تمكينه من المحرم؛ فإنه يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قولي العلماء، واحتج من لم يره حرامًا عليه بأنه غير مكلف؛ فلم يحرم لبسه للحرير كالدابة، وهذا من أفسد القياس؛ فإن الصبي وإن لم يكن مكلفًا فإنه مستعد

(١) روىٰ الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ٦٩، ١٢٨ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مُدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يُقر في أهله الخبث**».

(٢) رواه بنحوه الترمذي في (اللباس)، باب (ما جاء في الحرير والذهب)، (ح١٧٢٠، وقال: «حسن صحيح»، ورواه ابن ماجه في (اللباس)، (ح٣٥٩٥، ٣٥٩٧)، وأحمد (٤/ ٣٩٤).

للتكليف؛ ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عريانًا ونجسًا، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

ومما ينبغي أن يعتمد: حال الصبي، وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها؛ فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله علىٰ غيره ما كان مأذونًا فيه شرعًا؛ فإنه إن حمله علىٰ غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ، واعيًا؛ فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خاليًا؛ فإنه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يخلق له، مكَّنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها؛ فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك وأنه لم يخلق لذلك، ورأىٰ عينه مفتوحة إلىٰ صنعة من الصنائع، مستعدًّا لها، قابلًا لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكِّنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه؛ فإن ذلك ميسر علىٰ كل أحد؛ لتقوم حجة الله علىٰ العبد؛ فإن له علىٰ عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم. اهـ[1].

[قبل أن تسمي ولدك]

لما كانت الأسماء قوالب للمعاني، ودالة عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب، وألا يكون المعنىٰ معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلق له بها؛ فإن حكمة الحكيم تأبىٰ ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل

(١) «تحفة المودود» (١٤٦ - ١٤٨).



للأسماء تأثيرٌ في المسميات، وللمسميات تأثر عن أسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة؛ كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

وكان ﷺ يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أبردوا إليه بريدًا أن يكون حسن الاسم، حسن الوجه. وكان يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة؛ كما رأىٰ أنه وأصحابه في دار عقبة بن رافع، فأتوا برطب من رطب ابن طاب، فأوله بأن لهم الرفعة في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن الدين الذي قد اختاره الله لهم قد أرطب وطاب، وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجيء سهيل بن عمرو إليه.

وندب جماعة إلىٰ حلب شاة، فقام رجل يحلبها، فقال: «**ما اسمك؟**»، قال: مرة، فقال: «**اجلس**»، فقام آخر، فقال: «**ما اسمك؟**»، قال: أظنه حرب، فقال: «**اجلس**»، فقام آخر، فقال: «**ما اسمك؟**»، فقال: يعيش، فقال: «**احلبها**»(١).

وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسماء، ويكره العبور فيها، كما مر في بعض غزواته بين جبلين، فسأل عن اسميهما، فقالوا: فاضح ومخز، فعدل عنهما، ولم يجز بينهما.

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة، ما بين قوالب الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواح والأجسام عبر العقل من كل منهما إلىٰ الآخر، كما كان إياس بن معاوية وغيره يرىٰ الشخص، فيقول: ينبغي أن يكون اسمه كيت وكيت، فلا يكاد يخطئ، وضد هذا العبور من الاسم إلىٰ مسماه، كما سأل

---

(١) رواه مالك في «الموطأ»، كتاب (الجامع)، باب (ما يُكره من الأسماء)، (ح١٨١٩).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا عن اسمه، فقال: جمرة، فقال: واسم أبيك؟ قال: شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: فمنزلك؟ قال: بحرة النار، قال: فأين مسكنك؟ قال: بذات لظىٰ، قال: اذهبْ فقد احترق مسكنك، فذهبَ فوجد الأمر كذلك.

فعبر عمر رضي الله عنه من الألفاظ إلىٰ أرواحها ومعانيها، كما عبر النبي ﷺ من اسم سهيل إلىٰ سهولة أمرهم يوم الحديبية، فكان الأمر كذلك، وقد أمر النبي ﷺ أمته بتحسين أسمائهم، وأخبر أنهم يدعون يوم القيامة بها، وفي هذا -والله أعلم- تنبيه علىٰ تحسين الأفعال المناسبة لتحسين الأسماء؛ لتكون الدعوة علىٰ رءوس الأشهاد بالاسم الحسن، والوصف المناسب له.

وتأملْ كيف اشتُقَّ للنبي ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه، وهما: أحمد ومحمد؛ فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد، ولشرفها وفضلها علىٰ صفات غيره أحمد، فارتبط الاسم بالمسمىٰ ارتباط الروح بالجسد، وكذلك تكنيته ﷺ لأبي الحكم بن هشام بأبي جهل، كنية مطابقة لوصفه ومعناه، وهو أحق الخلق بهذه الكنية، وكذلك تكنية الله عز وجل لعبد العزىٰ بأبي لهب؛ لما كان مصيره إلىٰ نار ذات لهب، كانت هذه الكنية أليق به وأوفق، وهو بها أحق وأخلق.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة، واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم غيَّره بطيبة؛ لما زال عنها ما في لفظ يثرب من التثريب بما في معنىٰ طيبة من الطيب، استحقت هذا الاسم، وازدادت به طيبًا آخر، فأثَّر طيبها في استحقاق الاسم، وزادها طيبًا إلىٰ طيبها.

ولما كان الاسم الحسن يقتضي مسماه ويستدعيه من قرب، قال النبي ﷺ



لبعض قبائل العرب وهو يدعوهم إلىٰ الله وتوحيده: «**يا بني عبد الله، إن الله قد حسَّن اسمكم واسم أبيكم**»(١)، فانظر كيف دعاهم إلىٰ عبودية الله بحسن اسم أبيهم، وبما فيه من المعنىٰ المقتضي للدعوة، وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر كيف اقتضىٰ القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ؛ فكان الكفار: شيبة، وعتبة والوليد، ثلاثة أسماء من الضعف، فالوليد له بداية الضعف، وشيبة له نهاية الضعف، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤]، وعتبة من العتب، فدلت أسماؤهم علىٰ عتب يحل بهم، وضعف ينالهم، وكان أقرانهم من المسلمين: علي، وعبيدة، والحارث رضي الله عنهم؛ ثلاثة أسماء تُناسب أوصافهم وهي: العلو، والعبودية، والسعي الذي هو الحرث؛ فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم في حرث الآخرة.

ولما كان الاسم مقتضيًا لمسماه ومؤثرًا فيه، كان أحب الأسماء إلىٰ الله ما اقتضىٰ أحب الأوصاف إليه؛ كعبد الله، وعبد الرحمن، وكان إضافة العبودية إلىٰ اسم الله، واسم الرحمن، أحب إليه من إضافتها إلىٰ غيرهما، كالقاهر والقادر، فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القادر، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه؛ وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها أن يتأله له وحده محبة وخوفًا، ورجاء وإجلالًا وتعظيمًا، فيكون عبدًا لله، وقد عبده لما في اسم الله من معنىٰ الإلهية التي يستحيل أن تكون لغيره، ولما غلبت رحمته غضبه وكانت

---

(١) لم نجده.

الرحمة أحب إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر. اهـ[(١)].

[النصيحة العمرية]

قال علي بن الجعد: حدثنا شعبة قال: أخبرني قتادة قال: سمعت أبا عثمان النهدي قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان: أمَّا بعدُ؛ فاتزروا، وارتدوا، وانتعلوا، وألقوا الخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم وزي العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمَّام العرب، وتَمَعْدَدُوا، واخشوشنوا، واخْلَولِقوا، واقطعوا الركب، وانزوا علىٰ الخيل نزوًا، وارموا الأغراض.

قلت: هذا تعليم منه للفروسية، وتمرين للبدن علىٰ التَّبَذُّل، وعدم الرفاهية والتنعم، ولزوم زي ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ فأمرهم بالاتزاز، والارتداء، والانتعال، وإلقاء الخفاف، لتعتاد الأرجل الحر والبرد، فتتصلب وتقوىٰ علىٰ دفع أذاهما، وقوله: وألقوا السراويلات، استغناء عنها بالأزر وهو زي العرب، وبين منفعتي الأزر والسروايل تفاوت من وجه، فهذا أنفع من وجه، وهذا أنفع من وجه؛ فالإزار أنفع في الحر، والسروايل أنفع في البرد، والسراويل أنفع للراكب، والإزار أنفع للماشي.

وقوله: وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، هذا يدل علىٰ أن لباسه كان الأُزر والأردية، وقوله: وإياكم والتنعم وزي العجم، فإن التنعم يُخَنِّث النفس ويكسبها الأنوثة والكسل، ويكون صاحبه أحوج ما يكون إلىٰ نفسه، وما آثره من أفلح، وأما

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٣٦- ٣٤٠).

زي العجم فالمشابهة في الزي الظاهر تدعو إلىٰ الموافقة في الهدي الباطن، كما دل عليه الشرع والعقل والحس، ولهذا جاءت الشريعة بالمنع من التشبه بالكفار، والحيوانات، والشياطين، والنساء، والأعراب، وكل ناقص، حتىٰ نُهي في الصلاة عن التشبه بشبه أنواع من الحيوان يفعلها -أو كثيرًا منها- الجُهَّال.

نُهي عن نقر كنقر الديك والغراب، والتفات كالتفات الثعلب، وإقعاء كإقعاء الكلب، وافتراش كافتراش السبع، وبروك كبروك الجمل، ورفع الأيدي يمينًا وشمالًا عند السلام كأذناب الخيل.

ونهي عن التشبه بالشياطين في الأكل والشرب بالشمال، وفي سائر خصال الشيطان، ونهي عن التشبه بالكفار في زيهم وكلامهم وهديهم، حتىٰ نهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح؛ فإن الكفار يسجدون للشمس في هذين الوقتين.

ونهي عن التشبه بالأعراب وهم أهل الجفاء والبدو، فقال: «**لا يَغْلبنكم الأعراب علىٰ اسم صلاتكم العتمة، وإنها العشاء في كتاب الله**»(١)، ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء.

وقوله: عليكم بالشمس؛ فإنها حمام العرب، فإن العرب لم تكن تعرف الحمام ولا كان بأرضهم، وكانوا يتعوضون عنه بالشمس؛ فإنها تسخن وتحلل كما يفعل الحمَّام. وقوله: وتمعددوا؛ أي: الزموا المعدية، وهي عادة معد بن عدنان في أخلاقه وزيه وفروسيته وأفعاله. وقوله: واخشوشنوا؛ أي: تعاطوا ما

---

(١) رواه مسلم بنحوه في (المساجد ومواضع الصلاة)، (ح٦٤٤).

يوجب الخشونة، ويصلب الجسم ويصبره علىٰ الحر والبرد والتعب والمشاق؛ فإن الرجل قد يحتاج إلىٰ نفسه فيجد عنده خشونة وصبرًا ما لا يجدها صاحب التنعم والترفه، بل يكون العطب إليه أسرع. وقوله: واخلولقوا؛ فهو من قوله: اخلولق السحاب بعد تفرقه؛ أي: اجتمع وتهيأ للمطر، وصار خليقًا له، فمعنىٰ اخلولقوا: تهيئوا واستعدوا لما يُراد منكم وكونوا خلقاء به، جديرين بفعله، لا كمن ضيع أركان وأسباب فروسيته وقوته فلم يجدها عند الحاجة.

وقوله: واقطعوا الركب؛ إنما أمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائمًا بالركاب، فأحبَّ أن يعودهم الركوب بلا رُكُب، وأن ينزوا علىٰ الخيل نزوًا. وقوله: ارموا الأغراض: أمرهم بأن يكون قصدهم في الرمي الإصابة لا البعد، وهذا هو مقصود من الرمي، ولهذا إنما تكون المناضلة علىٰ الإصابة لا علىٰ البعد. اهـ[(١)].

[مفاسد الكذب]

مفاسد الكذب معلومة عند خاصة الناس وعامتهم، كيف وهو منشأ كل شر، وفساد الأعضاء لسان كذوب! وكم قد أزيلت بالكذب من دول وممالك وخربت به من بلاد، واستلبت به من نعم، وتعطلت به من معايش، وفسدت به مصالح، وغرست به عداوات، وقطعت به مودات، وافتقر به غني، وذل به عزيز، وهتكت به مصونة، ورميت به محصنة، وخلقت به دور وقصور، وعمرت به قبور، وأزيل به أنس واستجلبت به وحشة، وأفسد به بين الابن وأبيه، وغاض بين الأخ وأخيه،

(١) «الفروسية» (٤٢ - ٤٦).

وأحال الصديق عدوًّا مبينًا، ورد الغني العزيز ذليلًا مسكينًا، وكم فرق بين الحبيب وحبيبه فأفسد عليه عيشته ونغَّص عليه حياته! وكم جلا عن الأوطان! وكم سوَّد من وجوه وطمس من نور، وأعمىٰ من بصيرة، وأفسد من عقل، وغيَّر من فطرة، وجلب من معرَّة، وقطعت به السبل، وعفت به معالم الهداية، ودرست به من آثار النبوة، وخفيت به من طرق الرشاد، وتعطلت به من مصالح العباد في المعاش والمعاد!

وهذا وأضعافه ذرة من مفاسده، وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه، ألا فما يجلبه من غضب الرحمن، وحرمان الجنان، وحلول دار الهوان أعظم من ذلك، وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب، والكاذبين علىٰ الله، وعلىٰ رسوله، وعلىٰ دينه، وعلىٰ أوليائه المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية؟! وهل عمرت الجنان إلا بأهل الصدق والصادقين المصدقين بالحق؟ قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر: ٣٢- ٣٤]. اهـ[1].

[انتفاع العاطس والمشمت]

لما كان العاطس قد حصلت له بالعطاس نعمة ومنفعة بخروج الأبخرة المحتقنة في دماغه التي لو بقيت فيه أحدثتْ له أدواء عسرة، شُرِع له حمدُ الله علىٰ هذه النعمة مع بقاء أعضائه علىٰ التئامها وهيئتها بعد هذه الزلزلة التي هي للبدن

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٧٤- ٤٧٥).

كزلزلة الأرض لها، ولهذا يقال: سمَّتُه وشمَّته -بالسين والشين- فقيل: هما بمعنىٰ واحد، قاله أبو عبيدة وغيره. قال: وكل داع بخير، فهو مشمت ومسمت.

وقيل: بالمهملة دعاء له بحُسن السمت، وبعوده إلىٰ حالته من السكون والدعة؛ فإن العطاس يحدث في الأعضاء حركة وانزعاجًا. وبالمعجمة: دعاء له بأن يصرف الله عنه ما يشمت به أعداءه، فشمته: إذا أزال عنه الشماتة، كقرَّد البعير: إذا أزال قراده عنه.

وقيل: هو دعاء له بثباته علىٰ قوائمه في طاعة الله؛ مأخوذ من الشوامت، وهي القوائم.

وقيل: هو تشميت له بالشيطان، لإغاظته بحمد الله علىٰ نعمة العطاس، وما حصل له به من محاب الله؛ فإن الله يحبه، فإذا ذكر العبد الله وحمده، ساء ذلك الشيطان من وجوه:

منها: نفس العطاس الذي يحبه الله، وحمد الله عليه، ودعاء المسلمين له بالرحمة، ودعاؤه لهم بالهداية، وإصلاح البال، وذلك كله غائظ للشيطان، محزن له، فتشميت المؤمن بغيظ عدوه وحزنه وكآبته، فسُمي الدعاء له بالرحمة تشميتًا له؛ لما في ضمنه من شماتته بعدوه، وهذا معنىٰ لطيف إذا تنبه له العاطس والمشمت انتفعا به وعظمت عندهما منفعة نعمة العطاس في البدن والقلب، وتبين السر في محبة الله له، فلله الحمد الذي هو أهله كما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله. اهـ[1].

ﮋ♦ﮊ

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩).



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



